بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الجن

مكّيّةٌ في قول الجميع. وهي ثمان وعشرون آية

[١] ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾.

[٢] ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾.

[٣] ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي قل يا محمد لأمتك: أَوْحَى الله إليّ على لسان جبريل ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ إليّ ﴿نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وما كان عليه السلام عالماً به قبل أن أوحى إليه. هكذا قال ابن عباس وغيره على ما يأتي. وقرأ ابن أبي عَبْلة «أُحِيَ»[١] على الأصل؛ يقال: أَوحَى إليه ووَحَى، فقلبت الواو همزة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة. وقد أطلقه المازنيّ في المكسورة أيضاً كإشاح[٢] وإسادة و «إِعَاءِ أَخِيهِ» ونحوه.

الثانية ـ واختُلِف هل رآهم النبي ﷺ أم لا؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم؛ لقوله تعالى: ﴿اسْتَمَعَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾. وفي صحيح مسلم والترمذي[٣] عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ

---

(١) في الأصول (وحى)، والصواب ما أثبتناه، وهو موافق لما جاء في (تاج العروس: وحي) قال: وقرأ جؤية الأسدي: (قل أُحي إليّ)، ولم ينسب القراءة لابن أبي عبلة.

(٢) لفظ «إشاح» ساقط من الأصل المطبوع.

(٣) اللفظ لمسلم، وأما الترمذي ففي لفظه زيادة.

على الجنّ وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عُكَاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهُب، فرجعت الشياطين إلى قومهم؛ فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشُّهب! قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فٱضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فٱنظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تِهامة وهو بنخلة[١] عامدين إلى سُوق عُكَاظ، وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر؛ فلما سمعوا القرآن ٱستمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً[٢] * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾. رواه الترمذي عن ٱبن عباس قال: قول الجنّ لقومهم ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ قال: لما رأوه يصلّي وأصحابه يصلّون بصلاته فيسجدون بسجوده قال[٣]: تعجّبوا من طواعية أصحابه له، قالوا لقومهم: ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح؛ ففي هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم يرَ الجنّ ولكنهم حضروه، وسمعوا قراءته. وفيه دليل على أن الجنّ كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لما رُمُوا بالشّهب. وكان المرميّون بالشّهب من الجنّ أيضاً. وقيل لهم شياطين كما قال: ﴿ شَيَاطِينَ ٱلإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ فإن الشيطان كل متمرّد وخارج عن طاعة الله. وفي الترمذي عن ٱبن عباس قال: كان الجنّ يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوَحْي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقًّا، وأما ما زادوا فيها[٤]، فيكون باطلاً. فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنِعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا الأمر[٥] إلا من[٦] أمر قد حدث في الأرض!

---

(١) كذا في أ، ح، ط وهو الصواب. (٢) في ح: «إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى قرآنا عجباً»... الخ. (٣) في ح: «ويسجدون معه...». (٤) كلمة «فيها» ساقطة من الأصل المطبوع. (٥) كلمة «الأمر» ساقطة من الأصل المطبوع. (٦) في ط «عن» في موضع «من».

فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلّي بين جبلين ـ أراه قال بمكة ـ فأتوه فأخبروه فقال: هذا الحَدث[١] الذي حدث في الأرض. قال: هذا حديث حسن صحيح. فدلّ هذا الحديث على أن الجنّ رُموا كما رُميت الشياطين. وفي رواية السُّديّ: أنهم لما رمُوا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم فقال: إيتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمّها فأتوه فشمّ فقال: صاحبكم بمكة. فبعث نفراً من الجنّ، قيل: كانوا سبعة. وقيل: تسعة منهم زَوْبعة. وروى عاصم عن زِرّ قال: قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبي ﷺ. وقال الثُّماليّ: بلغني أنهم من بني الشَّيْصَبَان، وهم أكثر الجنّ عدداً، وأقواهم شوكة، وهم عامة جنود إبليس. ورَوى أيضاً عاصم عن زرّ: أنهم كانوا سبعة نفر؛ ثلاثة من أهل حَرَّان وأربعة من أهل نَصِيبين. وحكى جُويبر عن الضحاك: أنهم كانوا تسعة من أهل نَصِيبين (قرية باليمن غير التي بالعراق)[٢]. وقيل: إن الجنّ الذين أتوا مكة جنّ نِصيبين، والذين أتوه بنخلة جنّ نِيْنَوَى. وقد مضى بيان هذا في سورة «الأحقاف»[٣]. قال عِكرمة: والسورة التي كان يقرؤها رسول الله ﷺ ﴿اقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وقد مضى في سورة «الأحقاف» التعريف بٱسم النفر من الجنّ، فلا معنى لإعادة ذلك.

وقيل: إن النبي ﷺ رأى الجنّ ليلة الجنّ وهو أثبت؛ روى عامر الشّعبي قال: سألت علقمة هل كان ٱبن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ؟ فقال علقمة: أنا سألت ٱبن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجنّ؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشّعاب، فقلنا ٱستُطير[٤] أو ٱغتيل، قال: فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم، فلما أصبح إذا هو يجيء من قبل حِرَاء، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك وطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم؛ فقال: «أتاني داعي الجنّ فذهبت معه

---

(١) كلمة «الحدث» ساقطة من الأصل المطبوع.

(٢) لم نجد نصيبين التي ذكرها المؤلف في «معجم ما استعجم» للبكري ولا في «معجم البلدان» لياقوت، ولا فيما نقله صاحب «تاج العروس» عن ياقوت.

(٣) راجع ١٦/٢١١. (٤) في التاج: استطير فلان: ذعر.

فقرأت عليهم القرآن» فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة؛ فقال: «لكم كلّ عَظْم ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوْفَرَ ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرة عَلفٌ لدوابكم ـ فقال رسول الله ﷺ: فلا تستنجُوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم الجنّ» قال ابن العربي: وابن مسعود أعرف من ابن عباس؛ لأنه شاهده وابن عباس سمعه وليس الخبر كالمعاينة. وقد قيل: إن الجنّ أتوا رسول الله ﷺ دفعتين: إحداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود، والثانية بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس. قال البيهقيّ: الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أوّل ما سمعت الجنّ قراءة النبي ﷺ وعلمت بحاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعي الجنّ مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود. قال البيهقي: والأحاديث الصحاح تدل على أن ابن مسعود لم يكن مع النبي ﷺ ليلة الجنّ، وإنما سار معه حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجنّ وآثار نيرانهم. قال: وقد رُوي من غير وجه أنه كان معه ليلتئذٍ، وقد مضى هذا المعنى في سورة «الأحقاف» والحمد لله. روي عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أتلو القرآن على الجنّ فمن يذهب معي؟» فسكتوا، ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، ثم قال عبد الله بن مسعود: أنا أذهب معك يا رسول الله، فانطلق حتى جاء الحَجُون عند شِعْب أبي دُبّ[1] فخطّ عليَّ خطّاً فقال: «لا تجاوزه» ثم مضى إلى الحَجُون فَانحدر عليه أمثالُ الحَجَل يحدرون[2] الحجارة بأقدامهم، يمشون يقرعون في دفُوفهم كما تَقْرع النِّسوة في دُفوفها، حتى غَشَوه فلا أراه، فقمت فأوْمَى إليّ بيده أن أجلس، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم، فلما انفتل إليّ قال: «أردتَ أن تأتيني»؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: «ما كان ذلك لك، هؤلاء الجنّ أتوا يستمعون القرآن، ثم ولّوا إلى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزوّدتهم العظم والبعر فلا يَستطِيبَنّ أحدكم بعظم ولا بعر»

(١) شعب أبي دب يقال فيه مدفن آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ.

(٢) يحدرون الحجارة، بضم الدال وكسرها: يحطونها من علو إلى سفل.

قال عكرمة: وكانوا أثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل. وفي رواية: انطلق بي عليه السلام حتى إذا جئنا المسجد الذي عند حائط عوف خَطّ لي خطًّا، فأتاه نفر منهم فقال أصحابنا كأنهم رجال الزُّط[١] وكأن وجوههم المَكَاكيّ[٢]، فقالوا: ما أنت؟ قال: «أنا نبيّ الله» قالوا: فمن يشهد لك على ذلك؟ قال: «هذه الشجرة» فقال: «يا شجرة» فجاءت تجرّ عروقها، لها قعاقع حتى أنتصبت بين يديه، فقال: «على ماذا تشهدين» قالت: أشهد أنك رسول الله. فرجعت كما جاءت تجرّ بعروقها الحجارة، لها قعاقع حتى عادت كما كانت. ثم روي أنه عليه السلام لما فرغ وضع رأسه على حِجر أبن مسعود فرقد ثم أستيقظ فقال: «هل مِن وضوء» قال: لا، إلا أن معي إداوة فيها نبيذ. فقال: «هل هو إلا تمر وماء» فتوضأ منه.

الثالثة ـ قد مضى الكلام في الماء في سورة «الحجر»[٣] وما يستنجَى به في سورة «براءة»[٤] فلا معنى للإعادة.

الرابعة ـ وأختلَف أهل العلم، في أصل الجنّ؛ فروى إسماعيل عن الحسن البصريّ: أن الجنّ ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب. فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو وليّ الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان. وروى الضحاك عن أبن عباس: أن الجنّ هم ولد الجان وليسوا بشياطين، وهم يؤمنون؛ ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس. وأختلفوا في دخول مؤمني الجن الجنة، على حسب الاختلاف في أصلهم. فمن زعم أنهم من الجان لا من ذرّية إبليس قال: يدخلون الجنة بإيمانهم. ومن قال: إنهم من ذرّية إبليس فلهم فيه قولان: **أحدهما** ـ وهو قول الحسن يدخلونها. **الثاني** ـ وهو رواية مجاهد

(١) الزط: جنس من الهنود، لونهم ضارب إلى السواد.

(٢) المكاكي: جمع مكوك وهو طاس يشرب فيه أعلاه ضيق ووسطه واسع، ومكيال معروف لأهل العراق بهذه الصفة أيضاً. ولعله من باب قول العرب: ضرب مكوك رأسه، على التشبيه.

(٣) راجع ١٠/ ١٥ فما بعد.

(٤) راجع ٨/ ٢٥٩ فما بعد.

لا يدخلونها وإن صُرِفوا عن النار. حكاه الماورديّ. وقد مضى في سورة «الرحمن»[١] عند قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ بيان أنهم يدخلونها.

الخامسة - قال البيهقي في روايته: وسألوه الزاد وكانوا من جنّ الجزيرة فقال: «لكم كلُّ عظم» دليل على أنهم يأكلون ويَطْعمون. وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجنّ، وقالوا: إنهم بسائط، ولا يصح طعامهم؛ آجتراءً على الله وآفتراءً، والقرآن والسنّة تردّ عليهم، وليس في المخلوقات بسيط مركب مزدوج، إنما الواحد الواحد[٢] سبحانه، وغيره مركب وليس بواحد كيفما تصرف حاله. وليس يمتنع أن يراهم النبي ﷺ في صورهم كما يرى الملائكة. وأكثر ما يَتَصوّرون لنا في صور الحيات؛ ففي الموطأ: أن رجلاً حديث عهد بُعرس آستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله. . . الحديث، وفيه: فإذا حيّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فآنتظمها. وذكر الحديث. وفي الصحيح أنه عليه السلام قال: «إن لهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم منها شيئاً فحرِّجوا عليها ثلاثاً، فإن ذهب وإلا فآقتلوه فإنه كافر». وقال: «آذهبوا فادفنوا صاحبكم»[٣] وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»[٤] وبيان التحريج عليهنّ. وقد ذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة؛ لقوله في الصحيح: «إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا». وهذا لفظ مختص بها فيختص بحكمها. قلنا: هذا يدل على أن غيرها من البيوت مثلها؛ لأنه[٥] لم يُعَلَّل بحرمة المدينة، فيكون ذلك الحكم مخصوصاً بها، وإنما عُلِّل بالإسلام، وذلك عامّ في غيرها، ألا ترى قوله في الحديث مخبراً عن الجنّ الذي لقي: «وكانوا من جنّ الجزيرة»؛ وهذا بيِّن يَعضُده قوله: «ونَهَى عن عوامر البيوت». وهذا عامّ. وقد مضى في سورة «البقرة» القول في هذا فلا معنى للإعادة.

---

(١) راجع ١٧/ ١٨١.

(٢) الواحد الواحد: كذا في بعض الأصول، وفي بعضها بلا تكرار. وفي الشوكاني: «إنما الواحد الله سبحانه».

(٣) هذا ينبغي أن يكون قبل الحديث السابق له، كما في ابن العربي.

(٤) راجع ١/ ٣١٥. (٥) في هامش ح: «لا لأنه».

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ أي في فصاحة كلامه. وقيل: عَجَبا في بلاغة مواعظه. وقيل: عجباً في عظم بركته. وقيل: قرآناً عزيزاً لا يوجد مثله. وقيل: يعنون عظيماً. ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي إلى مراشد الأمور. وقيل: إلى معرفة الله تعالى؛ و «يَهْدِي» في موضع الصفة أي هادياً. ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي فاهتدينا به وصدّقنا أنه من عند الله ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ أي لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه؛ لأنه الذي كان بعثهم ليأتوه بالخبر، ثم رُمِي الجنّ بالشُّهب. وقيل لا نتخذ مع الله إلهاً آخر؛ لأنه المتفرّد بالربوبية. وفي هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركي قريش عما أدركته الجنّ بتدبرها القرآن. وقوله تعالى: ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي استمعوا إلى النبي ﷺ فعلموا أن ما يقرؤه كلام الله. ولم يذكر المستمع إليه لدلالة الحال عليه. والنفر الرهط؛ قال الخليل: ما بين ثلاثة إلى عشرة. وقرأ عيسى الثّقفي «يَهْدِي إِلَى الرَّشَدِ» بفتح الراء والشين.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ كان عَلْقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائيّ وابن عامر وخَلَف وحفص والسّلمي ينصبون « أَنَّ » في جميع السورة في اثني عشر موضعاً، وهو[١]: «أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنا»، «وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ»، «وَأَنَّا ظَنَنَّا»، «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ »، « وَأَنَّهُمْ ظَنّوا »، « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ »، « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ »، «وَأَنَّا لاَ نَدْرِي»، «وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُون»، «وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ»، «وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى »، « وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ » عطفاً على قولـه : « أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ »، «وَأَنَّهُ اسْتَمَعَ» لا يجوز فيه إلا الفتح؛ لأنها في موضع اسم فاعل «أُوحِيَ» فما بعده معطوف عليه. وقيل: هو محمول على الهاء في «آمَنَّا بِهِ»، أي وبـ «ـأَنَّه تَعَالَى جَدّ رَبِّنَا» وجاز ذلك وهو مضمر مجرور لكثرة حرف الجار مع « أنّ ». وقيـل : المعنى أي وصدّقنا أنه جدّ ربنا . وقرأ الباقون كلّها بالكسر وهو الصواب ، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم عطفاً على قوله: «فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا» لأنه كله[٢] من كلام الجنّ. وأما أبو جعفر

---

(١) كلمة (وهو) موجودة في الأصول ح، و، ط، ص وليست موجودة في الأصل أ. والضمير راجع إلى النصب.

(٢) كلمة «كله» ساقطة من ح.

وشيبة فإنهما فتحا ثلاثة مواضع؛ وهي قوله تعالى: «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا»، «وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ»، «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ»، قالا: لأنه من الوحي، وكسرا ما بقي؛ لأنه من كلام الجنّ. وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ فكلهم فتحوا إلا نافعاً وشيبة وزرَّ بن حُبيش وأبا بكر والمفضّل عن عاصم؛ فإنهم كسروا لا غير. ولا خلاف في فتح همزة «أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ»، «وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا» «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ»، «وَأَنْ قَدْ أَبْلَغُوا». وكذلك لا خلاف في كسر ما بعد القول؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ و ﴿قَالَ[1] إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ و ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي﴾ و ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ﴾ وكذلك لا خلاف في كسر ما كان بعد فاء الجزاء؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ و ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ لأنه موضع ابتداء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾[2] الجدّ في اللغة: العظمة والجلال؛ ومنه قول أنس: كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عِمران جَدّ في عيوننا؛ أي عَظُم وجلّ. فمعنى: «جدُّ رَبِّنَا» أي عظمته وجلاله؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة. وعن مجاهد أيضاً: ذِكره. وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضاً: غناه. ومنه قيل للحظ جَدٌّ، ورجل مجدود أي محظوظ؛ وفي الحديث: «ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ» قال أبو عبيدة والخليل: أي ذا الغنى، منك الغنى، إنما تنفعه الطاعة. وقال ٱبن عباس: قدرته. الضحاك: فعله. وقال القُرظيّ والضحاك أيضاً: آلاؤه ونعمه على خلقه. وقال أبو عبيدة والأخفش: ملكه وسلطانه. وقال السديّ: أمره. وقال سعيد بن جُبير: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالى ربنا. وقيل: إنهم عَنَوا بذلك الجدّ الذي هو أب الأب، ويكون هذا من قول الجنّ. وقال محمد بن علي بن الحسين وٱبنه جعفر الصادق والربيع: ليس لله تعالى جَدّ، وإنما قالته الجنّ للجهالة، فلم يؤاخذوا به. وقال القشيريّ: ويجوز إطلاق لفظ الجدّ في حق الله تعالى؛ إذ لو لم يجز لما ذكر في القرآن، غير أنه لفظ مُوهِم، فتجنُّبه أولى. وقراءة عِكرمة «جِدّ» بكسر الجيم: على ضد الهزل. وكذلك

---

(١) كذا في الأصل على قراءة نافع. وقراءة حفص «قل».

(٢) كذا في أ، ح، ط. وفي الطبعة الأولى: «جد ربنا».

قرأ أبو حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقع. ويروى عن ابن السَّمَيقع أيضاً وأبي الأشهب «جَدًا رَبُّنَا»، وهو الجدوى والمنفعة. وقرأ عكرمة أيضاً «جَدًّا» بالتنوين «رَبُّنَا» بالرفع على أنه مرفوع، بـ«ـتعالى»، و«جَدًّا» منصوب على التمييز. وعن عكرمة أيضاً «جَدٌّ» بالتنوين والرفع «رَبُّنَا» بالرفع على تقدير: تعالى جَدٌّ جَدُّ ربّنا؛ فجدّ الثاني بدل من الأوّل وحذف وأقيم المضاف إليه مقامه. ومعنى الآية: وأنه تعالى جلال ربّنا أن يتخذ صاحبة وولداً للاستئناس بهما والحاجة إليهما، والربّ يتعالى عن الأنداد والنظراء.

[٤] ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾.

[٥] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

[٦] ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾.

[٧] ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً﴾ الهاء في «أَنَّهُ» للأمر أو الحديث، وفي «كَانَ» اسمها، وما بعدها الخبر. ويجوز أن تكون «كَانَ» زائدة. والسفيه هنا إبليس في قول مجاهد وابن جريج وقتادة. ورواه أبو بُرْدة بن[1] أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ. وقيل: المشركون من الجنّ: قال قتادة: عصاه سفيه الجنّ كما عصاه سفيه الإنس. والشطط والاشتطاط: الغلوّ في الكفر. وقال أبو مالك: هو الجَور. الكلبيّ: هو الكذب. وأصله البعدُ فيعبّر به عن الجور لبعده عن العدل، وعن الكذب لبعده عن الصدق؛ قال الشاعر:

بِأَيَّةِ حالٍ حكّموا فيك فاشتطُّوا ... وما ذاكَ إلا حيثُ يَمَّمَكَ[2] الوَخْطُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ أي حسبنا ﴿أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾، فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولداً، حتى سمعنا القرآن وتبيّنا به الحقّ. وقرأ يعقوب

(١) في أ، ح: «أبي بردة عن أبي موسى». تحريف.
(٢) يممك: قصدك. والوخط: الطعن بالرمح، ومن معانيه أيضاً: الشيب.

والجحدريّ وٱبن أبي إسحق «أَنْ لَنْ تَقَوَّل»[١]. وقيل: ٱنقطع الإخبار عن الجنّ ها هنا فقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلإِنْسِ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجنّ ردّها إلى قوله: «أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ»، ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى. والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ: أعوذ بسيّد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه؛ فيبيت في جواره حتى يصبح؛ قاله الحسن وٱبن زيد وغيرهما. قال مقاتل: كان أوّل من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم. وقال كَرْدَم بن أبي السائب: خرجت مع أبي إلى المدينة أوّلَ ما ذُكر النبي ﷺ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما ٱنتصف الليل جاء الذئب فحمل حَمَلا من الغنم، فقال الراعي: يا عَامر الوادي، [أنا][٢] جارك. فنادى منادٍ يا سِرْحان أرسله، فأتى الحمَل يَشْتد[٣]. وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلجِنّ فَزَادُوهُمْ رَهقَاً﴾ أي زاد الجنُّ الإنس «رهقاً» أي خطيئة وإثماً؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد وقتادة. والرهَق: الإثم في كلام العرب وغِشيان المحارم؛ ورجلٌ رَهِقٌ إذا كان كذلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وقال الأعشى:

لا شيء ينفعني مِن دونِ رؤيتِها هل يَشتفِي وامِقٌ[٤] ما لم يُصِب رَهَقَا

يعني إثماً. وأضيفت الزيادة إلى الجنّ إذ كانوا سبباً لها. وقال مجاهد أيضاً: «فَزَادُوهُم» أي إن الإنس زادوا الجنّ طغياناً بهذا التعوّذ، حتى قالت الجنّ: سُدنا الإنس والجنّ. وقال قتادة أيضاً وأبو العالية والربيع وٱبن زيد: ٱزداد الإنس بهذا فَرَقاً وخوفاً من الجنّ. وقال سعيد ٱبن جُبير: كفراً. ولا خفاء أن الاستعاذة بالجنّ دون الاستعاذة بالله كفر وشرك. وقيل: لا يطلق لفظ الرجال على الجنّ؛ فالمعنى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجنّ

(١) قال الألوسي: «تقول»: أصله تتقوّل بتاءين فحذفت إحداهما، فكذبا مصدر مؤكد، لأن الكذب هو التقوّل.

(٢) الزيادة من «الدر المنثور» للسيوطي.

(٣) يشتد: يعدو.

(٤) في أ، ح «وفتح القدير» للشوكاني: «عاشق».

برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلاً: أعوذ بحذيفة بن بدر من جنّ هذا الوادي. قال القشيريّ: وفي هذا تحكُّم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجنّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴾ هذا من قول الله تعالى للإنس؛ أي وأن الجنّ ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم. الكلبيّ: المعنى: ظنت الجنّ كما ظنت الإنس أن لن يبعث الله رسولاً إلى خلقه[1] يقيم به الحجة عليهم. وكل هذا توكيد للحجة على قريش؛ أي إذا آمن هؤلاء الجنّ بمحمد، فأنتم أحقّ بذلك.

[٨] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾.

[٩] ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

[١٠] ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ هذا من قول الجنّ؛ أي طلبنا خبرها كما جرت عادتنا ﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ قد ﴿مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً﴾ أي حَفَظة، يعني الملائكة. والحَرَس: جمع حارس ﴿وَشُهُباً﴾ جمع شهاب، وهو أنقضاض الكواكب المحرقة لهم عن أستراق السمع. وقد مضى القول فيه في سورة «الحجر»[2] «والصافات»[3]. و «وجَدَ» يجوز أن يقدّر متعدّياً إلى مفعولين، فالأوّل الهاء والألف، و «مُلِئَتْ» في موضع المفعول الثاني. ويجوز أن يتعدّى إلى مفعول واحد ويكون «مُلِئَتْ» في موضع الحال على إضمار قد. و «حَرَساً» نصب على المفعول الثاني بـ «ـمُلِئَتْ». و «شَدِيداً» من نعت الحرس، أي ملئت ملائكة شداداً.

---

(١) جملة: «إلى خلقه» ساقطة من ح، و.

(٢) راجع ١٠/١٠.

(٣) راجع ١٥/٦٦.

ووحد الشَّديد على لفظ الحرس؛ وهو كما يقال: السَّلَف الصالح بمعنى الصالحين، وجمع السَّلَف أسلاف وجمع[١] الحرس أحراس؛ قال[٢]:

«تجاوزتُ أحراساً وأهوالَ مَعْشَرٍ»

ويجوز أن يكون «حَرَساً» مصدراً على معنى حُرِست حراسةً شديدة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ ٱلآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾. «مِنْهَا» أي من السماء، و «مَقَاعِدَ»: مواضع يُقْعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء؛ يعني أن مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى الكهنةِ على ما تقدّم بيانه، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشُّهب المحرقة، فقالت الجنّ حينئذٍ: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ ٱلآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ يعني بالشهاب: الكوكب المحرِق؛ وقد تقدّم بيان ذلك. ويقال: لم يكن ٱنقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبي ﷺ وهو آية من آياته. وٱختلف السَّلَف هل كانت الشياطين تُقذَف قبل المبعث، أو كان ذلك أمراً حدث لمبعث النبي ﷺ؟ فقال الكلبي وقال[٣] قوم: لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلواتُ الله عليهما وسلامه: خمسِمائة عام، وإنما كان من أجل بعثة النبي ﷺ، فلما بعث محمد ﷺ منعوا من السموات كلها، وحُرست بالملائكة والشهب.

قلت: ورواه عطية العوفي عن ٱبن عباس؛ ذكره البيهقي. وقال عبد الله بن عمر: لما كان اليوم الذي نُبِّىء رسولُ الله ﷺ مُنعت الشياطين ورمُوا بالشُّهب. وقال عبد الملك بن سابور: لم تكن السماء تُحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فلما بُعث محمد ﷺ حُرست السماء، ورُميت الشياطين بالشُّهب،

(١) كذا في أ، ط، و، ح: في موضع أو.
(٢) هو ٱمرؤ القيس. ويروى:

تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا

وتمام البيت وهو من معلقته:

على حراصا لو يشرون مقتلي

(٣) الفعل (قال) زائد في ط. والصواب إسقاطه، كما في أ، ح، و.

ومُنعت عن الدنوّ من السماء. وقال نافع بن جُبير: كانت الشياطين في الفترة تَسمع فلا تُرمَى، فلما بُعث رسول الله ﷺ رُميت بالشّهب. ونحوه عن أبيّ بن كعب قال: لم يُرمَ بنجم منذ رُفع عيسى حتى نُبِّىء رسول الله ﷺ فرُمِيَ بها. وقيل: كان ذلك قبل المبعث، وإنما زادت بمبعث رسول الله ﷺ إنذاراً بحاله؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿مُلِئَتْ﴾ أي زيد في حَرَسها؛ وقال أَوْس بن حَجَر وهو جاهليّ:

فانْقَضّ كالدُّرِّي يَتْبَعُه ... نَقْعٌ يَثُورُ تَخالُه طُنُبا

وهذا قول الأكثرين. وقد أنكر الجاحظ هذا البيت وقال: كل شعر رُوِي فيه فهو مصنوع، وأن الرمي لم يكن قبل المبعث. والقول بالرمي أصح؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾. وهذا إخبار عن الجنّ، أنه[1] زِيد في حرس السماء حتى امتلأت منها ومنهم؛ ولما رُوي عن ابن عباس قال: بينما النبي ﷺ جالس في نفر من أصحابه إذ رُمِي بنجم، فقال: «ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية»؟ قالوا: كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم. فقال النبي ﷺ: «إنها لا تُرْمَى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربّنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمراً في السماء سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء، حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ويستخبرُ أهلُ السماء حملةَ العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه، فتتخطَّف الجن فيُرْمون فما جاءوا به فهو حقّ ولكنهم يزيدون فيه». وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث. ورَوَى الزهريّ نحوه عن عليّ بن الحسين عن عليّ بن أبي طالب عن ابن عباس. وفي آخره قيل للزهريّ: أكان يُرمَى في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ قال: غُلظت وشُدِّد أمرُها حين بُعث النبي ﷺ. ونحوه قال القتيبيّ. قال ابن قتيبة: كان ولكن اشتدّت الحراسة بعد المبعث؛ وكانوا من قبلُ يسترقون ويُرمَون في بعض الأحوال، فلما بُعث محمد ﷺ مُنعت من ذلك أصلاً. وقد تقدم بيان هذا في سورة «والصافات»[2]

(١) في ط «وقد زيد». وفي أ، ح: «لقد زيد».

(٢) راجع ١٥/ ٦٥.

عند قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ قال الحافظ: فلو قال قائل: كيف تتعرّض الجنّ لإحراق نفسها بسبب ٱستماع خبر، بعد أن صار ذلك معلوماً لهم؟ فالجواب: أنّ الله تعالى ينسيهم ذلك حتى تعظم المحنة، كما ينسَى إبليس في كل وقت أنه لا يسلم، وأن الله تعالى قال له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ولولا هذا لما تحقق التكليف. والرَّصَد: قيل من الملائكة؛ أي ورصداً من الملائكة. والرَّصَدُ: الحافظ للشيء والجمع أرصاد، وفي غير هذا الموضع يجوز أن يكون جمعاً كالحرس، والواحد: راصد. وقيل: الرصد هو الشهاب، أي شهاباً قد أرصد له، ليرجم به؛ فهو فَعَلٌ بمعنى مفعول كالخَبَط والنَّفض.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي ٱلأَرْضِ﴾ أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ أي خيراً. قال ٱبن زيد. قال إبليس لا ندري: هل أراد الله بهذا المنع أن يُنزل على أهل الأرض عذاباً أو يُرسل إليهم رسولاً. وقيل: هو من قول الجنّ فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبي ﷺ. أي لا ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بمن في الأرض بإرسال محمد إليهم، فإنهم يكذبونه ويهلِكون بتكذيبه كما هلك من كذّب من الأمم، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا؛ فالشرّ والرشد على هذا الكفر والإيمان؛ وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبي ﷺ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم مُنعوا من السماء حراسة للوحي. وقيل: لا؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن ٱنصرفوا إليهم منذرين؛ أي لما آمنوا أشفقوا ألاّ يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا: إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أم[1] يؤمنون؟.

[١١] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) كذا في ط، وهو الصواب. وفي سائر الأصول: أو.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ هذا من قول الجنّ، أي قال بعضهم لبعض لما دَعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وإنا كنا قبل أستماع القرآن منّا الصالحون ومنّا الكافرون. وقيل: «وَمِنّا دُونَ ذَلِكَ» أي ومن دون الصالحين في الصلاح، وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ أي فِرقاً شتّى؛ قاله السُّديّ. الضحاك: أدياناً مختلفة. قتادة: أهواءً متباينة؛ ومنه قول الشاعر:

القَابِضُ الباسِطُ الْهادِي بِطاعتِهِ في فِتْنَةِ الناسِ إِذْ أَهْوَاؤُهُمْ قِدَدُ

والمعنى: أي لم يكن كل الجنّ كفاراً بل كانوا مختلفين: منهم كفّار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء. وقال المسيّب: كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس. وقال السّدّي في قوله تعالى: ﴿طَرَائِقَ قِدَداً﴾ قال: في الجنّ مثلكم قَدَرية، ومُرْجِئة، وخوارج، ورافضة، وشيعة، وسُنّية. وقال قوم: أي وإنا بعد أستماع القرآن مختلفون: منّا المؤمنون ومنّا الكافرون. أي ومنّا الصالحون، ومنّا مؤمنون لم يتناهوا في الصلاح. والأوّل أحسن؛ لأنه كان في الجنّ من آمن بموسى وعيسى، وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهذا يدلّ على إيمان قوم منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعوهم إلى الإيمان. وأيضاً لا فائدة في قولهم: نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر. والطرائق: جمع الطريقة وهي مذهب الرجل، أي كنا فرقاً مختلفة. ويقال: القوم طرائق أي على مذاهب شتّى. والقِدد: نحوٌ من الطرائق وهو توكيد لها، واحدها: قِدّة. يقال: لكل طريق قِدّة، وأصلها من قَدّ السيور، وهو قطعها؛ قال لبيد يرثي أخاه أَرْبَد[1]:

لـم تَبْلُـغِ العيـنُ كـلَّ نَهْمَتِهـا ليلـةَ تُمْسِـي الجِيـادُ كـالقِـدَدِ[2]

---

(١) في ز: «مربد». وفي سائر الأصول: «زيداً» وهو تحريف. والتصويب عن شرح القاموس.

(٢) يقول لبيد: لم تبلغ العين من البكاء على أربد كل ما تريد في هذه الليلة التي فيها الخيل كالقدد من شدة السير والإتعاب.

وقال آخر[١]:

وَلَقَـدْ قُلْـتُ وزَيْـدٌ حَـاسِـرٌ   يـومَ وَلَّـتْ خيـلُ عَمْـرٍو قِـدَدَا

والقِد بالكسر: سير يُقَدّ من جلد غير مدبوغ؛ ويقال: ماله قِدٌّ ولا قِحْف؛ فالقِدُّ: إناء من جلد، والقِحف: من خشب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ﴾ الظنّ هنا بمعنى العلم واليقين، وهو خلاف الظنّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله: أنا في قبضته وسلطانه، لن نفوته بهرب ولا غيره. و﴿هَرَباً﴾ مصدر في موضع الحال أي هاربين.

[١٣] ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ﴾ يعني القرآن ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ وبالله، وصدّقنا محمداً ﷺ على رسالته. وكان ﷺ مبعوثاً إلى الإنس والجنّ. قال الحسن: بعث الله محمداً ﷺ إلى الإنس والجنّ، ولم يبعث الله تعالى قطُّ رسولاً من الجنّ، ولا من أهل البادية، ولا من النساء؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ وقد تقدم هذا المعنى[٢]. وفي الصحيح: « وبُعثت إلى الأحمر والأسود » أي الإنس والجنّ. ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخساً وَلاَ رَهَقاً ﴾ قال ابن عباس: لا يخاف

(١) هو لبيد صاحب البيت الذي قبله، كما في «فتح القدير»، للشوكاني.
(٢) راجع ٩/ ٢٧٤.

أن يُنْقَص من حسناته ولا أن يزاد في سيئاته؛ لأن البخس النقصان، والرَّهَق: العدوان وغشيان المحارم؛ قال الأعشى:

لا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِن دُونِ رُؤْيَتِهَا ... هل يَشْتَفِي وَامِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقاً

الوامق: المحبّ؛ وقد وَمِقَه يَمِقه بالكسر أي أحبّه، فهو وامق. وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجِنّ، لقوّة إيمانهم وصحة إسلامهم. وقراءة العامة «فَلَا يَخَافُ» رفعاً على تقدير فإنه لا يخاف. وقرأ الأعمش ويحيى[1] وإبراهيم «فَلَا يَخَفْ» جزماً على جواب الشرط وإلغاء الفاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي وأنّا بعد ٱستماع القرآن مختلفون، فمنّا من أسلم ومنّا من كفر. والقاسط: الجائر، لأنه عادل عن الحقّ، والمُقْسِط: العادل؛ لأنه عادل إلى الحق؛ [يقال]: قسط: أي جار، وأقسط: إذا عدل؛ قال الشاعر:

قومٌ هُمُ قتلوا ٱبنَ هِندٍ عَنْوَةً ... عَمْراً وهم قَسَطُوا على النُّعْمانِ

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾ أي قصدوا طريق الحق وتوخّوه ومنه تحرّي القِبلةِ ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي الجائرون عن طريق الحقّ والإيمان ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ أي وَقوداً. وقوله: «فَكَانُوا» أي في علم الله تعالى.

[١٦] ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦﴾.

[١٧] ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ هذا من قول الله تعالى. أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسّعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق. وهذا محمول على الوحي؛ أي أوحى إليّ أن لو ٱستقاموا. ذكر ٱبن بحر: كل ما في هذه السورة من «إن» المكسورة المثقلة فهي حكاية لقول الجِن الذين ٱستمعوا القرآن، فرجعوا إلى قومهم منذرين، وكل ما فيها من

(١) في أ، ح: «ويحيى عن إبراهيم».

أن المفتوحة المخففة فهي وحي إلى رسول الله ﷺ . وقال ٱبن الأنباريّ: ومن كسر الحروف وفتح «وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا» أضمر يميناً تامًّا، تأويلها: والله أن لو ٱستقاموا على الطريقة؛ كما يقال في الكلام: والله أَنْ قمتَ لقمتُ، ووالله لو قمتَ قمتُ؛ قال الشاعر:

أَمَـا واللَّـهِ أَنْ لـو كُنـتَ حُـرًّا ... ومـا بِـالحُـرّ أنـتَ ولا العتِيـقِ

ومن فتح ما قبل المخففة نسقها ـ أعني الخفيفة ـ على «أَوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ»، «وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا» أو على «آمَنَّا بِهِ» وبأن لو ٱستقاموا[1]. ويجوز لمن كسر الحروف كلها إلى «أن» المخففة، أن يعطف المخففة على «أوحِيَ إِلَيَّ» أو على «آمَنَّا بِهِ»، ويستغنى عن إضمار اليمين. وقراءة العامة بكسر الواو من «لوِ» لالتقاء الساكنين. وقرأ ٱبن وثّاب والأعمش بضم الواو. و ﴿ مَاءً غَدَقاً ﴾ أي واسِعاً كثيراً، وكانوا قد حُبِس عنهم المطر سبع سنين؛ يقال: غَدِقَتِ العينُ تَغدَق، فهي غَدِقة، إذا كثر ماؤها. وقيل: المراد الخلق كلُّهم أي «لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ» طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين «لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً» أي كثيراً ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم. وقال عمر في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. فمعنى «لأَسْقَيْنَاهُمْ» لوسَّعنا عليهم من في الدنيا؛ وضَرَب الماء الغَدَق الكثير لذلك مثلاً؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ أي بالمطر. والله أعلم. وقال سعيد بن المسيّب وعطاء بن أبي رَبَاح والضحاك وقَتادة ومقاتل وعطية وعُبيد بن عمير والحسن: كان والله أصحاب النبي ﷺ سامعين مطيعين، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشيّ ففُتنوا بها، فوثبوا على إمامهم فقتلوه. يعني عثمان بن عفّان. وقال الكلبيّ وغيره: ﴿وَأَنْ

---

(١) وفي حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي «قال ٱبن الأنباري: ومن قرأ بالكسر فيما تقدم وفتح «وأن لو ٱستقاموا»: أضمر قسماً تقديره: والله«أن لو ٱستقاموا على الطريقة، أو عطفه على «أنه استمع» أو على «آمنا به». وعلى هذا يكون جميع ما تقدم معترضاً بين المعطوف والمعطوف عليه».

لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ التي هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفاراً لوسّعنا أرزاقهم مكراً بهم وٱستدراجاً لهم. حتى يَفتتنوا بها، فنعذبهم بها في الدنيا والآخرة. وهذا قول قاله الربيع بن أنس وزيد بن أسلم وٱبنه والكلبيّ والثّمالي ويَمَان بن رِبَاب وٱبن كيسان وأبو مِجْلَز؛ وٱستدلّوا بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أمةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ﴾ الآية؛ والأوّل أشبه؛ لأن الطريقة معرّفة بالألف واللام، فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى. وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زَهْرة الدنيا» قالوا: وما زهرة الدنيا؟ قال؛ «بركات الأرض. .» وذكر الحديث. وقال عليه السلام: «فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا [كما بُسطت على مَن قبلكم][(١)] فتنافسوها كما تنافسوها فتهلكَكم كما أهلكتهم».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْر رَبِّه﴾ يعني القرآن: قاله ٱبن زيد. وفي إعراضه عنه وجهان: أحدهما ـ عن القبول، إن قيل إنها في أهل الكفر. الثاني ـ عن العمل، إن قيل إنها في المؤمنين. وقيل: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ أي لم يشكر نعمه ﴿يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ قرأ الكوفيون وعيّاش عن أبي عمرو «يَسْلُكْهُ» بالياء وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لذكر ٱسم الله أوّلاً فقال: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْر رَبِّهِ﴾. الباقون «نَسْلُكْهُ» بالنون. وروي عن مسلم بن جُندب ضم النون وكسر اللام. وكذلك قرأ طلحة والأعرج وهما لغتان، سلكه وأسلكه بمعنًى؛ أي ندخله. ﴿عَذَاباً صَعَداً﴾ أي شاقًا شديداً. قال ٱبن عباس: هو جبل في جهنم. [الخدريّ][(٢)]: كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت. وعن ٱبن عباس: أن المعنى مشقة من العذاب. وذلك معلوم في اللغة أن الصَّعَد: المشقة، تقول: تَصعَّدني الأمر: إذا شّق عليك؛ ومنه قول عمر: ما تَصعَّدني شيء ما تَصعدتني خُطبة النكاح، أي ما شقّ عليّ.

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذي. (٢) زيادة من أ، ح، ل.

وعذاب صَعَدٌ أي شديد. والصَّعَد: مصدر صَعِد؛ يقال؛ صعِدَ صَعَداً وصُعوداً، فوصف به العذاب؛ لأنه يتصعد المعذّب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. وقال أبو عبيدة: الصَّعَد مصدر؛ أي عذاباً ذا صَعَد، والمشي في الصَّعود يشقّ. والصَّعود: العقبة الكئود. وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يُكلَّف صعودها؛ فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِر إلى جهنم. وقال الكلبيّ: يكلّف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلاً في النار من صخرة ملساء، يُجذب من أمامه بسلاسل، ويُضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها، ولا يبلغ في أربعين سنة. فإذا بلغ أعلاها أُحْدِر إلى أسفلها، ثم يكلّف أيضاً صعودَها، فذلك دأبه أبداً، وهو قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾.

[١٨] ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ «أَنَّ» بالفتح، قيل: هو مردود إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي قل أوحيَ إلى أن المساجد لله. وقال الخليل: أي ولأن المساجد لله. والمراد البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة. وقال سعيد بن جبير: قالت الجنّ كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك؟ فنزلت: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ أي بُنيت لذكر الله وطاعته. وقال الحسن: أراد بها كل البقاع؛ لأن الأرض كلها مسجد للنبي ﷺ، يقول: «أينما كنتم فصلّوا» «فأينما صليتم فهو مسجد» وفي الصحيح: «وجعلت لـيَ الأرض مسجداً وطَهوراً». وقال سعيد بن المسيّب وطَلْق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والوجه؛ يقول: هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك، فلا تسجد لغيره بها، فتجحد نعمة الله. قال عطاء: مساجدك: أعضاؤك التي أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها. وفي الصحيح عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظُم: الجبهة ـ وأشار بيده إلى أنفه ـ واليدين والركبتين وأطراف القدمين». وقال العباس قال النبي ﷺ:

«إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب»(١). وقيل: المساجد هي الصلوات؛ أي لأن السجود لله. قاله الحسن أيضاً. فإن جعلت المساجد المواضع فواحدها مسجِد بكسر الجيم، ويقال بالفتح؛ حكاه الفراء. وإن جعلتها الأعضاء فواحدها مَسجَد بفتح الجيم. وقيل: هو جمع مَسجَد وهو السجود، يقال: سجدت سجوداً ومَسجَداً، كما تقول: ضربت في الأرض ضَرْباً ومَضرَباً بالفتح: إذاسرت في ابتغاء الرزق. وقال ابن عباس: المساجد هنا مكة التي هي القبلة وسمّيت مكة المساجد؛ لأن كل أحد يسجد إليها. والقول الأوّل أظهر هذه الأقوال إن شاء الله، وهو مروي عن ابن عباس رحمه الله.

الثانية - قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ إضافة تشريف وتكريم، ثم خصّ بالذكر منها البيت العتيق فقال: «وَطَهِّرْ بَيْتِيَ». وقال عليه السلام: «لا تُعمَل المَطِيّ إلا إلى ثلاثة مساجد» الحديث خرجه الأئمة. وقد مضى الكلام(٢) فيه. وقال عليه السلام: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». قال ابن العربي: وقد روي من طريق لا بأس بها أن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، فإن صلاة فيه خير من مائة صلاة في مسجدي هذا»(٣) ولو صح هذا لكان نَصّاً.

قلت: هو صحيح بنقل العدل عن العدل حَسْب ما بيناه في سورة «إبراهيم»(٤).

الثالثة - المساجد وإن كانت لله ملكاً وتشريفاً فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفاً؛ فيقال: مسجد فلان. وفي صحيح الحديث أن النبي ﷺ سابقَ بين الخيل التي أضمرت من الحفياء(٥) وأَمدُها ثَنيّة الوَدَاع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنيّة إلى مسجد

(١) آراب: أعضاء واحدها «إرب» بالكسر ثم السكون.

(٢) راجع ١٠/ ٢١١ والرواية المشهورة في الصحاح «لا تشدّ الرحال» كما مر للقرطبي.

(٣) كلمة هذا ساقطة من الأصل المطبوع.

(٤) راجع ٩/ ٣٧١.

(٥) في «معجم البلدان» لياقوت: الحفياء: بالفتح ثم السكون وياء وألف ممدودة: موضع قرب المدينة أجرى منه رسول الله ﷺ الخيل في السباق. وقال سفيان بين الحفياء إلى الثنية، خمسة أميال.

بني زُريق. وتكون هذه الإضافة بحكم المحلية كأنها في قبلتهم، وقد تكون بتحبيسهم، ولا خلاف بين الأمة في تحبيس المساجد والقناطر والمقابر وإن آختلفوا في تحبيس غير ذلك.

الرابعة ـ مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال. ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل. ويجوز حبس الغريم فيها، وربط الأسير والنوم فيها، وسكنى المريض فيها، وفتح الباب للجار[١] إليها، وإنشاد الشعر فيها إذا عرِي عن الباطل. وقد مضى هذا كله مبيناً في سورة «براءة»[٢] و «النور»[٣] وغيرهما.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ هذا توبيخ للمشركين في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام. وقال مجاهد: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيَعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيّه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها. يقول: فلا تشركوا فيها صنماً وغيره[٤] مما يعبد. وقيل: المعنى أفرِدوا المساجد لذكر الله، ولا تتخذوها هزواً ومَتّجراً ومجلساً، ولا طرقاً، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً. وفي الصحيح: «من نَشَد ضالّة في المسجد فقولوا لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا» وقد مضى في سورة «النور» ما فيه كفاية من أحكام المساجد والحمد لله.

السادسة ـ روَى الضحاك عن آبن عباس عن النبي ﷺ: كان إذا دخل المسجد قدّم رجله اليمنى. وقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مَزور حقّ وأنت خير مَزور فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار» فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى؛ وقال: «اللهم صُبَّ عليّ الخير صبًّا ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً ولا تجعل معيشتي كَدًّا، وآجعل لي في الأرض جَدًّا»[٥] أي غِنًى.

(١) كذا في ابن العربي. وفي ط: للمار إليها. (٢) راجع ٨/ ١٠٤.
(٣) راجع ١٢/ ٢٦٥. (٤) كذا في الأصول كلها. يريد: ولا غيره.
(٥) الجد، بالفتح: الحظ والغنى، كما في «اللسان».

[١٩] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾.

[٢٠] ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾.

[٢١] ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يجوز الفتح؛ أي أوحى الله إليه أنه. ويجوز الكسر على الاستئناف. و «عبد الله» هنا محمد ﷺ حين كان يصلّي ببطن نخلة[١] ويقرأ القرآن، حَسْب ما تقدّم أوّل السورة. ﴿يَدْعُوهُ﴾ أي يعبده. وقال ٱبن جُريج: «يَدْعُوهُ» أي قام إليهم داعياً إلى الله تعالى. ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ قال الزبير بن العوّام: هم الجنّ حين ٱستمعوا القرآن من النبي ﷺ. أي كاد يركب بعضهم بعضاً ٱزدحاماً ويسقطون، حرصاً على سماع القرآن. وقيل: كادوا يركبونه حرصاً؛ قاله الضحاك. ٱبن عباس: رغبة في سماع الذكر. وروى بُرْد عن مكحول: أن الجنّ بايعوا رسول الله ﷺ في هذه الليلة وكانوا سبعين ألفاً، وفرغوا من بيعته عند ٱنشقاق الفجر. وعن ٱبن عباس أيضاً: إن هذا من قول الجنّ لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي ﷺ وٱئتمامهم به في الركوع والسجود. وقيل: المعنى كاد المشركون يركبون بعضهم بعضاً، حَرداً على النبي ﷺ. وقال الحسن وقتادة وٱبن زيد: يعني ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ محمد بالدعوة تَلَبّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه، وأَبَى الله إلا أن ينصره ويتم نوره. وٱختار الطبريّ أن يكون المعنى: كادت العرب يجتمعون على النبي ﷺ، ويتظاهرون على إطفاء النور الذي جاء به. وقال مجاهد: قوله «لِبَداً» جماعات وهو من تَلَبُّد الشيء على الشيء أي تجمع؛ ومنه اللِّبْد الذي يفرش لتراكم صوفه[٢]، وكل شيء ألصقته إلصاقاً شديداً

---

(١) في «تاج العروس»: (نخلة): موضع بين مكة والطائف، ويقال له: (بطن نخلة).

(٢) في أ، ح: «صفوفه». وفي ط «صفه».

فقد لبّدته، وجمع اللِّبدة لِبَد مثل قِربة وقِرب. ويقال للشَّعر الذي على ظهر الأسد لِبدة وجمعها لِبد؛ قال زهير:

لَدى أَسَدٍ شاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ ... لــه لِبَــدٌ أَظْفَــارُه لــم تقَلَّــمِ

ويقال للجراد الكثير: لِبد. وفيه أربع لغات وقراءات؛ فتح الباء وكسر اللام، وهي قراءة العامة. وضم اللام وفتح الباء، وهي قراءة مجاهد وابن مُحَيْصن وهشام عن أهل الشام، واحدتها لُبْدة. وبضم اللام والباء، وهي قراءة أبي حَيْوة ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبي الأشهب العُقَيلي والجَحْدري واحدها لَبْد مثل سَقْفٍ وسُقُفٍ ورَهْن ورُهُن. وبضم اللام وشدّ الباء وفتحها، وهي قراءة الحسن وأبي العالية والأعرج والجَحْدري أيضاً[١] واحدها لابِد؛ مثل راكِع ورُكَّع، وساجِد وسُجَّد. وقيل: اللُّبَد بضم اللام وفتح الباء الشيء الدائم؛ ومنه قيل لنَسر لقمان لُبَد لدوامه وبقائه؛ قال النابغة:

أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبَدِ[٢]

القشيريّ: وقرىء «لُبُدا» بضم اللام والباء، وهو جمع لَبِيد. وهو الجَوْلَق[٣] الصغير، وفي الصحاح: [وقوله تعالى] ﴿أَهْلَكْت مَالاً لُبَداً﴾ أي جَمًّا[٤]. ويقال أيضاً: الناس لُبَد أي مجتمعون، واللُّبَد أيضاً الذي لا يسافر ولا يبرح [منزله][٥]. قال الشاعر[٦]:

مِن أمرىءٍ ذِي سَماحٍ لا تَزالُ لَهُ ... بَـزْلاءُ يَعْيَـا بِهـا الجَثَّـامَـة اللبَـدُ

ويروى: اللَّبِد. قال أبو عُبيد: وهو أشبه.

[والبزلاء: الرأي الجيّد. وفلان نهاض ببزلاء: إذا كان ممن يقوم بالأمور العظام: قال الشاعر:

إنِّي إذا شَغَلَتْ قوماً فُرُوجُهُمُ ... رَحْبُ المَسالِكِ نَهَّاضٌ بِبَزْلاءِ][٧]

(١) كلمة «أيضاً» ساقطة من أ، ز، ح، ط.
(٢) هذا عجز البيت، وسيأتي بتمامه.
(٣) في الأصول: (الجولق)، تحريف.
(٤) في أ، ح، ل: «جمعا».
(٥) الزيادة من «اللسان» مادة «لبد».
(٦) هو الراعي: والبزلاء أيضاً الحاجة التي أحكم أمرها، والجثامة الذي لا يبرح من محله وبلدته. وصدره كما في «اللسان» والتاج:

من أمر ذي بدوات لا تزال له

(٧) ما بين المربعين ساقط من أ، ح، و، ط.

ولُبَد: آخر نسور لقمان، وهو ينصرف؛ لأنه ليس بمعدول. وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها، فلما أهلكوا خُيِّر لقمان بين بقاء سبع بَعرَات[1] سُمْر، مِن أَظْبٍ عُفْر، في جبل وَعْر، لا يَمسها القَطْر؛ أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نَسر خلف بعده نَسر، فآختار النُّسور، وكان آخر نُسوره يسمى لُبَدا، وقد ذكرته الشعراء؛ قال النابغة:

أَضْحَت خَلاءً وأَمسى أَهْلُها ٱحْتَمَلوا   أَخْنَى عليها الّذي أَخْنَى على لُبَدِ

وَاللّبِيد: الجُوَالق الصغير؛ يقال: ألبدت القِربة جعلتها في لَبِيد. ولبِيد: ٱسم شاعر من بني عامر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ أي قالﷺ: «إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي» ﴿وَلاَ أَشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ وكذا قرأ أكثر القرّاء «قَالَ» على الخبر. وقرأ حمزة وعاصم «قُلْ» على الأمر. وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا له: إنك جئت بأمر عظيم وقد عاديت الناس كلهم فٱرجع عن هذا فنحن نجيرك؛ فنزلت.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَداً﴾ أي لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً ولا أسوق لكم خيراً. وقيل: «لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا» أي كفراً «وَلاَ رَشَداً» أي هدًى؛ أي إنما عليّ التبليغ. وقيل: الضرّ: العذاب، والرَّشد النعيم. وهو الأوّل بعينه. وقيل: الضر الموت، والرشد الحياة.

[٢٢] ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

[٢٣] ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

---

(١) قال شارح القاموس: هو بالعين المهملة، ويوجد في بعض نسخ الصحاح «بقرات» بالقاف. والذي في نسخ القاموس هو الأشبه، إذ لا تتولد البقر من الظباء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحدٌ﴾ أي لا يدفع عذابه عني أحد إن أستحفظته؛ وهذا لأنهم قالوا أترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك. وروى أبو الْجَوْزاء عن ابن مسعود قال: انطلقت مع النبي ﷺ ليلة الجنّ حتى أتى الحَجُون فخط عليّ خطًّا، ثم تقدّم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيّد لهم يقال له وَرْدان: أنا أَزْجُلهم[1] عنك؛ فقال: ﴿إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ ذكره الماورديّ. قال: ويحتمل معنيين **أحدهما**: لن يجيرني مع إجارة الله لي أحد. **الثاني**: لن يجيرني مما قدره الله تعالى عليّ أحد. ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ أي ملتجأ ألجأ إليه؛ قاله قتادة. وعنه: نصيراً ومولًى. السّديّ: حِرزاً. الكَلْبي: مَدْخلاً في الأرض مثل السَّرَب. وقيل: وليًّا ولا مولَى. وقيل: مذهباً ولا مسلكاً. حكاه ابن شجرة، والمعنى واحد؛ ومنه قول الشاعر:

يا لَهْفَ نفسي ولَهْفِي غيرُ مجدِيةٍ عَنِّي وما مِن قضَاءِ اللّهِ مُلْتَحَدُ

﴿إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاَتِهِ﴾ فإن فيه الأمان والنجاة؛ قاله الحسن. وقال قتادة: «إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ اللَّهِ» فذلك الذي أملكه بتوفيق الله، فأما الكفر والإيمان فلا أملكهما. فعلى هذا يكون مردوداً إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَداً﴾ أي لا أملك لكم إلا أن أبلغكم. وقيل: هو استثناء منقطع من قوله: ﴿لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَداً﴾ أي إلا أن أبلغكم أي لكن أبلغكم ما أرسلت به؛ قاله الفراء. وقال الزجاج: هو منصوب على البدل من قوله: ﴿مُلْتَحَداً﴾ أي ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ إلا أن أبلغ ما يأتيني من الله ورسالاته؛ أي ومن رسالاته التي أمرني بتبليغها. أو إلا أن أبلغ عن الله وأعمل برسالته، فآخذ نفسي بما آمر به غيري. وقيل هو مصدر، و «لا» بمعنى لم، و «إن» للشرط. والمعنى لن أجد من دونه ملتحداً: أي إن لم أبلغ رسالات ربي بلاغاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في التوحيد والعبادة. ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ كسرت إن؛ لأن ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء وقد تقدم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على

---

(١) أزجلهم: أي أدفعهم. وفي ز، ط، ل: أزحلهم بالحاء؛ أي أنحيهم.

الحال، وجمع «خَالِدِينَ» لأن المعنى لكل من فعل ذلك، فوحد أوّلاً للفظ «مَن» ثم جمع للمعنى. وقوله ﴿أَبَداً﴾ دليل على أن العصيان هنا هو الشرك. وقيل: هو المعاصي غير الشرك، ويكون معنى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ إلا أن أعفو أو تلحقهم شفاعة، ولا محالة إذا خرجوا من الدنيا على الإيمان يلحقهم العفو. وقد مضى هذا المعنى مبيّناً في سورة «النساء»(١) وغيرها.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ «حَتَّى» هنا مبتدأ، أي ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ من عذاب الآخرة، أو ما يوعدون من عذاب الدنيا، وهو القتل ببدر ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً﴾ أهم أم المؤمنون. ﴿وَأَقَلُّ عَدَداً﴾ معطوف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا؛ أي لا أدري فـ «إن» بمعنى «ما» أو «لا»؛ أي لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله؛ فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله. و «ما» في قوله: «مَا يُوعَدُونَ»: يجوز [أن يكون مع الفعل مصدراً، ويجوز](٢) أن تكون بمعنى الذي ويقدّر حرف العائد. ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾ أي غاية وأجلاً. وقرأ العامة بإسكان الياء من ربي. وقرأ الحِرْميان وأبو عمرو بالفتح.

[٢٦] ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٢٧] ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾ «عَالِمُ» رفعاً نعتاً لقوله: «رَبِّي». وقيل: أي هو «عَالِمُ الغَيْبِ» والغيب ما غاب عن العباد. وقد تقدّم بيانه في أوّل سورة «البقرة»(٣) ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنْ ٱرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه؛

---

(١) راجع ٥/ ٣٣٣.

(٢) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع، ط.

(٣) راجع ١/ ١٦٣.

لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات؛ وفي التنزيل[١]: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾. وقال ٱبن جبيرُ: ﴿إِلاَّ مَنِ ٱرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ هو جبريل عليه السلام. وفيه بعدٌ، والأوْلى أن يكون المعنى: أي لا يظهر على غيبه إلا من ٱرتضى أي ٱصطفى للنبوّة، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه[٢]: ليكون ذلك دالاً على نبوّته.

الثانية - قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدّح سبحانه بعلم الغيب وٱستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحدٌ سواه، ثم ٱستثنى مَن ٱرتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزةً لهم ودلالةً صادقةً على نبوّتهم. وليس المنجّم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ٱرتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفترٍ عليه بحدسه وتخمينه وكذبه. قال بعض العلماء: وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان على ٱختلاف أحوالهم، وتباين رتبهم، فيهم الملك والسُّوقة، والعالم والجاهل، والغنيّ والفقير، والكبير والصغير، مع ٱختلاف طوالعهم، وتباين مواليدهم، ودرجات نجومهم؛ فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله: إنما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على ٱختلافها عند ولادة كل واحد منهم، وما يقتضيه طالعه المخصوص به، فلا فائدة أبداً في عمل المواليد، ولا دلالة فيها على شقيّ ولا سعيد، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم. وفيه ٱستحلال دمه على هذا التنجيم، ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

حَكم المنجّمُ أن طالعَ مولِدِي ... يقضِي علَيّ بميتةِ الغَرِقِ
قُلْ لِلْمُنَجِّمِ صَبْحَةَ الطُّوفانِ هَلْ ... وُلِد الْجَمِيعُ بكَوْكَبِ الْغَرَقَ

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمر في العقرب؟ فقال رضي الله عنه: فأين قمرهم؟ وكان ذلك في آخر الشهر. فٱنظر إلى هذه.

---

(١) راجع ٤/ ٩٥. (٢) في ح: «من غيبه بطريق الوحي إليهم ليكون..».

الكلمة التي أجاب بها، وما فيها من المبالغة في الردّ على من يقول بالتنجيم، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم. وقال له مسافر بن عوف: يا أمير المؤمنين! لا تسر في هذه الساعة وسِرْ في ثلاث ساعات يمضين من النهار. فقال له علي رضي الله عنه: ولم؟ قال: إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت. فقال عليّ رضي الله عنه: ما كان لمحمد ﷺ مُنَجِّم، ولا لنا من بعده[1] ـ في كلام طويل يَحتجُّ فيه بآيات من التنزيل ـ فمن صدّقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نِدًّا أو ضداً، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك. ثم قال للمتكلم: نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي تنهانا عنها. ثم أقبل على الناس فقال: يأيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلاّ ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر: وإنما المنجم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، واللّهِ لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها لأخلدنك في الحبس ما بقيتَ وبقيتُ، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان. ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها، ولقي القوم فقتلهم وهي وقعة النَهْرَوَان الثابتة في الصحيح لمسلم. ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار في الساعة التي أمر بها المنجم، ما كان لمحمد ﷺ منجّم ولا لنا مِن بعده، فتح الله علينا بلاد كِسرى وقيصر وسائر البُلدان ـ ثم قال: يا أيها الناس! توكلوا على الله وثِقوا به؛ فإنه يكفي ممن سواه. ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ يعني ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان؛ فيحفظ الوحي من ٱستراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة. قال الضحاك: ما بعث الله نبياً إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبهوا بصورة المَلَك، فإذا جاءه شيطان في صورة المَلَك قالوا: هذا شيطان فٱحذره. وإن جاءه المَلَك قالوا: هذا رسول ربّك. وقال ٱبن عباس وٱبن زيد: «رَصَداً» أي حَفَظة يحفظون النبي ﷺ من أمامه وورائه من الجِنّ والشياطين. قال قتادة وسعيد بن المسيّب: هم أربعة من الملائكة حفظة. وقال الفراء: المراد جبريل؛ كان

---

(١) جملة: «من بعده» ساقطة من أ، ح.

إذا نزل بالرسالة نزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجنّ الوحي، فيلقوه إلى كهنتهم، فيسبقوا. الرسول. وقال السديّ: «رَصَداً» أي حفظة يحفظون الوحي، فما جاء من عند الله قالوا: إنه من عند الله، وما ألقاه الشيطان قالوا: إنه من الشيطان(١). و «رَصَداً» نصب على المفعول. وفي الصحاح: والرَّصَد القوم يرصُدون كالحرس، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا أرصاداً. والراصد للشيء الراقب له؛ يقال: رَصَده يَرْصُده رَصْداً ورَصَداً. والتَّرصد الترقب والمَرْصَد موضع الرّصد(٢).

[٢٨] ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ قال قتادة ومقاتل: أي ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلّغ هو الرسالة. وفيه حذف يتعلق به اللام؛ أي أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحقّ والصدق. وقيل: ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه؛ قاله ٱبن جبير. قال: ولم ينزل الوحي إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام. وقيل: ليعلم الرسل أن الملائكة بلّغوا رسالات ربهم. وقيل: ليعلم الرسول أيُّ رسول كان أن الرسل سواه بلّغوا. وقيل: أي ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه وٱستراق أصحابه. وقال ٱبن قتيبة: أي ليعلم الجنّ أن الرسل قد بلّغوا ما نزل عليهم ولم يكونوا هم المبلّغين بٱستراق السمع عليهم. وقال مجاهد: ليعلم من كذّب الرسل أن المرسلين قد بلّغوا رسالات ربهم. وقراءة الجماعة «لِيَعْلَمَ» بفتح الياء وتأويله ما ذكرناه. وقرأ ٱبن عباس ومجاهد وحُميد ويعقوب بضم الياء أي ليُعْلِم الناس أن الرسل قد أبلغوا. وقال الزجاج: أي ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته بفتح الياء؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

---

(١) هذاالكلام ينافي قوله ﷺ: «إن الله قد عصمني من الإنس والجن» (الحديث ٦/ ٢٤٤) وأن الشياطين لا يمكن أن ينالوا منه عليه السلام، فكيف يلقون إليه حتى لا يفرق بين ما يلقونه وبين الوحي إلى أن تبينه له الملائكة. (٢) في، ح: «موضع الرقب».

المعنى: ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيباً. ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط علمه بما عندهم، أي بما عند الرسل وما عند الملائكة. وقال ٱبن جبير: المعنى: ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم، فيبلّغوا رسالاته. ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ أي أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء. و «عَدَداً» نصب على الحال، أي أحصى كل شيء في حال العدد، وإن شئت على المصدر، أي أحصى وعدّ كل شيء عدداً، فيكون مصدر الفعل المحذوف. فهو سبحانه المحصي المحيط العالم الحافظ لكل شيء. وقد بينا جميعه في الكتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى. والحمد[1] لله وحده.

سورة المُزَّمِّل

وهي سبع وعشرون آية. مَكِّيَّةٌ كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر

وقال ٱبن عباس وقتادة: إلا آيتين منها ﴿وَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ والتي تليها؛ ذكره الماورديّ. وقال الثعلبيّ: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى﴾ إلى آخر السورة؛ فإنه نزل بالمدينة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ①﴾.

[٢] ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾.

[٣] ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③﴾.

[٤] ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ④﴾.

فيه ثمانِ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ قال الأخفش سعيد: «الْمُزَّمِّل» أصله المتزمل؛ فأدغمت التاء في الزاي وكذلك «المدثّر». وقرأ أُبيّ بن كعب على الأصل «الْمُتَزَمِّل»

(١) في ط: «تمت السورة بحمد الله وعونه».

و «المتدثّر». وسعيد: «الْمُزَمّلْ»(١). وفي أصل «المزّمّل» قولان: **أحدهما**: أنه المتحمل؛ يقال: زَمَل الشيءَ إذا حمله، ومنه الزّاملة؛ لأنها تحمل القُمَاش(٢). **الثاني**: أن المزّمّل هو المتلفّف؛ يقال: تزمل وتدثّر بثوبه إذا تغطى. وزمّل غيره إذا غطّاه، وكل شيء لُفِّف فقد زمل ودثر؛ قال ٱمرؤ القيس:

كبِيرُ أناسٍ في بِجَادٍ مُزَمّلِ(٣)

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، وفيه ثلاثة أقوال: **الأوّل**: قول عكرمة «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ» بالنبوّة والملتزم للرسالة. وعنه أيضاً: يا أيها الذي زُمِّلَ هذا الأمر أي حُمِّله ثم فتر، وكان يقرأ «يَا أَيُّهَا المُزَمَّلْ» بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديدها على حذف المفعول، وكذلك «المُدَثَّر» والمعنى المزمِّل نفسه والمدثِّر نفسه، أو الذي زَمَّله غيره. **الثاني**: «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل» بالقرآن، قاله ٱبن عباس. **الثالث**: المزمل بثيابه، قاله قتادة وغيره. قال النخعي: كان متزملاً بقطيفةٍ. عائشة: بِمرطٍ طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على النبي ﷺ وهو يصلّي، واللّهِ ما كان خَزًّا ولا قَزًّا ولا مِرعِزاءَ(٤) ولا إِبرِيسما ولا صُوفاً، كان سَداه شَعراً، ولُحمته وَبَراً، ذكره الثعلبيّ.

قلت: وهذا القول من عائشة يدلّ على أن السورة مَدَنِيّة؛ فإن النبي ﷺ لم يَبْن بها إلاّ في المدينة. وما ذُكر من أنها مكية لا يصحّ. والله أعلم. وقال الضحاك: تزمل بثيابه لمنامه. وقيل: بلغه من المشركين سوء قولٍ فيه، فٱشتد عليه فتزمل في ثيابه وتدثر، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر﴾. وقيل: كان هذا في ٱبتداء ما أوحي إليه، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال: «زمّلوني دثروني» روي معناه عن ٱبن عباس. وقالت الحكماء: إنما خاطبه بالمزمّل والمدّثر في أوّل الأمر؛ لأنه لم يكن بعد ٱدّثر شيئاً من تبليغ الرسالة. قال ٱبن العربي: وٱختلف في تأويل «يَا أَيُّهَا

---

(١) لعل هذا ما أراده بعض المفسرين بقولهم: قرأ بعض السلف «المزمل» بفتح الزاي وتخفيفها وفتح الميم وشدّها. (٢) القماش: أردأ أمتاع البيت، ويقال له: سقط المتاع. (٣) صدر البيت:

كأن أبانا في أفانين ودقه

(٤) المرعزاء (بكسر الميم والعين): الزغب الذي تحت شعر العنز.

الْمُزَّمِّلُ» فمنهم من حمله على حقيقته، قيل له: يا من تلفّف في ثيابه أو في قطيفته قم؛ قاله إبراهيم وقتادة. ومنهم من حمله على المجاز، كأنه قيل له: يا من تزمل بالنبوّة؛ قاله عكرمة، وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشدّدة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل.

قلت: وقد بينا أنها على حذف المفعول: وقد قرىء بها، فهي صحيحة المعنى. قال: وأما من قال إنه زمّل القرآن فهو صحيح في المجاز، لكنه قد قدّمنا أنه لا يحتاج إليه.

الثالثة ـ قال السُّهَيلي: ليس المزمّل بٱسم من أسماء النبي ﷺ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدُّوه في أسمائه عليه السلام، وإنما المزمّل ٱسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب، وكذلك المدثّر. وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان: **إحداهما**: الملاطفة؛ فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه، باسم مشتق من حالته التي هو عليها؛ كقول النبي ﷺ لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال، له: «قم يا أبا تراب» إشعاراً له أنه غير عاتب عليه، وملاطفةً له. وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة: «قم يا نومان» وكان نائماً ملاطفاً له، وإشعاراً لِترك العتب والتأنيب[1]. فقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطفةٌ؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه. **والفائدة الثانية** ـ التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل وٱتصف بتلك الصفة.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو السَّمَّال بضم الميم إتباعاً لضمة القاف. وحكى الفتح لخفته. قال عثمان بن جنّي: الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هرباً من ٱلتقاء الساكنين، فبأي حركة تحرّكت فقد وقع الغرض. وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدّية إلى مفعول، فأما ظرف الزمان والمكان فسائغ

---

(١) في أ، ح، ل: «والتأنيس».

فيه، إلا أن ظرف المكان لا يتعدّى إليه إلا بواسطة؛ لا تقول: قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار. وقد قيل: إن «قم» هنا معناه صَلِّ؛ عبّر به عنه وٱستعير له حتى صار عرفاً بكثرة الاستعمال.

الخامسة ـ «اللَّيْلَ» حدّ الليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وقد تقدّم بيانه في سورة «البقرة»[1] وٱختلف: هل كان قيامه فرضاً وحتماً، أو كان ندباً وحضًّا؟ والدلائل تقوّي أن قيامه كان حتماً وفرضاً؛ وذلك أن الندب والحضّ لا يقع على بعض الليل دون بعض؛ لأن قيامه ليس مخصوصاً به وقتاً دون وقت. وأيضاً فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي. واختلف أيضاً؛ هل كان فرضاً على النبي ﷺ وحده، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء، أو عليه وعلى أمته؟ ثلاثة أقوال: الأوّل: قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة. الثاني: قول ٱبن عباس، قال: كان قيام الليل فريضة على النبي ﷺ وعلى الأنبياء قبله. الثالث: قول عائشة وٱبن عباس أيضاً وهو الصحيح: كما في صحيح مسلم عن زرارة بن أوْفَى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله.. الحديث، وفيه: فقلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ؟ فقالت: ألست تقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ قلت: بلى! قالت فإن الله عزّ وجلّ ٱفترض قيام الليل في أوّل هذه السورة، فقام ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله عزّ وجلّ خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله عزّ وجلّ في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوّعاً بعد فريضة. وذكر الحديث. وذكر وكيع ويَعْلَى قالا: حدّثنا مِسْعر عن سِماك الحنفي قال: سمعت ٱبن عباس يقول لما أنزل أوّل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أوّلها وآخرها نحو من سنة. وقال سعيد بن جبير: مكث النبي ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ﴾ فخفّف الله عنهم.

(١) راجع ٢/١٩٢.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ٱستثناء من الليل، أي صلّ الليل كله إلا يسيراً منه؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن، فٱستثنى منه القليل لراحة الجسد. والقليل من الشيء ما دون النصف؛ فحكى عن وهب بن منبّه أنه قال: القليل ما دون المعشار والسدس. وقال الكلبي ومقاتل: الثلث. ثم قال تعالى: ﴿نِصْفَهُ أَوِ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ فكان ذلك تَخْفيفاً إذ لم يكن زمان القيام محدوداً، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾. وقال الأخفش: «نِصْفَهُ» أي أو نصفَه؛ يقال: أعطه درهماً درهمين ثلاثة: يريد: أو درهمين أو ثلاثة. وقال الزجاج: «نِصفَه» بدل من الليل و «إِلاَّ قَلِيلاً» ٱستثناء من النصف. والضمير في «منه» و «عليه» للنصف. المعنى: قم نصف الليل أو ٱنقص من النصف قليلاً إلى الثلث أو زد عليه قليلاً إلى الثلثين؛ فكأنه قال: قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه. وقيل: إن «نِصْفَهُ» بدل من قوله: «قَلِيلاً» وكان مخيراً بين ثلاث: بين قيام النصف بتمامه، وبين الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه؛ كأن تقدير الكلام: قم الليل إلا نصفه، أو أقل من نصفه، أو أكثر من نصفه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «يَنزل الله عزّ وجلّ إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأوّل، فيقول أنا الملِك أنا الملِك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر». ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعاً وهو يدل على ترغيب قيام ثلثي الليل. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: قال : قال رسول الله ﷺ: «إذا مضى شطر الليل ـ أو ثلثاه ـ ينزل الله ».. الحديث. رواه من طريقين عن أبي هريرة هكذا على الشك . وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عزّ وجلّ يمهل حتى يمضي شَطْر الليل الأوّل ، ثم يأمر منادياً يقول: هل من داع يُستجاب له؟ هل من مستغفر يُغفر له؟ هل من سائل يُعطَى ؟ » ؟ صحّحه أبو محمد عبد الحقّ؛ فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول، وأن ذلك يكون عند نصف الليل. وخرّج ٱبن ماجه من حديث ٱبن شهاب، عن أبي سَلَمة وأبي عبد الله الأغر، عن أبي هريرة:

أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخِر كل ليلة فيقول من يسألني فأعطيَه؟ من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يستغفرني فأغفرَ له؟ حتى يطلع الفجر». فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوّله. قال علماؤنا: وبهذا الترتيب ٱنتظم الحديث والقرآن، فإنهما يبصران من مشكاة واحدة. وفي الموطأ وغيره من حديث ٱبن عباس: بتُّ عند خالتي ميمونة حتى إذا ٱنتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل، ٱستيقظ رسول الله ﷺ فقام إلى شَنّ معلق فتوضأ وضوءاً خفيفاً. وذكر الحديث.

السابعة ـ ٱختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل؛ فعن ٱبن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ إلى آخر السورة. وقيل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾. وعن ٱبن عباس أيضاً: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى﴾. وعن عائشة أيضاً والشافعيّ ومقاتل وٱبن كيسان: هو منسوخ بالصلوات الخمس. وقيل الناسخ لذلك قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾. قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ قاموا حتى ورِمَت أقدامهم وسُوقهم، ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾. قال بعض العلماء: وهو فرض نُسخ به فرض؛ كان على النبي ﷺ خاصة لفضله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾.

قلت: القول الأوّل يعم جميع هذه الأقوال، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصلوات الخمس. وقد ذهب الحسن وٱبن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلْب شاة. وعن الحسن أيضاً أنه قال في هذه الآية: الحمد لله تطوّع بعد الفريضة. وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنّة. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل للنبي ﷺ حصيراً يصلّي عليه من الليل، فتسامع الناس به، فلما رأى جماعتهم كره ذلك، وخشي أن يُكتب عليهم قيام الليل، فدخل البيت كالمغضَب، فجعلوا

يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال: «أيها الناس أكْلَفوا[١] من الأعمال ما تُطِيقون، فإن الله لا يَمَلّ من الثواب، حتى تَمَلّوا من العمل، وأن خيرَ العمل أدومُه وإن قلّ». فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ فكُتب عليهم، فأنزل بمنزلة الفريضة، حتى إن كان أحدُهم ليَربطُ الحبل فيتعلقُ به، فمكثوا ثمانية أشهر، فرحمهم الله وأنزل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ فردهم الله إلى الفريضة، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوّعوا به.

قلت: حديث عائشة هذا ذكره الثعلبيّ، ومعناه ثابت في الصحيح إلى قوله: «وإن قلّ» وباقيه يدل على أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون. وقد تقدّم عنها في صحيح مسلم: حولاً. وحكى الماورديّ عنها قولاً ثالثاً وهو ستة عشر شهراً، لم يذكر غيره عنها. وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أوّل المزمّل وآخرها سنة؛ قال: فأما رسول الله ﷺ فقد كان فرضاً عليه. وفي نسخه عنه قولان: **أحدهما**: أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى. **الثاني**: أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته. وفي مدّة فرضه إلى أن نسخ قولان: **أحدهما**: المدّة المفروضة على أمته في القولين الماضيين، يريد قول ابن عباس حولاً، وقول عائشة ستة عشر شهراً. **الثاني**: أنها عشر سنين إلى أن خفف عنه بالنسخ زيادةً في التكليف، ليميزه بفعل الرسالة؛ قاله ابن جبير.

قلت: هذا خلاف ما ذكره الثعلبيّ عن سعيد بن جبير حَسْب ما تقدّم فتأمله. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي لا تعجل[٢] بقراءة القرآن بل اقرأه في مَهَل وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك: اقرأه حرفاً حرفاً. وقال مجاهد: أحبّ الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه. والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام؛ ومنه ثغر رَتِل ورَتَل، بكسر العين وفتحها: إذا كان حسن التنضيد. وتقدّم بيانه في مقدّمة الكتاب[٣]. وروى الحسن أن النبي ﷺ مرّ برجل يقرأ آية ويبكي، فقال: «ألم تسمعوا

---

(١) أكلفوا: تحملوا: النهاية لابن الأثير. (٢) جملة: «لا تعجل» ساقطة من ح.

(٣) راجع ١/١٧.

إلى قول الله عزّ وجلّ ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ هذا الترتيل». وسمع عَلْقَمةُ رجلاً يقرأ قراءة حسنة فقال: لقد رتّل القرآن، فِداه أبي وأمّي، وقال أبو بكر بن طاهر: تدبَّر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبَك بفهم معانيه، وسرَّك بالإقبال عليه. وروى عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: «يؤتَى بقارىء القرآن يوم القيامة، فيوقف في أوّل درج الجنة ويقال له اْقرأ وأرتقِ ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها» خرجه أبو داود وقد تقدّم في أوّل الكتاب(١). وروى أنس أن النبي ﷺ كان يمدّ صوته بالقراءة مدّاً.

[٥] ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ هو متصل بما فُرض من قيام الليل، أي سنلقي عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يثقل حمله؛ لأن الليل للمنام، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بِحَمْل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان، فهو أمر يثقل على العبد. وقيل: إنا سنوحي إليك القرآن، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه. قال قتادة: ثقيل والله فرائضه وحدوده. مجاهد: حلاله وحرامه. الحسن: العمل به. أبو العالية: ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام. محمد بن كعب: ثقيلاً على المنافقين. وقيل: على الكفار؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم، والبيان لضلالتهم وسبّ آلهتهم، والكشف عما حرفه أهل الكتاب. السُّديّ: ثقيل بمعنى كريم؛ مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل عليّ، أي يكرم عليّ. الفرّاء: «ثقِيلاً» رزيناً ليس بالخفيف السَّفْساف لأنه كلام ربنا. وقال الحسين بن الفضل: ثَقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، ونفس مزينة بالتوحيد. وقال اْبن زيد: هو والله ثقيل مبارك، كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة. وقيل «ثَقِيلاً» أي ثابتاً كثبوت الثقيل في محله، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز، لايزول إعجازه أبداً. وقيل: هو القرآن نفسه؛ كما جاء في الخبر: أن النبي ﷺ كان إذا أوحِيَ إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها

(١) راجع ٨/١.

ـ يعني صدرها ـ على الأرض، فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى[1] عنه. وفي الموطأ وغيره أنه عليه السلام سئل: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فَيُفصِم عنّي وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيُفصِم عنه وإن جبينه ليَتفصَّد عرقاً. قال ٱبن العربيّ: وهذا أولى؛ لأنه الحقيقة، وقد جاء ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وقال عليه السلام: «بُعِثت بالحنيفية السَّمْحة». وقيل: القول في هذه السورة: هو قول لا إله إلا الله؛ إذ في الخبر: خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان؛ ذكره القشيريّ.

[٦] ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

[٧] ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ قال العلماء: ناشئة الليل أي أوقاته وساعاته، لأن أوقاته تنشأ أوّلاً فأولاً؛ يقال: نشأ الشيء ينشأ: إذا ٱبتدأ وأقبل شيئاً بعد شيء، فهو ناشىء وأنشأه الله فنشأ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله؛ فناشئة: فاعلة من نشأت تنشأ فهي ناشئة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ والمراد إن ساعات الليل الناشئة، فٱكتفى بالوصف عن الاسم، فالتأنيث للفظ ساعة، لأن كل ساعة تحدث. وقيل: الناشئة مصدر بمعنى [قيام الليل][2] كالخاطئة والكاذبة؛ أي إن نشأة الليل هي أشدّ وطئا، وقيل: إن ناشئة الليل قيام الليل. قال ٱبن مسعود: الحَبَشة يقولون: نشأ أي قام. فلعله أراد أن الكلمة عربية[3]، ولكنها شائعة في كلام الحبشة، غالبة عليهم، وإلا فليس في القرآن ما ليس في لغة العرب. وقد تقدّم بيان هذا في مقدّمة الكتاب مستوفًى.

---

(١) أي الوحي.
(٢) زيادة تقتضيها العبارة؛ وهي كذلك في كتب التفسير.
(٣) في أ، ح، ل: «غريبة» راجع ١/٦٨ فما بعدها.

الثانية ـ بيّن تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن، أعظم للأجر، وأجلب للثواب.

وٱختلف العلماء في المراد بناشئة الليل؛ فقال ٱبن عُمر وأنس بن مالك: هو ما بين المغرب والعشاء، تمسكاً بأن لفظ نشأ يعطي الابتداء، فكان بالأولية أحقّ؛ ومنه قول الشاعر:

ولـولا أَنْ يُقـالَ صَبَـا نُصَيـبٌ لَقلـتُ بِنفسِـيَ النَّشَـأُ الصِّغـارُ

وكان عليّ بن الحسين يصلّي بين المغرب والعشاء ويقول: هذا ناشئة الليل. وقال عطاء وعِكرمة: إنه بدء الليل. وقال ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما: هي الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار، وهو الذي ٱختاره مالك بن أنس. قال ٱبن العربيّ: وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة. وقالت عائشة وٱبن عباس أيضاً ومجاهد: إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم. ومن قام أوّل الليل قبل النوم فما قام ناشئة. فقال يَمان وٱبن كَيْسان: هو القيام من آخر الليل. وقال ٱبن عباس: كانت صلاتهم أوّل الليل. وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ. وفي الصحاح: وناشئة الليل أوّل ساعاته. وقال القُتَبيّ: إنه ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة. وعن الحسن ومجاهد: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح. وعن الحسن أيضاً؛ ما كان بعد العشاء فهو ناشئة. ويقال: ما ينشأ في الليل من الطاعات؛ حكاه الجوهريّ.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً﴾ قرأ أبو العالية وأبو عمرو وٱبن أبي إسحاق ومجاهد وحُميد وٱبن محيصن وٱبن عامر والمغيرة وأبو حَيْوة «وِطَاء» بكسر الواو وفتح الطاء والمدّ، وٱختاره أبو عبيد. الباقون «وَطْئاً» بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، وٱختاره أبو حاتم؛ من قولك: ٱشتدت على القوم وطأة سلطانهم. أي ثقل عليهم ما حمَّلهم من المُؤَن، ومنه قول النبي ﷺ: «اللهم ٱشدد وطأتك على مُضَر» فالمعنى أنها أثقل على المصلّي من ساعات النهار. وذلك أن الليل وقت منام وتودّع وإجمام، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة. ومن مدّ فهو مصدر واطأت وِطاء ومواطأة أي وافقته. ٱبن زيد واطأته على الأمر مواطأة: إذا وافقته من الوِفاق، وفلان يواطىء ٱسمه ٱسمي، وتواطئُوا عليه أي توافقوا؛ فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان؛ لانقطاع الأصوات

والحركات؛ قاله مجاهد وٱبن أبي مُلَيكة وغيرهما. وقال ٱبن عباس بمعناه، أي يّواطىء السمع القلب؛ قال الله تعالى: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا. وقيل: المعنى أشد مِهاداً للتصرف في التفكر والتدبر. والوِطاء خلاف الغِطاء. وقيل: «أَشَدُّ وَطْأً» بسكون الطاء وفتح الواو أي أشد ثباتاً من النهار؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله، فيكون ذلك أثبت للعمل وأتقى[1] لما يلهي ويشغل القلب. والوطء الثبات، تقول: وطئت الأرض بقدَمي. وقال الأخفش: أشد قياماً. الفراء: أثبت قراءة وقياماً. وعنه: «أَشَدُّ وَطْئاً» أي أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش، فعبادته تدوم ولا تنقطع. وقال الكلبي: «أَشَدُّ وَطْئاً» أي أشد نشاطاً للمصلّي؛ لأنه في زمان راحته. وقال عبادة: «أَشَدُّ وَطْأً» أي نشاطاً للمصلّي وأخفّ، وأثبت للقراءة.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي القراءة بالليل أقوم منها بالنهار؛ أي أشد ٱستقامة وٱستمراراً على الصواب؛ لأن الأصوات هادئة، والدنيا ساكنة، فلا يضطرب على المصلّي ما يقرؤه. قال قتادة ومجاهد: أي أصوب للقراءة وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم. وقال أبو علي: «أَقْوَمُ قِيلاً» أي أشد ٱستقامة لفراغ البال بالليل. وقيل: أي أعجل إجابة للدعاء. حكاه ٱبن شجرة. وقال عِكرمة: عبادة الليل أتم نشاطاً، وأتم إخلاصاً، وأكثر بركة. وعن زيد بن أسلم: أجدر أن يتفقَّه في القرآن. وعن الأعمش قال: قرأ أنس بن مالك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَصْوَبُ قِيلاً﴾ فقيل له: «وَأَقْوَمُ قِيلاً» فقال: أقوم وأصوب وأهيأ: سواء. قال أبو بكر الأنباريّ: وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال: من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب، إذا لم يخالف معنًى ولم يأت بغير ما أراد الله وقصد له، وٱحتجوا بقول أنس هذا. وهو قول لا يُعرَّج عليه ولا يلتفت إلى قائله؛ ـ لأنه لو قرأ بألفاظ تخالف ألفاظ القرآن إذا قاربت معانيها وٱشتملت على عامتها، لجاز أن يقرأ في موضع «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»: الشكر للباري ملك المخلوقين، ويتسع الأمر في هذا حتى يبطل لفظ جميع القرآن، ويكون التالي له مفترياً على الله عزّ وجلّ، كاذباً على رسوله ﷺ،

(١) في ل: «وأنقى».

ولا حجة لهم في قول ٱبن مسعود: نزل القرآن على سبعة أحرف، إنما هو كقول أحدكم: هَلُمّ وتعال وأقبل؛ لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات المأثورة المنقولة بالأسانيد الصحاح عن النبي ﷺ إذا ٱختلفت ألفاظها، وٱتفقت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف في هلمّ، وتعال، وأقبل، فأما ما لم يقرأ به النبي ﷺ وأصحابه وتابعوهم رضي الله عنهم، فإنه من أورد حرفاً منه في القرآن بهت ومال وخرج من مذهب الصواب. قال أبو بكر: والحديث الذي جعلوه قاعدتهم في هذه الضلالة حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم؛ لأنه مبني على رواية الأعمش عن أنس، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به، من قِبَل أن الأعمش رأى أنساً ولم يسمع منه.

الخامسة ـ قوله تعالى[1]: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة؛ أي تصرُّفاً في حوائجك، وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً. والسَّبْح: الجري والدوران. ومنه السابح في الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه. وفرس سابح: شديد الجري؛ قال ٱمرؤ القيس:

مِسَحٌّ إذا ما السَّابِحاتُ على الوَنَى ... أثَرْنَ الغُبارَ بِالكَدِيدِ المُرَكَّلِ[2]

وقيل: السبح الفراغ؛ أي إن لك فراغاً للحاجات بالنهار. وقيل: «إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً» أي نوماً، والتسبح التمدّد؛ ذكره الخليل. وعن ٱبن عباس وعطاء: «سَبْحاً طَوِيلاً» يعني فراغاً طويلاً لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك. وقال الزجاج: إن فاتك في الليل شيء فلك في النهار فراغ الاستدراك.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وأبو وائل «سَبْخا» بالخاء المعجمة. قال المهدويّ: ومعناه النوم؛ روى ذلك عن القارئين بهذه القراءة. وقيل: معناه الخفة والسَّعة والاستراحة؛ ومنه قول

(١) جملة: «قوله تعالى» ساقطة من ح.

(٢) مِسح: معناه يصب الجري صباً. وهذه الكلمة وردت محرفة في ط، وهي ساقطة من سائر الأصول. والتصويب من «الديوان» «واللسان». والوني: الفتور والكلال. والكديد: الموضع الغليظ. والمركل: الذي يركل بالأرجل. ومعنى البيت: إن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرس جرياً سهلاً كما يسح السحاب المطر.

النبي ﷺ لعائشة وقد دعت على سارق ردائها: «لا تُسبِّخِي [عنه][(١)] بدعائك عليه». أي لا تخفّفي عنه إثمه؛ قال الشاعر:

فَسَبِّخْ عليك الْهَمَّ وٱعلم بِأَنَّهُ   إذا قَدَّرَ الرحمنُ شيئاً فَكَائِنُ

الأصمعيّ: يقال سَبَّخ اللّهُ عنك الحُمَّى أي خفّفها. وسَبَخ الحَرُّ[(٢)]: فتر وخَفَّ. والتَّسبِيخ النوم الشديد. والتَّسبيخ أيضاً توسيع القطن والكَتَّان والصوف وتنفيشها؛ يقال للمرأة: سبخي قطنك. والسَّبيخُ من القطن ما يسبَّخ بعد النَّدْف، أي يُلفّ لتغزله المرأة، والقطعة منه سَبِيخة، وكذلك من الصوف والوبر. ويقال لقطع القطن سبائخ؛ قال الأخطل يصف القُنَّاص والكلاب:

فأَرسَلُوهُنَّ يُذْرِينَ التّرابَ كما   يُذْرِي سَبَائخَ قُطْنٍ نَدْفُ أَوْتَارِ

وقال ثعلب: السَّبْخ بالخاء التردّد والاضطراب، والسَّبْخ أيضاً السكون؛ ومنه قول النبي ﷺ: «الحُمّى من فيح جهنم، فسبِّخوها بالماء» أي سكِّنوها. وقال أبو عمرو: السَّبْخ: النوم والفراغ.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، وتكون بمعنى السبح، بالحاء غير المعجمة.

[٨] ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي ٱدعه بأسمائه الحسنى، ليحصل لك مع الصلاة محمود العاقبة. وقيل: أي ٱقصد بعملك وجه ربك. وقال سهل: ٱقرأ باسم الله الرحمن الرحيم في ٱبتداء صلاتك توصلك بركة قراءتها إلى ربك، وتقطعك عما سواه[(٣)]. وقيل: ٱذكر ٱسم ربك في وعده ووعيده، لتَوَفَّر على طاعته وتعدل عن معصيته. وقال الكلبيّ: صلِّ لربك أي بالنهار.

---

(١) زيادة من نهاية الأثير.
(٢) في أ، ح، ل، و: «الجن» بالجيم والنون، وهو تحريف.
(٣) في أ، ح، ز، ط، «تهواه».

قلت: وهذا حسن فإنه لما ذكر الليل ذكر النهار؛ إذ هو قسيمه وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّر﴾ على ما تقدّم[(١)].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ التبتل: الانقطاع إلى عبادة الله عزّ وجلّ؛ أي ٱنقطع بعبادتك إليه، ولا تشرك به غيره. يقال: بتلت الشيء أي قطعته، ومنه قولهم؛ طلقها بَتَّةً بَتلة، وهذه صدقة بتة بتلة؛ أي بائنة منقطعة عن صاحبها؛ أي قُطِع ملكه عنها بالكلية؛ ومنه مريم البتول لانقطاعها إلى الله تعالى، ويقال للراهب متبتّل؛ لانقطاعه عن الناس، وٱنفراده بالعبادة. قال:

تُضِيءُ الظَّلاَمَ بالعِشَاءِ كأَنَّهَا مَنارةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ[(٢)]

وفي الحديث النهي عن التبتل، وهو الانقطاع عن الناس والجماعات. وقيل: إن أصله عند العرب التفرد؛ قاله ٱبن عرفة. والأوّل أقوى لما ذكرنا. ويقال: كيف قال: تَبْتِيلاً، ولم يقل تَبَتُّلاً؟ قيل له: لأن معنى تَبَتَّل بَتَّل نفسه، فجيء به على معناه مراعاة لحقّ الفواصل.

الثالثة ـ قد مضى في «المائدة»[(٣)] في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ كراهة لمن تبتَّل وٱنقطع وسلك سبيل الرهبانية بما فيه كفاية. قال ٱبن العربيّ: وأما اليوم وقد مَرِجت عهودُ الناس، وخفّت أماناتهم، وٱستولى الحرام على الحُطام[(٤)]، فالعزلة خير من الخُلْطة، والعُزْبة أفضل من التأهُّل، ولكن معنى الآية: ٱنقطِعْ عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله، وكذلك قال مجاهد: معناه: أخلص له العبادة، ولم يرد التبتّل، فصار التبتل مأموراً به في القرآن، منهياً عنه في السنّة، ومتعلق الأمر غير متعلق النهي، فلا يتناقضان، وإنما بعث ليبيِّن للناس ما نزل إليهم؛ فالتبتّل المأمور به: الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا

(١) راجع ١٣/ ٦٥.
(٢) البيت من معلقة ٱمرىء القيس، ومعناه: إذا ٱبتسمت بالليل رأيت لثناياها بريقاً وضوءاً، وإذا برزت في الظلام ٱستنار وجهها حتى يغلب ظلمة الليل. وممسى راهب: أي إمساؤه.
(٣) راجع ٦/ ٢٦١.
(٤) حطام الدنيا: كل ما فيها من مال يفنى ولا يبقى.

اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[١] والتبتُّل المنهيّ عنه: هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان يكون خيرُ مال المسلم غَنَماً يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القَطْر، يفرّ بدينه من الفتن.

[٩] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

[١٠] ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾.

[١١] ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قرأ أهل الحرمين وآبن مُحَيْصن ومجاهد وأبو عمرو وآبن أبي إسحاق وحفص «رَبُّ» بالرفع على الابتداء والخبر ﴿لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾. وقيل: على إضمار «هو». الباقون «رَبِّ» بالخفض على نعت الربّ تعالى في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ «رَبِّ الْمَشْرِقِ»، ومن علم أنه ربّ المشارق والمغارب ٱنقطع بعمله وأمله إليه. ﴿فَاتَّخِذْه وَكيلاً﴾ أي قائماً بأمورك. وقيل: كفيلاً بما وعدك.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي من الأذى والسبّ والاستهزاء، ولا تجزع من قولهم، ولا تمتنع من دعائهم. ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ أي لا تتعرض لهم، ولا تشتغل بمكافأتهم، فإن في ذلك ترك الدعاء إلى الله. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أمر بعدُ بقتالهم وقتلهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك؛ قاله قتادة وغيره، وقال أبو الدرداء: إنا لَنَكْشِرُ في وجوه [أقوام][٢] ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتَقْلِيهم أو لتلعنهم.

قوله تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي ٱرض بي لعقابهم. نزلت في صناديد قريش ورؤساء مكة من المستهزئين. وقال مقاتل: نزلت في المطعِمِين[٣] يوم بدر وهم عشرة. وقد تقدّم ذكرهم في «الأنفال»[٤]. وقال يحيى بن سلاّم: إنهم بنو المغيرة. وقال سعيد بن جُبير أخبرت أنهم ٱثنا عشر رجلاً. ﴿ أولِي النَّعْمَةِ ﴾ أي أولي الغنى والترفُّه واللذة في الدنيا

---

(١) راجع ٢٠/ ١٤٤. (٢) الزيادة من نهاية ٱبن الأثير.
(٣) في أ، ح، ل: «المهطعين».
(٤) راجع ٨/ ٥٣.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ يعني إلى مدّة آجالهم. قالت عائشة رضي الله عنها: لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر. وقيل: «وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً» يعني إلى مدة الدنيا.

[١٢] ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً﴾ الأنكال: القيود. عن الحسن ومجاهد وغيرهما. واحدها نِكْل، وهو ما منع(١) الإنسان من الحركة. وقيل سمّي نِكلا، لأنه يُنكَّل به. قال الشعبيّ: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا ٱستَفَلت بهم. وقال الكلبيّ: الأنكال: الأغلال، والأوّل أعرف في اللغة؛ ومنه قول الخنساء:

دَعــاكَ فَقَطَّعْــتَ أَنْكَــالَــهُ وقَدْ كُنَّ(٢) قَبْلَكَ لا تُقْطَعُ

وقيل: إنه أنواع العذاب الشديد؛ قاله مقاتل. وقد جاء أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحبّ النَّكَل على النَّكَل» بالتحريك، قاله الجوهريّ. قيل: وما النَّكَل؟ قال: «الرجل القوي المجرَّب، على الفرس القويّ المجرَّب» ذكره الماورديّ. قال: ومن ذلك سمي القيد نِكْلا لقوته، وكذلك الغُلّ، وكل عذاب قوي فٱشتد. والجحيم النار المؤجَّجة. ﴿وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ﴾ أي غير سائغ؛ يأخذ بالحلق، لا هو نازل ولا هو خارج، وهو الغِسلِين والزُّقوم والضّريع؛ قاله ٱبن عباس. وعنه أيضاً: أنه شوك يدخل الحلق، فلا ينزل ولا يخرج. وقال الزجاج: أي طعامهم الضَّريع؛ كما قال: «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ» وهو شوك كالعَوْسَج. وقال مجاهد: هو الزَّقوم، كما قال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلأَثِيمِ﴾. والمعنى واحد. وقال حُمْران بن أَعْيَن: قرأ النبي ﷺ ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً. وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ﴾

---

(١) في أ، ح، و: «وهو منع». (٢) في ديوان الخنساء: ظنّ.

فصعق. وقال خُلَيد بن حسان: أمسى الحسن عندنا صائماً، فأتيته بطعام فعرضتُ له هذه الآية ﴿إنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً﴾ فقال: ٱرفع طعامك. فلما كانت الثانية أتيته بطعام فعرضت له هذه الآية، فقال: ٱرفعوه. ومثله في الثالثة؛ فٱنطلق ٱبنه إلى ثابت البُنَاني ويزيدَ الضَّبيّ ويحيى البكّاء فحدّثهم، فجاءوه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سَوِيق. والغُصَّة: الشَّجا، وهو ما يَنْشَب في الحلق من عَظْم أو غيره، وجمعها غُصَصٌ. والغَصَصُ بالفتح مصدر قولك: غَصِصْتَ يا رجل تَغَصّ، فأنت غاصّ بالطعام وغصّان، وأغصصته أنا، والمنزل غاصّ بالقوم أي ممتلىء بهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ والْجِبَالُ﴾ أي تتحرّك وتضطرب بمن عليها. وٱنتصب «يوم» على الظرف أي ينكل بهم ويعذّبون ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلأَرْضُ﴾. وقيل: بنزع الخافض؛ يعني هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض والجبال. وقيل: العامل «ذَرْنِي» أي وذرني والمكذبين يوم ترجُف الأرض والجبال. ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالَ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ أي وتكون. والكثيب الرمل المجتمع ـ قال حسان:

عَـرَفْـتُ ديـار زَيْـنَـبَ بـالْـكَثِيـبِ كَخَطِّ الْوَحْيِ في الْوَرَقِ[1] الْقَشِيبِ

والمَهِيل: الذي يمرّ تحت الأرجل. قال الضحاك والكلبيّ: المهيل: هو الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها، وإذا أخذت أسفله ٱنهال. وقال ٱبن عباس: «مَهِيلاً» أي رملاً سائلاً متناثراً. وأصله مَهْيول وهو مَفْعول من قولك: «هِلْت عليه التراب أَهِيله هيلاً: إذا صببته. يقال: مَهِيل ومَهْيول، ومَكِيل ومَكْيول، ومَدِين ومَدْيون، ومَعِين ومَعْيون؛ قال الشاعر[2]:

قد كان قَوْمُك يَحْسَبونَكَ سَيِّداً وإخَـالُ أَنَّـكَ سَيِّـدٌ مَعْيُـونُ

وفي حديث النبي ﷺ أنهم شكوا إليه الجدُوبة؛ فقال: «أتكيلون أم تَهِيلون» قالوا: نَهِيل. قال «كِيلوا طعامكم يُبَارَكْ لكم فيه». وأَهَلْت الدقيق لغة في هِلْت فهو

---

(١) ويروى «في الرق»، والوحي هنا: الكتابة. والقشيب: الجديد. شبه حسان رضي الله عنه آثار الديار بالسطور.

(٢) هو عباس بن مرداس. وقد ورد في أ، هـ، و: «والحال أنك» الخ.

مهال ومَهِيل. وإنما حذفت الواو، لأن الياء تثقل فيها الضمة، فحذفت فسكنت هي والواو فحذفت الواو لالتقاء الساكنين.

[١٥] ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً﴾ يريد النبي ﷺ أرسله إلى قريش ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ وهو موسى ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أي كذب به ولم يؤمن. قال مقاتل: ذكَر موسى وفرعون؛ لأن أهل مكة ٱزدرَوا محمداً ﷺ وٱستخفوا به؛ لأنه ولد فيهم، كما أن فرعون ٱزدرى موسى؛ لأنه ربّاه ونشأ فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾. قال المهدويّ: ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدّم ذكره؛ ولذلك ٱختير في أوّل الكتب سلام عليكم، وفي آخرها السلام عليكم. ﴿وَبِيلاً﴾ أي ثقيلاً شديداً. وضَرْبٌ وبيل وعذاب وبيل: أي شديد؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد. ومنه مطر وابل أي شديد؛ قاله الأخفش. وقال الزجاج: أي ثقيلاً غليظاً. ومنه قيل للمطر وابل. وقيل: مُهلكاً [والمعنى عاقبناه عقوبة[1] غليظة] قال:

أَكَلْتِ بَنِيكِ أَكْلَ الضَّبِّ حتى وجَـدْتِ مَـرَارةَ الْكَـلإِ الْـوَبِيـلِ

واستوبل فلان كذا: أي لم يَحمد عاقبته. وماء وبيل: أي وخيم غير مريء، وَكَلأٌ مستَوْبَل وطعام وبيل ومُستوبَلٌ: إذا لم يُمْرِىء ولم يُستَمْرأ؛ قال زهير:

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي، ونص بأنها عبارته.

فَقَضَّوْا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثم أَصْدَرُوا إِلَى كَلإٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَوَخَّمِ

وقالت الخنساء:

لَقَدْ أَكَلَتْ بِجَيلَةُ يومَ لاَقَتْ فَوَارِسَ مَالك أَكْلاً وَبِيلاً

والوبيل أيضاً: العصا الضخمة؛ قال:

لَو أصْبَحَ في يُمْنى يَدَيَّ زِمامُها[1] وفِي كَفِّيَ الأُخْرى وَبِيلٌ تُحاذِرُهْ

وكذلك المَوْبِل بكسر الباء، والمَوْبِلة أيضاً: الحُزْمة من الحطب، وكذلك الوَبِيل، قال طَرفة:

عَقِيلَةُ شَيْخ كالوَبيلِ يَلَنْدَد[2]

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ هو توبيخ وتقريع، أي كيف تتقونَ العذاب إن كفرتم. وفيه تقديم وتأخير، أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم. وكذا قراءة عبد الله وعطية. قال الحسن: أي بأي صلاة تتقون العذاب؟ بأي صوم تتقون العذاب؟ وفيه إضمار، أي كيف تتقون عذاب يوم. وقال قتادة: واللّهِ ما يتقي من كفر بالله ذلك اليوم بشيء. و «يَوْماً» مفعول بـ «تَتَّقُونَ» على هذه القراءة وليس بظرف، وإن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول «كَفَرْتُمْ». وقال بعض المفسرين: وقف التمام على قوله: «كَفَرْتُمْ» والابتداء «يَوْماً» يذهب إلى أن اليوم مفعول «يجعل» والفعل لله عزّ وجلّ، وكأنه قال: يجعل الله الولدان شيباً في يوم. قال ابن الأنباري: وهذا لا يصلح؛ لأن اليوم هو الذي يفعل هذا من شدّة هوله. المهدويّ: والضمير في «يجعل» يجوز أن يكون لله عزّ وجلّ، ويجوز أن يكون لليوم، وإذا كان لليوم صلح أن يكون صفة له، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عزّ وجلّ إلا مع تقدير حذف؛ كأنه قال: يوماً يجعل الله الولدان فيه شيباً. ابن الأنباريّ: ومنهم من نصب اليوم

(١) في أ، ح، و: «رقامها».

(٢) يلندد: شديد الخصومة. وصدر البيت:

فمرت كهاة ذات خيف جلالة

بـ «كفرتم» وهذا قبيح؛ لأن اليوم إذا عُلّق بـ «كفرتم» ٱحتاج إلى صفة؛ أي كفرتم بيوم. فإن ٱحتج محتج بأن الصفة قد تحذف وينصب ما بعدها، ٱحتججنا عليه بقراءة عبد الله ﴿فكَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْماً﴾.

قلت: هذه القراة ليست متواترة، وإنما جاءت على وجه التفسير. وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ «يوماً» مفعول صريح من غير صفة ولا حذفها؛ أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء. وقرأ أبو السَّمَّال قَعْنَب «فكيف تتقونِ» بكسر النون على الإضافة. و «الْوِلْدَانَ» الصبيان. وقال السُّدي: هم أولاد الزنا. وقيل: أولاد المشركين. والعموم أصح: أي يشيب فيه الصغير من غير كبر. وذلك حين يقال: «يا آدم قم فٱبعث بَعْث النار». على ما تقدّم في أوّل سورة «الحج»[1]. قال القُشيريّ: ثم إن أهل الجنة يغيّر الله أحوالهم وأوصافهم على ما يريد. وقيل: هذا ضربُ مَثَل لشدّة ذلك اليوم وهو مجاز؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه وِلدان، ولكن معناه أن هيبة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبي لَشابَ رأسه من الهيبة. ويقال: هذا وقت الفزع، وقبل أن يُنْفَخ في الصور نفخة الصعْق؛ فالله أعلم. الزمخشريّ: وقد مرّ بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، فأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثَّغامة[2]، فقال: أرِيت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيّب.

قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفطِرٌ بِهِ﴾ أي متشققة لشدّته. ومعنى «بِهِ» أي فيه؛ أي في ذلك اليوم لهوله. هذا أحسن ما قيل فيه. ويقال: مُثْقَلة به إثقالاً يؤدّي إلى ٱنفطارها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه؛ كقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وقيل: «بِهِ» أي له، أي لذلك اليوم؛ يقال: فعلت كذا بحرمتك ولحرمتك، والباء واللام

(١) راجع ١١/٣.

(٢) في نسخ الأصل: «كالنعامة» بالنون والعين. والثغامة (بالثاء المفتوحة والعين): شجرة تبيض كأنها الثلج.

وفي: متقاربة في مثل هذا الموضع؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي في يوم القيامة. وقيل: «بِهِ» أي بالأمر أي السماء مُنْفطر بما يجعل الولـدان شِيباً. وقيل: منفطر بالله، أي بأمره. وقال أبو عمرو بن العلاء: لم يقل منفطـرة ؛ لأن مجازهـا(1) السقف ؛ تقـول : هـذا سمـاء البيـت ؛ قـال الشـاعر:

فَلَـوْ رَفَـعَ السَّمَـاءُ إِلَيْـهِ قـومـاً لَحِقْنـا بـالسَّمـاءِ وبـالسَّحـابِ

وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾. وقال الفراء: السماء يذكر ويؤنث. وقال أبو علي: هو من باب الجراد المنتشر، والشجر الأخضر، و ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾. وقال أبو عليّ أيضاً: أي السماء ذات ٱنفطار؛ كقولهم: ٱمرأة مرضع، أي ذات إرضاع، فجرى على طريق النسب. ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ أي بالقيامة والحساب والجزاء ﴿مَفْعُولاً﴾ كائناً لا شك فيه ولا خُلْف. وقال مقاتل: كان وعده بأن يظهر دينه على الدين كلّه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يريد هذه السورة أو الآيات عِظَة. وقيل: آيات القرآن، إذ هو كالسورة الواحدة. ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ﴾ أي من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه ﴿سَبِيلاً﴾ أي طريقاً إلى رضاه ورحمته فليرغب، فقد أمكن له؛ لأنه أظهر له الحجج والدلائل. ثم قيل: نسخت بآية السيف، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ قال الثعلبيّ: والأشبه أنه غير منسوخ.

[٢٠] ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ

(1) مجازها: معناها.

ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى - قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ هذه الآية تفسير لقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ كما تقدّم، وهي الناسخة لفرضية قيام الليل كما تقدّم. «تَقُومُ» معناه تصلّي و ﴿أَدْنَى﴾ أي أقلّ. وقرأ ٱبن السَّمَيْقَع وأبو حَيْوة وهشام عن أهل الشام ﴿ثُلْثَي﴾ بإسكان اللام. ﴿وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ﴾ بالخفض قراءة العامة عطفاً على «ثُلُثَي»؛ المعنى: تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه. وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه. وقرأ ٱبن كثير والكوفيون «وِنِصْفَهُ وَثُلُثَه» بالنصب عطفاً على «أَدْنَى» التقدير: تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفَه وثلثَه. قال الفراء: وهو أشبه بالصواب؛ لأنه قال أقلّ من الثلثين، ثم ذكر نفس القِلّة لا أقلّ من القلّة. القُشَيْري: وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف؛ لخفة القيام عليهم بذلك القدر، وكانوا يزيدون، وفي الزيادة إصابة المقصود، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه، وينقصون منه. ويحتمل أنهم أُمروا بقيام نصف الليل، ورُخّص لهم في الزيادة والنقصان، فكانوا ينتهون في الزيادة إلى قريب من الثلثين، وفي النصف إلى الثلث. ويحتمل أنهم قدّر لهم النصف وأنقص إلى الثلث، والزيادة إلى الثلثين، وكان فيهم من يفي بذلك، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نُسخ عنهم. وقال قوم: إنما ٱفترض الله عليهم الربع، وكانوا ينقصون من الربع. وهذا القول تحكُّم.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها، وأنتم تعلمون بالتحرّي والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ. ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ أي لن تطيقوا معرفة حقائق ذلك والقيامَ به. وقيل: أي لن تطيقوا قيام الليل. والأوّل أصح؛ فإنّ قيام الليل ما فُرض كله قطّ. قال مقاتل[1] وغيره: لما نزلت ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ شقّ ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطىء، فانتفخت أقدامهم، وٱنْتُقِعت ألوانهم، فرحمهم الله وخفّف عنهم؛ فقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ و «أَنْ» مخفّفة من الثقيلة؛ أي علم أنكم لن تحصوه؛ لأنكم إن زدتم ثقل عليكم، وٱحتجتم إلى تكليف ما ليس فرضاً، وإن نقصتم شقّ ذلك عليكم.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو، وهذا يدل على أنه كان فيهم في ترك بعض ما أمر به. وقيل: أي فتاب عليكم من فرض القيام إذْ عجزتم. وأصل التوبة الرجوع كما تقدّم؛ فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عُسْر إلى يُسْر. وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحرّي، فخفّف عنهم ذلك التحرّي. وقيل: معنى ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يخلقهما مقدَّرين؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾. ٱبن العربي: تقدير الخلقة لا يتعلّق به حكم، وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فيه قولان: **أحدهما** ـ أن المراد نفس القراءة؛ أي فٱقرءوا فيما تصلّونه بالليل ما خفّ عليكم. قال السّديّ: مائة آية. الحسن: من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجّه القرآن. وقال كعب: من قرأ في ليلة مائة آية كُتب من القانتين. وقال سعيد: خمسون آية.

قلت: قول كعب أصح؛ لقوله عليه السلام: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المُقَنْطِرين»[2] خرجه أبو داود

---

(١) في ز: «قال النقاش». (٢) أي أعطي من الأجر قنطاراً.

الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو. وقد ذكرناه في مقدّمة الكتاب[١] والحمد لله. **القول الثاني**: ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي فصلّوا ما تيسّر عليكم، والصلاة تسمى قرآناً؛ كقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي صلاة الفجر. ٱبن العربي: وهو الأصح: لأنه عن الصلاة أخبر، وإليها يرجع القول.

قلت: الأوّل أصح حملاً للخطاب على ظاهر اللفظ، والقول الثاني مجاز؛ فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله.

الخامسة ـ قال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ نَسَخَ قيامَ الليل ونصفه، والنقصان من النصف والزيادة عليه. ثم ٱحتمل قول الله عزّ وجلّ: ﴿ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ معنيين **أحدهما**: أن يكون فرضاً ثانياً؛ لأنه أزيل به فرضٌ غيره. **والآخر**: أن يكون فرضاً منسوخاً أزيل بغيره كما أزيل به غيره؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ فٱحتمل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ أي يتهجد بغير الذي فُرض عليه مما تيسّر منه. قال الشافعيّ: فكان الواجب طلب الاستدلال بالسُّنة على أحد المعنيين، فوجدنا سنّة رسول الله ﷺ تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس.

السادسة ـ قال القُشيريّ أبو نصر: والمشهور أن نسخ قيام الليل كان في حقّ الأمة، وبقيت الفريضة في حقّ النبي ﷺ. وقيل: نسخ التقدير بمقدار، وبقي أصل الوجوب؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فالهدي لا بدّ منه، كذلك لم يكن بُدٌّ من صلاة الليل، ولكن فُوّض قدره إلى ٱختيار المصلّي، وعلى هذا فقد قال قوم: فَرْض قيام الليل بالقليل باقٍ؛ وهو مذهب الحسن. وقال قوم: نسخ بالكلية، فلا تجب صلاة الليل أصلاً؛ وهو مذهب الشافعي. ولعل الفريضة التي بقيت في حقّ النبي ﷺ هي هذا، وهو قيامه، ومقداره مفوّض إلى خِيرتِه. وإذا ثبت أن القيام ليس فرضاً

---

(١) راجع ١/ ٩.

فقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ معناه اقرءوا إن تيسّر عليكم ذلك، وصلّوا إن شئتم. وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرّر في حقّ النبي ﷺ أيضاً، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه. وقوله: «نَافِلَةً لَكَ» محمول على حقيقة النفل. ومن قال: نسخ المقدار وبقي أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ، فهذا النسخ الثاني وقع ببيان مواقيت الصلاة؛ كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، ما في الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوّع. وقيل: وقع النسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ والخطاب للنبي ﷺ وللأمة، كما أنّ فرضية الصلاة وإن خوطب بها النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ﴾ كانت عامة له ولغيره. وقد قيل: إن فريضة الله امتدّت إلى ما بعد الهجرة، ونسخت بالمدينة؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وإنما فرض القتال بالمدينة؛ فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة، فقيام الليل نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾. وقال ابن عباس: لما قدم رسول الله ﷺ نَسَخ قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ وجوبَ صلاة الليل.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى﴾ الآية؛ بيّن سبحانه علة تخفيف قيام الليل، فإن الخَلْق منهم المريض، ويشقّ عليهم قيام الليل، ويشقّ عليهم أن تفوتهم الصلاة، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل، والمجاهد كذلك، فخفّف الله عن الكل لأجل هؤلاء. و «أَنْ» في «أَنْ سَيَكُونُ» مخففة من الثقيلة؛ أي علم أنه سيكون.

الثامنة ـ سوَّى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله، والإحسان والإفضال، فكان هذا دليلاً على أن كسب المال بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله. وروى إبراهيم عن علقمة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من جالب يجلب طعاماً من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت

منزلته عند الله منزلة الشهداء» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقال ٱبن مسعود: أيّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً؛ فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء. وقرأ ﴿وَآخَرُون يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. وقال ٱبن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحبّ إليّ من الموت بين شعبتي رَحْلِي، أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض. وقال طاوس: الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله. وعن بعض السلف أنه كان بواسط، فجهز سفينة حِنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بِعِ الطعام يوم تدخل البصرة، ولا تؤخره إلى غدٍ؛ فوافق سعةً في السعر؛ فقال التجار للوكيل: إن أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله، فكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا! إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا، وقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال وتصدّق به على فقراء البصرة، وليتني أنجو من الاحتكار كَفافاً لا عليّ ولا لي. ويروى أن غلاماً من أهل مكة كان ملازماً للمسجد، فافتقده ٱبن عمر، فمشى إلى بيته، فقالت أمه: هو على طعام له يبيعه؛ فلقيه فقال له: يا بنيّ! مالك وللطعام؟ فهلاّ إبلاً، فهلاّ بقراً، فهلاّ غنماً! إن صاحب الطعام يحب المَحْل، وصاحب الماشية يحب الغيث.

التاسعة - قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي صلّوا ما أمكن؛ فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدّم. قال ٱبن العربي وقد قال قوم: إن فرض قيام الليل سُنَّ في ركعتين من هذه الآية ؛ قاله البخاريّ وغيره ، وعقد باباً ذكر فيه حديث «يَعقد الشيطانُ على قافية[1] رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يضرب على كل عُقْدَة مكانها: عليك ليل طويل فارقد. فإن ٱستيقظ فذكر الله ٱنحلت عُقْدة، فإن توضأ ٱنحلت عُقْدة، فإن صلّى ٱنحلت عُقَده كلّها، فأصبح نشيطاً طيّب النفس، وإلا أصبح خبيث

(١) قافية الرأس مؤخره، وقيل: وسطه؛ أراد تثقيله في النوم وإطالته.

النفس كسلان» وذكر حديث سَمُرة بن جُنْدُب عن النبي ﷺ في الرؤيا قال: «أما الذي يُثْلَغ[١] رأسُه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفُضه[٢]، وينام عن الصلاة المكتوبة». وحديث عبد الله بن مسعود قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل ينام الليل كلّه فقال: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه» فقال ابن العربيّ: فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلق الصلاة على المكتوبة؛ فيحمل المطلق على المقيد لاحتماله له، وتسقط الدعوى ممّن عيّنه لقيام الليل. وفي الصحيح واللفظُ للبخاري: قال عبد الله بن عمرو: وقال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله لا تكن مثلَ فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل» ولو كان فرضاً ما أقره النبي ﷺ عليه، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه بل كان يذمّه غاية الذمّ، وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصّها على النبي ﷺ، وكنت غلاماً شابًّا عَزَباً، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطويّة كطيّ البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار. قال: ولقينا مَلَك آخر، فقال لي: لم تُرَعْ[٣]. فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلّي من الليل»، فكان بعدُ لا ينام من الليل إلا قليلاً؛ فلو كان تَرْك القيام معصية لما قال له المَلك: لم تُرَعْ. والله أعلم.

العاشـرة ـ إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض، وأن قوله: ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ﴾؛ ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ محمول على ظاهره من القراءة في الصلاة، فاختلف العلماء في قدر ما يلزمه أن يقرأ به في الصلاة؛ فقال مالك والشافعيّ: فاتحة الكتاب لا يجزىء العدول عنها، ولا الاقتصار على بعضها، وقدّره أبو حنيفة بآية واحدة، من أيّ القرآن كانت. وعنه ثلاث

(١) الثلغ: وهو ضربك لشيء الرطب بالشيء اليابس حتى ينشدخ.

(٢) يرفضه: يتركه.

(٣) لم ترع: لا روع ولاخوف عليك بعد ذلك.

آيات؛ لأنها أقلّ سورة. ذكر القول الأوّل الماورديّ والثاني ٱبن العربيّ. والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعيّ، على ما بيّناه في سورة «الفاتحة»[1] أوّل الكتاب والحمد لله. وقيل: إن المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة؛ قال الماورديّ: فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولاً على الوجوب، أو على الاستحباب دون الوجوب. وهذا قول الأكثرين؛ لأنه لو وجب عليه أن يقرأ لوجب عليه أن يحفظه. الثاني أنه محمول على الوجوب؛ ليقف بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائل التوحيد وبعث الرسل، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل التوحيد منه أن يحفظه؛ لأن حِفظ القرآن من القُرَب المستحبة دون الواجبة. وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال: **أحدها**: جميع القرآن؛ لأن الله تعالى يسره على عبادِه؛ قاله الضحاك. **الثاني**: ثلث القرآن؛ حكاه جويبر. **الثالث**: مائتا آية؛ قاله السديّ. **الرابع**: مائة آية؛ قاله ٱبن عباس. **الخامس**: ثلاث آيات كأقصر سورة؛ قاله أبو خالد الكناني.

الحادية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة في أموالكم؛ قاله عكرمة وقتادة. وقال الحارث العُكْلي: صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك. وقيل: صدقة التطوّع. وقيل: كلَ أفعال الخير. وقال ٱبن عباس: طاعة الله والإخلاص له.

الثانية عشرة ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيّب. وقد مضى في سورة «الحديد»[2] بيانه. وقال زيد بن أسلم: القرض الحسن النفقة على الأهل. وقال عمر بن الخطاب: هو النفقة في سبيل الله.

الثالثة عشرة ـ قوله[3] تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ «البقرة»[4]. وروي عن عمر بن الخطاب أنه ٱتخذ حَيْساً ـ يعني تمراً بلبن ـ فجاءه مسكين فأخذه ودفعه إليه. فقال بعضهم: ما يدري هذا المسكين ما هذا؟ فقال عمر: لكن رب المسكين يدري

---

(١) راجع ١/١٢٣. (٢) راجع ١٧/٢٥٧.
(٣) جملة: «قوله تعالى» ساقطة من أ، ح، ط. (٤) راجع ٢/٧٣.

ما هو. وكأنه تأوّلَ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً﴾ أي مما تركتم وخلفتم، ومن الشحّ والتقصير. ﴿وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ قال أبو هريرة: الجنة؛ ويحتمل أن يكون أعظم أجراً؛ لإعطائه بالحسنة عشراً. ونصب «خيراً وأَعْظَم» على المفعول الثاني لـ «تَجِدُوهُ» و «هو»: فصل عند البصريين، وعماد في قول الكوفيين، لا محل له من الإعراب. و «أَجْراً» تمييز. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي سلوه المغفرة لذنوبكم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما كان قبْلَ التوبة ﴿رَحِيمٌ﴾ لكم بعدها؛ قاله سعيد بن جبير. ختمت السورة(١).

سورة المُدَّثِّر

مكِّيَّةٌ في قول الجميع. وهي ستٌّ وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾.

[٢] ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر﴾ أي يا ذا الذي قد تدثّر بثيابه، أي تغشّى بها ونام، وأصله المتدثر فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما. وقرأ أبيّ «الْمُتَدثّر» على الأصل. وقال مقاتل: معظم هذه السورة في الوليد بن المغيرة. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله وكان من أصحاب رسول الله ﷺ كان يُحدِّث ـ قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدّث عن فَترة الوحي ـ قال في حديثه: «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض».

---

(١) في ل: «ختمت السورة والحمد لله».

قال رسول الله ﷺ: «فجُئِثْتُ[١] منه فَرَقاً، فرجعت فقلت زمّلوني زمّلوني، فدثروني، فأنزل الله تعالى «﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾» في رواية ـ قبل أن تفرض الصلاة ـ وهي الأوثان قال: «ثم تتابع الوحي». خرجه الترمذي أيضاً وقال: حديث حسن صحيح. قال مسلم: وحدّثنا زهير بن حرب، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا الأوزاعيّ قال: سمعت يحيى يقول: سألت أبا سلمة: أيُّ القرآن أنزل قبلُ؟ قال: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» فقلتُ: أو «اقرأ». فقال: سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبلُ؟ قال: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» فقلت: أو «اقرأ» فقال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بِحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أرَ أحداً، ثم نوديت فنظرت فلم أرَ أحداً، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء ـ يعني جبريل ﷺ ـ فأخذتني رَجْفةٌ شديدةٌ، فأتيت خديجة فقلت دثّروني، فدثّروني فصبُّوا عليّ ماء، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ خرجه البخاريّ وقال فيه: «فأتيت خديجة فقلت دثّروني وصُبُّوا عليّ ماءً بارداً، فدثّروني وصَبُّوا عليّ ماءً بارداً فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾». ابن العربيّ: وقد قال بعض المفسرين إنه جرى على النبي ﷺ من عُقْبة [بن ربيعة][٢] أمر، فرجع إلى منزله مغموماً، فقَلِق واضطجع، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وهذا باطل. وقال القشيريّ أبو نصر: وقيل بلغه قولُ كفار مكة أنت ساحر، فوجِد من ذلك غمًّا وحُمَّ، فتدثَّر بثيابه، فقال الله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي لا تفكر في قولهم، وبلغهم الرسالة. وقيل: اجتمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأميّة بن خلف والعاص بن وائل ومُطعِم بن عديّ وقالوا: قد اجتمعت وفود العرب في أيام الحج، وهم يتساءلون عن أمر محمد، وقد اختلفتم في الإخبار عنه؛ فمن قائل يقول مجنون،

---

(١) جئثت أي ذعرت وخفت.

(٢) الزيادة من ابن العربي.

وآخر يقول كاهن، وآخر يقول شاعر، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد، فسمّوا محمداً باسم واحد يجتمعون عليه، وتسميه العرب به، فقام منهم رجل فقال: شاعر؛ فقال الوليد: سمعت كلام ٱبن الأبرص، وأمية بن أبي الصَّلْت، وما يشبه كلامُ محمدٍ كلامَ واحد منهما؛ فقالوا: كاهن. فقال؛ الكاهن يَصدُق ويكذِب وما كَذَب محمد قطّ؛ فقام آخر فقال: مجنون؛ فقال الوليد: المجنون يَخنُق الناس وما خَنَق محمد قطّ. وٱنصرف الوليد إلى بيته، فقالوا: صبأ الوليد بن المغيرة؛ فدخل عليه أبو جهل وقال: مالك يا أبا عبد شمس! هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونكه، زعموا أنك قد ٱحتجت وصبأت. فقال الوليد: مالي إلى ذلك حاجة، ولكني فكرت في محمد، فقلت: ما يكون من الساحر؟ فقيل: يفرق بين الأب وٱبنه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلتُ: إنه ساحر. شاع هذا في الناس وصاحوا يقولون: إن محمداً ساحر. ورجع رسول الله ﷺ إلى بيته محزوناً فتدثر بقطيفة، ونزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. وقال عِكرمة: معنى «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» أي المدَّثر بالنبوّة وأثقالها. ٱبن العربي: وهذا مجاز بعيد؛ لأنه لم يكن تنبأ بعد. وعلى أنها أوّل القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثاني ما نزل.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾: ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله، وعبّر عنه بصفته؛ ولم يقل يا محمد ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم في سورة «المزمل». ومثله قول النبي ﷺ لعليّ إذ نام في المسجد: «قم أبا تراب» وكان خرج مغاضباً لفاطمة رضي الله عنها فسقط رداؤه وأصابه ترابه؛ خرجه مسلم. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة ليلة الخندق: «قم يا نَوْمان» وقد تقدّم.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي خوّف أهل مكة وحذِّرهم العذاب إن لم يُسلِموا. وقيل: الإنذار هنا إعلامهم بنبوّته؛ لأنه مقدمة الرسالة. وقيل: هو دعاؤهم إلى التوحيد؛ لأنه المقصود بها. وقال الفراء: قم فصلّ وأمر بالصلاة.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي سيّدك ومالكك ومصلح أمرك فعظّم، وصِفْه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد. وفي حديث أنهم قالوا: بِمَ تُفتتَح الصلاة؟

فنزلت : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي وصفه بأنه أكبر . قال ابن العربيّ : وهذا القول وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة، فإنه مراد به التكبير[١] والتقديس والتنزيه، لخلع الأنداد والأصنام دونه ، ولا تتخذ وليًا غيره ، ولا تعبد سواه ، ولا ترى لغيره فعلاً إلا له ، ولا نعمة إلا منه . وقد روي أن أبا سفيان قال يوم أُحد : اُعلُ هُبَل ؛ فقال النبي ﷺ : « قولوا الله أعلى وأجلّ » وقد صار هذا اللفظ بعرف الشرع في تكبير العبادات كلها أذاناً وصلاة وذكراً بقوله : « الله أكبر » وحمل عليه لفظ النبي ﷺ الوارد على الإطلاق في موارد ؛ منها قوله : « تحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » والشرع يقتضي بعرفه ما يَقْتضي بعمومه ، ومن موارده أوقات الإهلال بالذبائح لله تخليصاً له من الشِّرك، وإعلاناً[٢] باسمه في النُّسك، وإفراداً لما شرع منه لأمره بالسَّفْك.

قلت: قد تقدّم في أوّل سورة «البقرة»[٣] أن هذا اللفظ «الله أكبر» هو المتعبد به في الصلاة، المنقول عن النبي ﷺ. وفي التفسير: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ قام رسول الله ﷺ وقال: «الله أكبر» فكبّرت خديجة، وعلمت أنه الوحي من الله تعالى؛ ذكره القشيريّ.

الخامسة ـ الفاء في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ دخلت على معنى جواب الجزاء كما دخلت في«فَأَنْذِرْ» أي قم فأنذر وقم فكبر ربك؛ قاله الزجاج. وقال ابن جنّي: هو كقولك زيداً فاضرب؛ أي زيداً اضرب، فالفاء زائدة.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فيه ثمانية أقوال: أحدها: أن المراد بالثياب العمل. الثاني: القلب. الثالث: النفس. الرابع: الجسم. الخامس: الأهل. السادس: الخلق. السابع: الدين. الثامن: الثياب الملبوسات على الظاهر. فمن ذهب إلى القول الأوّل

---

(١) كذا في أحكام القرآن، تفسير ابن العربي المطبوع بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ. وفيما نقله المؤلف عن ابن العربي هنا ، تصرف في اللفظ بزيادة ونقص، فليراجع (٢/ ٢٨٧).
(٢) كذا في أحكام القرآن وفي ح، ز، و: «إعلاماً» بالميم.
(٣) راجع ١/ ١٧٥.

قال: تأويل الآية وعملك فأصلح؛ قاله مجاهد وٱبن زيد. وروى منصور عن أبي رَزِين قال: يقول وعملك فأصلح؛ قال: وإذا كان الرجل خبيث العمل قالوا إن فلاناً خبيث الثياب، وإذا كان حسن العمل قالوا إن فلاناً طاهر الثياب؛ ونحوه عن السُّديّ. ومنه قول الشاعر:

لا هُـمَّ إنّ عـامَـر بـن جَهْـمِ أَوْذَمَ حَجًّـا فـي ثِيـابٍ دُسْـمِ[١]

ومنه ما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «يُحشَر المرءُ[٢] في ثوبيه اللذين مات عليهما» يعني عمله الصالح والطالح؛ ذكره الماورديّ. ومن ذهب إلى القول الثاني قال: إن تأويل الآية وقلبك فطهِّر؛ قاله ٱبن عباس وسعيد بن جُبير؛ دليله قول ٱمرىء القيس:

فَسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[٣]

أي قلبي من قلبك. قال الماوردي: ولهم في تأويل الآية وجهان: **أحدهما** ـ معناه وقلبك فطهّر من الإثم والمعاصي؛ قاله ٱبن عباس وقتادة. **الثاني** ـ وقلبك فطهر من الغدر؛ أي لا تغدر فتكون دنس الثياب. وهذا مرويّ عن ٱبن عباس، وٱستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفيّ:

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجِر لبِسـتُ ولا مِـن غَـدْرَةٍ أَتَقنَّـعُ

ومن ذهب إلى القول الثالث قال: تأويل الآية ونفسك فطهر؛ أي من الذنوب. والعرب تكني عن النفس بالثياب؛ قاله ٱبن عباس. ومنه قول عنترة:

فَشَكَكْتُ بالرُّمْح الطَّوِيلِ ثيابَهُ ليس الكريمُ على القنا بمُحَرَّمِ

وقال ٱمرؤ القيس:

فَسُلِّي ثيابِي من ثيابِك تَنْسُلِ

---

(١) ثياب دسم: متلطخة بالذنوب. وفي، ح، ز: «أودم» بالدال المهملة، وهو تحريف. ومعنى البيت: أنه حج وهو متدنس بالذنوب. وأوذم الحج: أوجبه.

(٢) في أ، ح: «المؤمن». (٣) صدر البيت:

وإن كنت قد ساءتك مني خليقة

وقال[١]:

ثِيابُ بَني عوفٍ طَهارَى نقِيَّةٌ وأَوْجُهُهُمْ بيضُ المَسَافِرِ غُرَّانُ

أي أنفس بني عوف. ومن ذهب إلى القول الرابع قال: تأويل الآية وجسمك فطهر؛ أي عن المعاصي الظاهرة. ومما جاء عن العرب في الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى، وذكرت إبلاً:

رموها بأَثْيَابٍ خِفافٍ فلا تَرَى لهـا شَبَهـاً إلاَّ النَّعـامَ المُنَفَّـرَا

أي ركبوها فرموها بأنفسهم. ومن ذهب إلى القول الخامس قال: تأويل الآية وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب: والعرب تسمي الأهل ثوباً ولباساً وإزاراً؛ قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾. الماورديّ: ولهم في تأويل الآية وجهان: أحدهما ـ معناه ونساءك فطهر، باختيار المؤمنات العفائف. الثاني ـ الاستمتاع بهنّ في القبل دون الدبر، في الطهر لا في الحيض. حكاه ٱبن بحر. ومن ذهب إلى القول السادس قال: تأويل الآية وخلقك فحسّن. قاله الحسن والقُرَظي؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله ٱشتمال ثيابه على نفسه. وقال الشاعر:

وَيَحْيَـى لا يُـلامُ بسـوء خُلْـقٍ ويَحْيـى طَـاهِـرُ الأثـوابِ حُـرُّ

أي حسن الأخلاق. ومن ذهب إلى القول السابع قال: تأويل الآية ودينك فطهر. وفي الصحيحين عنه عليه السلام قال: «ورأيت الناس وعليهم ثياب، منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما دون ذلك، ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجرّه». قالوا: يا رسول الله فما أوّلت ذلك؟ قال: الدِّين. وروى ٱبن وهب عن مالك أنه قال: ما يعجبني أن أقرأ القرآن إلا في الصلاة والمساجد لا في الطريق، قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ يريد مالك أنه كني عن الثياب بالدين. وقد روى عبد الله بن نافع عن أبي بكر بن عبد العزيز بن عبد الله

---

(١) نسب المؤلف هذا البيت فيما سيأتي لابن أبي كبشة مرة ولامرىء القيس مرة أخرى، وفي «اللسان» و «شرح القاموس» أنه لامرىء القيس ولم نعثر عليه في ديوانه، وقد نسبه ابن العربي لابن أبي كبشة. والشطر الأخير في أ، ز، ح، ط:

وأوجههم عند المشاهد غران

ٱبن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي لا تلبسها على غَدْرة؛ ومنه قول أبي كَبشة[1]:

ثِيابُ بني عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّةٌ وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ الْمَسَافِرِ غُرَّانُ

يعني بطهارة ثيابهم: سلامتهم من الدناءات، ويعني بغرة وجوههم تنزيههم عن المحرمات، أو جمالهم في الخلقة أو كليهما؛ قاله ٱبن العربي. وقال سفيان بن عيينة: لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم؛ قاله عِكرمة. ومنه قول الشاعر:

أَوْذَمَ جَحًّا في ثيابٍ دُسْمِ

أي قد دنّسها بالمعاصي. وقال النابغة:

رِقَاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حُجُزاتُهُمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ[2]

ومن ذهب إلى القول الثامن قال: إن المراد بها الثياب الملبوسات، فلهم في تأويله أربعة أوجه: **أحدهما** -معناه وثيابك فأنقِ؛ ومنه قول ٱمرىء القيس:

ثيابُ بني عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ

الثاني -وثيابك فشمِّرْ وقصِّرْ، فإن تقصير الثياب أبعد من النجاسة، فإذا ٱنجرّت على الأرض لم يُؤْمَن أن يصيبها ما ينجسها؛ قاله الزجاج وطاوس. **الثالث** -﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ من النجاسة بالماء؛ قاله محمد بن سيرين وٱبن زيد والفقهاء. **الرابع** -لا تلبس ثيابك إلا من كسب حلال لتكون مطهرة من الحرام. وعن ابن عباس: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طاهر. ٱبن العربي وذكر بعض ما ذكرناه: ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الطاهرة فهي تتناول معنيين: **أحدهما** ـ تقصير الأذيال؛ لأنها إذا أرسلت تدنست، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخياً: ٱرفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى.

---

(١) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٦٢ من هذا الجزء. (٢) البيت من قصيدة مدح بها عمرو بن الحارث الغسّاني. وأراد برقاق النعال أنهم ملوك لا يخصفون نعالهم، وبطيب حجزاتهم عفتهم. والسباسب يوم «الشعانين» وهو يوم عيد عند النصارى وكان الممدوح نصرانياً.

وقد قال النبي ﷺ: «إِزْرَةُ[١] المؤمنِ إلى أنصاف ساقيه، لا جُناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما كان أسفلَ من ذلك ففي النار» فقد جعل النبي ﷺ الغاية في لباس الإزار الكعب وتوعّد ما تحته بالنار، فما بال رجال يرسلون أذيالهم، ويطيلون ثيابهم، ثم يتكلفون رفعها بأيديهم، وهذه حالة الكِبْر، وقائدة العُجْب، [وأشدّ ما في الأمر أنهم يَعصُون وينجسون ويُلْحِقون أنفسهم][٢] بمن لم يجعل الله معه غيره ولا ألحق به سواه. قال النبي ﷺ: «لا ينظر الله إلى من جرّ ثوبه خيلاء» ولفظ الصحيح: «من جرّ إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة». قال أبو بكر: يا رسول الله! إن أحد شِقّي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ قال رسول الله ﷺ: «لست ممن يصنعه خيلاء» فعمّ رسول الله ﷺ بالنهي، وٱستثنى الصديق، فأراد الأدنياء إلحاق أنفسهم بالرفعاء[٣]، وليس ذلك لهم. **والمعنى الثاني ـ** غسلها من النجاسة وهو ظاهر منها، صحيح فيها. المهدويّ: وبه ٱستدل بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب؛ قال ٱبن سيرين وٱبن زيد: لا تصلّ إلا في ثوب طاهر. وٱحتج بها الشافعيّ على وجوب طهارة الثوب. وليست عند مالك وأهل المدينة بفرض، وكذلك طهارة البدن، ويدل على ذلك الإجماع على جواز الصلاة بالاستجمار من غير غسل. وقد مضى هذا القول في سورة «براءة»[٤] مستوفًى.

[٥] ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ قال مجاهد وعكرمة: يعني الأوثان؛ دليله قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ﴾ قاله ٱبن عباس وٱبن زيد. وعن ٱبن عباس أيضاً: والمأثم فٱهجر؛ أي فٱترك. وكذا روى مُغيرة عن إبراهيم النَّخَعيّ قال: الرُّجز الإثم. وقال قتادة: الرجز: إساف ونائلة، صنمان كانا عند البيت. وقيل: الرجز العذاب، على تقدير حذف

(١) الإزرة بالكسر: الحالة وهيئة الاتئزار.
(٢) الزيادة من ٱبن العربي (٢/ ٢٨٨) طبع السعادة بالقاهرة.
(٣) في ٱبن العربي: بالأقصياء. (٤) راجع ٨/ ٢٦٣.

المضاف؛ المعنى: وعَمَل الرجز فاْهجر، أو العمل المؤدّي إلى العذاب. وأصل الرجز العذاب، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فسمّيت الأوثان رِجزاً؛ لأنها تؤدّي إلى العذاب. وقراءة العامة «الرِّجْزَ» بكسر الراء. وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد واْبن محيصن وحفص عن عاصم «والرُّجْزَ» بضم الراء وهما لغتان مثل الذِّكر والذُّكر. وقال أبو العالية والربيع والكسائيّ: الرُّجز بالضم: الصنم، وبالكسر: النجاسة والمعصية. وقال الكسائيّ أيضاً: بالضم: الوثن، وبالكسر: العذاب. وقال السّديّ: الرَّجْز بنصب الراء: الوعيد[1].

[٦] ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ فيه أحد عشر[2] تأويلاً؛ **الأوّل** ـ لا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوّة، كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير. **الثاني** ـ لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها؛ قاله اْبن عباس وعِكرمة وقتادة. قال الضحاك: هذا حرمه الله على رسول الله ﷺ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق، وأباحه لأمته؛ وقاله مجاهد. **الثالث** ـ عن مجاهد أيضاً: لا تَضْعُفْ[3] أن تستكثر من الخير؛ من قولك حبل منين إذا كان ضعيفاً؛ ودليله قراءة اْبن مسعود «وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ مِنَ الْخَيْرِ». **الرابع** ـ عن مجاهد أيضاً والربيع: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير، فإنه مما أنعم الله عليك. قال اْبن كيسان: لا تستكثر عملك فتراه من نفسك، إنما عملك مِنَّة من الله عليك؛ إذ جعل الله لك سبيلاً إلى عبادته. **الخامس** ـ قال الحسن: لا تمنن على الله بعملك فتستكثره. **السادس** ـ لا تمنن بالنبوّة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثر به. **السابع** ـ قال القرظيّ: لا تعط مالك مصانعة. **الثامن** ـ قال زيد بن أسلم: إذا

(١) قوله «بنصب الراء...» كذا في نسخ الأصل، ولم نظفر به في المراجع التي بأيدينا.
(٢) أ، ح: «فيه عشر تأويلات».
(٣) عبارة ابن العربي في أحكام القرآن (٢/ ٢٨٨): ولا تضعف عن الخير أن تستكثر منه.

أعطيت عطية فأعطها لربك. التاسع ـ لا تقل دعوت فلم يستجب لي. العاشر ـ لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها، ولكن أصبر حتى يكون الله هو الذي يثيبك عليها. الحادي عشر ـ لا تفعل الخير لترائيَ به الناس.

الثانية ـ هذه الأقوال وإن كانت مرادة فأظهرها قول ٱبن عباس: لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال؛ يقال: مننت فلاناً كذا أي أعطيته. ويقال للعطية المِنّة؛ فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله، لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها؛ لأنه عليه السلام ما كان يجمع الدنيا؛ ولهذا قال: «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم». وكان ما يفضل من نفقة عياله مصروفاً إلى مصالح المسلمين؛ ولهذا لم يورث؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الادّخار والاقتناء، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة في شيء من الدنيا؛ ولذلك[1] حرمت عليه الصدقة وأبيحت له الهدية، فكان يقبلها ويثيب عليها. وقال: «لو دعيت إلى كُرَاع[2] لأجبت ولو أهدي إليّ ذراع لقبلت» ٱبن العربيّ: وكان يقبلها سُنَّة ولا يستكثرها شِرعة، وإذا كان لا يعطي عطية يستكثر بها فالأغنياء أولى بالاجتناب؛ لأنها باب من أبواب المذلّة، وكذلك قول من قال: إن معناها لا تعطِي عطية تنتظر ثوابها، فإن الانتظار تعلق بالأطماع، وذلك في حيزه بحكم الامتناع، وقد قال الله تعالى له: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْك إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيرٌ وَأَبْقَى﴾ وذلك جائز لسائر الخلق؛ لأنه من متاع الدنيا، وطلب الكسب والتكاثر بها. وأما من قال أراد به العمل أي لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهو صحيح؛ فإن ٱبن آدم لو أطاع الله عمره من غير فتور لما بلغ لنعم الله بعض الشكر.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْنُنْ﴾ قراءة العامة بإظهار التضعيف. وقرأ أبو السَّمّال العدويّ وأشهب العُقيليّ والحسن «وَلاَ تَمُنَّ» مدغمة مفتوحة. «تَسْتَكْثِرُ»: قراءة العامة

(١) في، أ، ح، ز، ط: «ولهذا».

(٢) الكراع بوزن غراب: وهو مستدق الساق من الرجل. وهو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس والبعير.

بالرفع وهو في معنى الحال، تقول: جاء زيد يركض أي راكضاً؛ أي لا تعطِ شيئاً مقدّراً أن تأخذ بدله ما هو أكثر منه. وقرأ الحسن بالجزم على جواب النهي وهو رديء؛ لأنه ليس بجواب. ويجوز أن يكون بدلاً من «تَمْنُنْ» كأنه قال: لا تستكثر. وأنكره أبو حاتم وقال: لأن المنّ ليس بالاستكثار فيبدل منه. ويحتمل أن يكون سكن تخفيفاً كعَضْد. أو أن يعتبر حال الوقف. وقرأ الأعمش ويحيى «تَسْتَكْثِرَ» بالنصب، تَوَهُّمَ لام كي، كأنه قال: ولا تمنن لتستكثر. وقيل: هو بإضمار «أن» كقوله(١):

«أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِري أَحْضُرُ الوَغَى»

ويؤيده قراءة ٱبن مسعود «وَلاَ تَمْنُنْ أَن تَسْتَكْثِرِ». قال الكسائيّ: فإذا حذف «أن» رفع، وكان المعنى واحداً. وقد يكون المنّ بمعنى التعداد على المنعم عليه بالنعم، فيرجع إلى القول [الثاني](٢)، ويَعضُده قوله تعالى: ﴿لاَ تُبْطلوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ وقد يكون مراداً في هذه الآية. والله أعلم.

[٧] ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي ولسيّدك ومالكك فٱصبر على أداء فرائضه وعبادته. وقال مجاهد: على ما أوذيت(٣). وقال ٱبن زيد: حُمِّلت أمراً عظيماً؛ محاربةَ العرب والعجم، فاصبر عليه لله. وقيل: فٱصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى. وقيل: فٱصبر على البلْوى؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياءه. وقيل: على أوامره ونواهيه. وقيل: على فراق الأهل والأوطان.

[٨] ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ ﴾.

[٩] ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ ﴾.

[١٠] ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ﴾.

---

(١) البيت لطرفة بن العبد من معلقته، وتمامه:

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

(٢) زيادة يقتضيها المعنى. (٣) في أ، ح، ل: «ما أديت».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ إذا نفخ في الصور. والناقور: فاعول من النقر؛ كأنه الذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب: الصوت؛ ومنه قول أمرىء القيس:

أَخَفِّضُــه بـالنَّقْـرِ لَمَّـا عَلَـوْتُـهُ وَيَرْفَعُ طَرْفاً غَيْرَ خَافٍ غَضِيضِ

وهم يقولون: نَقَّر باسم الرجل إذ دعاه مختصًّا له بدعائه. وقال مجاهد وغيره: هو كهيئة البوق، ويعني به النفخة الثانية. وقيل: الأولى؛ لأنها أوّل الشدّة الهائلة العامة. وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في «النمل»[1] و «الأنعام»[2] وفي كتاب «التذكرة»، والحمد لله. وعن أبي حبَّان قال: أَمَّنَا زُرَارةُ بن أوفى فلما بلغ «فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ» خَرَّ ميتاً. ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي على من كفر بالله وبأنبيائه صلى الله عليهم ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي غير سهل ولا هيّن؛ وذلك أن عُقَدَهم لا تنحل إلا إلى عُقدة أشدّ منها، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى. و «يَوْمَئِذٍ» نصب على تقدير فذلك يوم عسير يومئذٍ. وقيل: جرّ بتقدير حرف جر، مجازه: فذلك في يومئذٍ. وقيل: يجوز أن يكون رفعاً إلا أنه بني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن.

[١١] ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾. [١٢] ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾.
[١٣] ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾. [١٤] ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾.
[١٥] ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥﴾. [١٦] ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦﴾.
[١٧] ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ «ذَرْنِي» أي دعني؛ وهي كلمة وعيد وتهديد. «وَمَنْ خَلَقْتُ» أي دعني والذي خلقتهُ وحيداً؛ فـ «وحيداً» على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف، أي خلقته وحده، لا مال له ولاولد، ثم أعطيتهُ بعد ذلك ما أعطيته.

---

(١) راجع ١٣/٣٣٩.
(٢) راجع ٧/٣٠.

والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزوميّ، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه. وإنما خُصّ بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عليه السلام، وكان يسمَّى الوحيد في قومه. قال ٱبن عباس: كان الوليد يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد؛ فقال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ بزعمه «وَحِيداً» لا أن الله تعالى صدّقه بأنه وحيد. وقال قوم: إن قوله تعالى: ﴿وَحِيداً﴾ يرجع إلى الربّ تعالى على معنيين: **أحدهما**: ذرني وحدي معه فأنا أجزيك في الانتقام منه عن كل منتقم. **والثاني**: أني ٱنفردت[1] بخلقه ولم يشركني فيه أحد، فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه؛ فـ« ـوحِيداً» على هذا حال من ضمير الفاعل، وهو التاء في «خَلَقْتُ» والأوّل قول مجاهد، أي خلقته وحيداً في بطن أمه لا مال له ولا ولد، فأنعمت عليه فكفر؛ فقوله: «وحِيداً» على هذا يرجع إلى الوليد، أي لم يكن له[2] شيء فملكته. وقيل: أراد بذلك ليدله على أنه يبعث وحيداً كما خُلق وحيداً. وقيل: الوحيد الذي لا يُعرف[3] أبوه، وكان الوليد معروفاً بأنه دَعِيّ؛ كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ وهو في صفة الوليد أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾ أي خوّلته وأعطيته مالاً ممدوداً، وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل والحُجُور[4] والنَّعَم والجِنان والعبيد والجواري، كذا كان ٱبن عباس يقول. وقال مجاهد؛ غلّة ألف دينار؛ قاله سعيد بن جبير وٱبن عباس أيضاً. وقال قتادة: ستة آلاف دينار. وقال سفيان الثوري وقتادة: أربعة آلاف دينار. الثوريّ أيضاً: ألف ألف دينار. مقاتل: كان له بستان لا ينقطع خيره شتاءً ولا صيفاً. وقال عمر رضي الله عنه: «وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً» غلة شهر بشهر. النعمان بن سالم: أرضاً يزرع فيها. القشيريّ: والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه، بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة.

---

(١) في أ، ح، و: «أفردت». (٢) كلمة «له» ساقطة من أ، ح، ل.
(٣) في ز، ط، ل: «لا يتبين».
(٤) جمع حجرة، وهي الأنثى من الخيل.

قوله تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ أي حضوراً لا يغيبون عنه في تصرف. قال مجاهد وقتادة: كانوا عشرة. وقيل: اثنا عشر؛ قاله السّديّ والضحاك. قال الضحاك: سبعة ولدوا بمكة وخمسةٌ ولدوا بالطائف. وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولداً. مقاتل: كانوا سبعة كلهم رجال، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام والوليد بن الوليد. قال: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك. وقيل: شهوداً، أي إذا ذُكر ذكروا معه، قاله ابن عباس: وقيل: شهوداً، أي قد صاروا مثله في شهود ما كان يشهده، والقيام بما كان يباشره. والأوّل قول السديّ، أي حاضرين مكة لا يظعنون عنه في تجارة ولا يغيبون.

قوله تعالى: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ أي بسطت له في العيش بسطاً، حتى أقام ببلدته مطمئناً مترفهاً يُرجع إلى رأيه. والتمهيد عند الرب: التوطئة والتهيئة؛ ومنه مَهْدُ الصبيّ. وقال ابن عباس: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ أي وسّعت له ما بين اليمن والشام؛ وقاله مجاهد. وعن مجاهد أيضاً في ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ أنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي ثم إن الوليد يطمع بعد هذا كله أن أزيده في المال والولد. ﴿كَلَّا﴾ أي ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم. وقال الحسن وغيره: أي ثم يطمع أن أدخله الجنة، وكان الوليد يقول: إن كان محمد صادقاً فما خُلقت الجنة إلا لي؛ فقال الله تعالى ردًّا عليه وتكذيباً له: «كَلَّا» أي لستُ أزيده، فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك. و «ثُمَّ» في قوله تعالى: «ثُمَّ يَطْمَعُ» ليست بثم التي للنّسق ولكنها تعجيب؛ وهي كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ وذلك كما تقول: أعطيتك ثم أنت تجفوني؛ كالمتعجّب من ذلك. وقيل يطمع أن أترك ذلك في عقبه؛ وذلك أنه كان يقول: إن محمداً مبتور؛ أي أبتر وينقطع ذكره بموته. وكان يظنّ أن ما رزق لا ينقطع بموته. وقيل: أي ثم يطمع أن أنصره على كفره. و «كَلَّا» قطعٌ للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة؛ فيكون متصلاً بالكلام الأوّل. وقيل: «كَلَّا» بمعنى حقًّا ويكون ابتداء. ﴿إِنَّهُ﴾ يعني الوليد ﴿كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ أي معانداً للنبي ﷺ.

وما جاء به؛ يقال: عاند فهو عنِيد مثل جالِس فهو جلِيس؛ قاله مجاهد. وعَنَدَ يَعْنِد بالكسر أي خالف وردّ الحقّ وهو يعرفه فهو عنِيد وعانِد. والعانِد: البعير الذي يجور عن الطريق ويعدل عن القصد والجمع عُنَّد مثل راكِع ورُكَّع؛ وأنشد أبو عبيدة قول الحارثيّ:

إذا رَكِبتُ فاْجعَلاَني وَسَطاً[1] إنِّـي كَبيـرٌ لا أطيـقُ الْعُنَّـدَا

وقال أبو صالح: «عَنِيداً» معناه مباعداً؛ قال الشاعر:

أَرَانـا علـى حـالٍ تُفَـرِّقُ بَيْنَنَـا نَوًى غَرْبَةٌ[2] إنّ الفِرَاقَ عَنُود

قتادة: جاحداً. مقاتل: معرضاً. ابن عباس: جحوداً. وقيل: إنه المجاهر بعدوانه. وعن مجاهد أيضاً قال: مجانباً للحق معانداً له معرضاً عنه. والمعنى كله متقارب. والعرب تقول: عَنَد الرجل إذا عَتا وجاوز قدره. والعَنُود من الإبل: الذي لا يخالط الإبل، إنما هو في ناحية. ورجل عَنُود إذا كان يحلّ وحده لا يخالط الناس. والعنيد من التجبر. وعرق عاند: إذا لم يَرقأ دمه، كل هذا قياس واحد وقد مضى في سورة «إبراهيم»[3]. وجمع العنيد عُنُد، مثل رغِيف ورغُفُ.

قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ﴾ أي سأكلفه. وكان ابن عباس يقول: سألجئه؛ والإرهـاق فـي كـلام العـرب: أن يُحمَـل الإنسـان علـى الشـيء. ﴿صَعُـوداً﴾ «الصَّعُودُ: جبل من نار يتصعّد فيه سَبْعين خَرِيفاً ثم يَهْوِي كَذَلكَ فيه أَبداً» رواه أبو سعيد الخدريّ عن النبي ﷺ، خرجه الترمذيّ وقال فيه حديث غريب. وروى عطية عن أبي سعيد قال: صخرة في جهنم إذا وضعوا عليها أيديهم ذابت فإذا رفعوها عادت، قال: فيبلغ أعلاها في أربعين سنة يُجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع، حتى إذا بلغ أعلاها رمَى بـه إلـى أسفلها، فذلك دأبه أبداً. وقد مضى هذا المعنى في سورة «قُلْ أوحِيَ»[4]. وفي التفسير: أنه صخرة ملساء

---

(١) رواية «لسان العرب»:

إذا رحلت فاجعلوني وسطا

(٢) نوى غربة: بعيدة. (٣) راجع ٩/٣٤٩. (٤) راجع ص ٢٨ من هذا الجزء.

يكلّف صعودها فإذا صار في أعلاها حُدِر في جهنم، فيقوم يهوِي ألف عام من قبل أن يبلغ قرار جهنم، يحترق في كل يوم سبعين مرّة ثم يعاد خلقاً جديداً. وقال ابن عباس: المعنى سأكلفه مشّقة من العذاب لا راحة له فيه. ونحوه عن الحسن وقتادة. وقيل: إنه تصاعد نفسه للنزع وإن لم يتعقبه موت، ليُعذّب من داخل جسده كما يعذّب من خارجه.

[١٨] ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾ . [١٩] ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩﴾ .
[٢٠] ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠﴾ . [٢١] ﴿ثُمَّ نَظَرَ ٢١﴾ .
[٢٢] ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢﴾ . [٢٣] ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ٢٣﴾ .
[٢٤] ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ٢٤﴾ . [٢٥] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ٢٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ يعني الوليد فكر في شأن النبي ﷺ والقرآن و «قَدَّرَ» أي هيأ الكلام في نفسه، والعرب تقول: قدّرت الشيء إذا هيأته، وذلك أنه لما نزل: ﴿حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ سمعه الوليد يقرؤها فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحَلاوة، وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمِر، وإن أسفله لمغدِق، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صَبَا الوليدُ لتَصبونّ قريش كلها. وكان يقال للوليد ريحانة قريش؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فمضى إليه حزيناً؟ فقال له: مالي أراك حزيناً. فقال له: ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما؛ فغضب الوليد وتكبر، وقال: أنا أحتاج إلى كِسر محمد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللاّت والعُزّى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنما أنتم تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه قطّ يَخنُق؟ قالوا: لا واللّهِ. قال: وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قطّ؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنه كذّاب فهل جرّبتم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا والله.

قال: فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قط، ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً فهل[١] رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا واللّهِ. وكان النبي ﷺ يُسَمَّى الصادق الأمين من كثرة صدقه. فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكّر في نفسه، ثم نظر، ثم عبس، فقال: ما هو إلا ساحر! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟! فذلك قوله تعالى: «إِنَّهُ فَكَّرَ» أي في أمر محمد والقرآن «وَقَدَّرَ» في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما. ﴿فَقُتِلَ﴾ أي لُعن. وكان بعض أهل التأويل يقول: معناها فقهر وغُلب، وكل مُذَلَّل مُقتَّل؛ قال الشاعر[٢]:

وَمَا ذَرَفَتْ عيناكِ إلاّ لِتَقْدَحِي بسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وقال الزهريّ: عُذِّب؛ وهو من باب الدعاء. ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قال ناسٌ: «كَيْفَ» تعجيب؛ كما يقال للرجل تتعجب من صنيعه: كيف فعلت هذا؟ وذلك كقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾. ﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ أي لُعن لعناً بعد لَعن. وقيل: فقتل بضرب من العقوبة، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة ﴿كَيْفَ قدر﴾ أي على أي حال قَدر. ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بأي شيء يرد الحقّ ويدفعه. ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي قَطَّب بين عينيه في وجوه المؤمنين؛ وذلك أنه لما حمل قريشاً على ما حملهم عليه من القول في محمد ﷺ بأنه ساحر، مرّ على جماعة من المسلمين، فدعوه إلى الإسلام، فعبس في وجوههم. قيل: عَبَس وبَسَر على النبي ﷺ حين دعاه. والعَبْس مخفّفاً[٣] مصدر عَبَسَ يَعْبِسُ عَبْساً وعُبُوساً: إذا قطَّبَ. والعَبَس ما يتعلق بأذناب الإبل من أبعارها وأبوالها؛ قال أبو النَّجْم:

كَـأَنَّ فِـي أَذْنـابِهِـنّ الشُّـوَّلِ مِن عَبَسِ الصَّيفِ قُرونَ ٱلْأُيَّلِ

﴿وَبَسَرَ﴾ أي كَلَح وجهه وتغيّر لونه؛ قاله قتادة والسُّديّ؛ ومنه قول بشر بن أبي خازم:

صَبَحْنَا تَمِيماً غَدَاةَ الجِفَارِ[٤] بِشَهْبَاءَ مَلْمُومَةٍ بَاسِرَهْ

(١) تخلج المجنون في مشيته: تجاذب يميناً وشمالاً. (٢) هو أمرؤ القيس. (٣) كلمة: «مخففاً» ساقطة من الأصل المطبوع. (٤) الجفار: موضع. وقيل هو ماء لبني تميم.

وقال آخر[(١)]:

وَقَدْ رَابَنِي مِنْها صُدودٌ رَأَيْتُهُ ... وإِعْراضُها عَنْ حاجتي وبُسُورُها

وقيل: إن ظهور العُبوس في الوجه بعد المحاورة، وظهور البُسور في الوجه قبل المحاورة. وقال قوم: «بَسَر»: وَقَف لا يتقدم ولا يتأخر. قالوا: وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركب، فلم يجيء ولم يذهب: قد بسر المركب، وأَبْسَر أي وقف وقد أبسرنا. والعرب تقول: وجه باسر بيِّن البسور: إذا تغير وآسود. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي ولّي وأعرض ذاهباً إلى أهله. ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي تعظم عن أن يؤمن. وقيل: أدبر عن الإيمان وآستكبر حين دُعي إليه. ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا الذي أتى به محمد ﷺ ﴿إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي يأثِره عن غيره. والسِّحر: الخديعة. وقد تقدم بيانه في سورة «البقرة»[(٢)]. وقال قوم: السحر: إظهار الباطل في صورة الحق. والأثره: مصدر قولك: أثرت الحديث آثِره إذا ذكرته عن غيرك؛ ومنه قيل: حديث مأثور: أي ينقله خلف عن سلف؛ قال آمرؤ القيس:

ولـو عَـنْ نَثَـا غَيـرِه جـاءَنِي[(٣)] ... وجُـرْحُ اللِّسـانِ كَجُـرْح اليـدِ
لَقُلْـتُ مِـن القـول مـا لاَ يَـزا ... لُ يُـؤْثَـرُ عنِّـي يَـدَ الْمُسْنَـدِ

يريد: آخر الدهر. وقال الأعشى:

إنّ الـذي فيـه تمـارَيْتُمَـا[(٤)] ... بُيِّـنَ لِلسَّـامِـعِ والآثِـرِ

ويروى: بَيِّن. ﴿إِنْ هَـذَا إِلاَّ قَـوْلُ الْبَشَـرِ﴾ أي ما هـذا إلا كـلام المخلوقين، يَختدِع به القلوب كما تختدع بالسحر. قال السديّ: يعنون أنه من قول سيارٍ[(٥)] عبدٍ لبني الحضرميّ، كان يجالس النبي ﷺ

(١) هو توبة بن الحمير. وزاد بعض النسخ بعد هذا البيت ما يأتي كحاشية: قوله «بشهباء»: أراد بكتيبة شهباء؛ ومنه قول عنترة:

وكتيبـة لبستهـا بكتيبـة ... شهبـاء بـاسلـة يخـاف رداهـا

ويقال: كتيبة ململمة وملمومة أيضاً أي مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض. وصخرة ملمومة وململمة أي مستديرة صلبة، قاله الجوهري.

(٢) راجع ٢/ ٤٣. (٣) يقول: لو أتاني هذا النبأ عن حديث غيره لقلت قولاً يشيع في الناس ويؤثر عني آخر الدهر. والنثا: ما يحدث به من خير وشر. والمسند: الدهر.

(٤) الذي في ديوان الأعشى طبع أوروبا: «تداريتما». (٥) في ز: «من قول أبي اليسر سيار».

فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك. وقيل: أراد أنه تلقنه من أهل بابل. وقيل: عن مُسَيلمة. وقيل: عن عديّ الحضرميّ الكاهن. وقيل: إنما تلقنه ممن أدعى النبوة قبله، فنسج على منوالهم. قال أبو سعيد الضرير: إن هذا إلا أمر سحر يؤثر؛ أي يورث.

[٢٦] ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٢٧] ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[٢٨] ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[٢٩] ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي سأدخله سقر كي يصْلى حرّها. وإنما سميّت سقر من سَقَرَتْه الشمس: إذا أذابته ولوَّحته، وأحرقت جلدة وجهه. ولا ينصرف للتعريف والتأنيث. قال ٱبن عباس: هي الطبق السادس من جهنم. ورَوى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ربه فقال: أي ربِّ، أيّ عبادك أفقر؟ قال صاحب سَقَر» ذكره الثعلبيّ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾؟ هذه مبالغة في وصفها؛ أي وما أعلمك أي شَيء هي؟ وهي كلمة تعظيم، ثم فسّر حالها فقال: ﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾ أي لا تترك لهم عظماً ولا لحماً ولا دماً إلا أحرقته. وكرر اللفظ تأكيداً. وقيل: لا تبْقي منهم شيئاً، ثم يعادون خلقاً جديداً، فلا تذر أن تعاود إحراقهم هكذا أبداً. وقال مجاهد؛ لا تبقي مَنْ فيها حيًّا ولا تذره ميّتاً، تحرقهم كلما جُدّدُوا. وقال السّديّ: لا تبقى لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي مُغَيِّرة، من لاحه إذا غيّره. وقراءة العامة «لَوَّاحَةٌ» بالرفع نعت لـ «سَقَرَ» في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾. وقرأ عطية العوفيّ ونصر بن عاصم وعيسى بن عمر «لَوَّاحَةً» بالنصب على الاختصاص، للتهويل. وقال أبو رَزِين: تلفح وجوههم لَفْحة تدعها أشدّ سواداً من الليل؛ وقاله مجاهد. والعرب تقول: لاحه البَرْد والحرُّ والسُّقم والحُزْن: إذا غيّره؛ ومنه قول الشاعر:

تَقـولُ مـا لاَحَـك يـا مُسـافِـرُ   يَابْنَةَ عَمِّي لاحَنِي الْهَواجِرُ[٢]

---

(١) كلمة: «أمر» ساقطة من الأصل المطبوع.

(٢) الهواجر: جمع هاجرة، وهي شدة الحر عند منتصف النهار.

وقال آخر:

وتَعجبُ هِندٌ أَنْ رَأَتْنِي شاحِباً تقول لِشَيْءٍ لَوَّحَتْه السَّمائم(١)

وقال رُؤبة بن العجّاج:

لــوَّحَ منـه بعـدَ بُـدْنٍ وسَنَـقْ تَلْويحَكَ الضَّامِرَ يُطْوَى لِلسَّبَقْ(٢)

وقيل: إن اللوح شدة العطش؛ يقال: لاحة العطش ولوَّحه أي غيّره. والمعنى أنها معطِّشة للبشر أي لأهلها؛ قاله الأخفش، وأنشد:

سَقْتِنِي على لَوْحٍ منَ الماء شَرْبَةً سقاها بها اللّهُ الرِّهامَ الغَواديا

يعني باللّوح شدّة العطش، والتاح أي عَطِش. والرِّهام جمع رهمة بالكسر وهي المطرة الضعيفة وأرهمت السحابة أتت بالرِّهام. وقال ابن عباس: «لَوَّاحَةٌ» أي تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام. الحسن وابن كيسان: تلوح لهم جهنم حتى يروها عِياناً. نظيره: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ وفي البَشَر وجهان: أحدهما ـ أنه الإنس من أهل النار؛ قاله الأخفش والأكثرون. الثاني ـ أنه جمع بَشرة، وهي جلدة الإنسان الظاهرة؛ قاله مجاهد وقتادة. وجمع البَشَر أبشار، وهذا على التفسير الأوّل، وأما على تفسير ابن عباس فلا يستقيم فيه إلا الناس لا الجلود؛ لأنه من لاح الشيءُ يَلُوح: إذا لمع.

[٣٠] ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

(١) السمائم: جمع سموم وهي الريح الحارة.

(٢) لوحه السفر غيره وأضمره. والبدن: السمن واكتناز اللحم. والسنق: الشبع حتى يكون كالتخمة. الضامر: الفرس. يطوى: يجوع لأجل السباق.

[٣١] ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي على سَقَر تسعة عشر من الملائكة يَلْقَون فيها أهلها. ثم قيل: على جملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خَزَنتها؛ مالكٌ وثمانيةَ عشَر ملَكاً. ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيباً، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملَكاً بأعيانهم. وعلى هذا أكثر المفسرين. الثعلبيّ: ولا يُنكر هذا، فإذا كان مَلَك واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق. وقال ابن جريج: نعت النبي ﷺ خَزَنة جهنم فقال: «فكأن أعينهم البَرْق، وكأن أفواههم الصياصي، يجرّون أشعارهم، لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأمّة وعلى رقبته جبل، فيرميهم في النار، ويرمي فوقهم الجبل».

قلت: وذكر ابن المبارك قال: حدّثنا حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن رجل من بني تميم قال: كنا عند أبي العوام، فقرأ هذه الآية ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر * لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَر * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فقال ما تسعةَ عَشَر؟ تسعة عشر ألف ملك، أو تسعة عشر مَلَكاً؟ قال: قلت: لا بل تسعةَ عَشَر مَلَكاً. فقال: وأنّى تعلم ذلك؟ فقلت: لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: صدقت هم تسعة عشر مَلَكاً، بيد كل مَلَك منهم مِرْزَبَة[1] لها شُعْبتان، فيضرب الضربة فيهوي بها في النار سبعين ألفاً. وعن عمرو بن دينار: كل واحد منهم يدفع بالدَّفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومُضَر. خرّج الترمذيّ عن جابر بن عبد الله قال: قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ: هل يعلم نبيكم عدد خَزَنة جهنم؟ قالوا: لا ندري حتى نسأل نبينا. فجاء رجل

(١) المرزبة: عصية من حديد، والمطرقة الكبيرة التي للحداد.

إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد غُلِب أصحابك اليوم؛ فقال: «وماذا[1] غُلِبوا»؟ قال: سألهم يهود؛ هل يعلم نبيكم عدد خَزَنة جهنم؟ قال: «فماذا قالوا»؟ قال: قالوا لا ندري حتى نسأل نبيّنا. قال: «أفغُلِب قوم سئلوا عما لا يعلمون، فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا؟ لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جَهْرة، عليّ بأعداء الله! إني سائلهم عن تُرْبة الجنة وهي الدَّرْمَك». فلما جاءوا قالوا: يا أبا القاسم كم عدد خَزَنة جهنم؟ قال: «هكذا وهكذا» في مرة عشرة وفي مرة تسعة، قالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: «ما تُرْبة الجنة» قال: فسكتوا هنيهة ثم قالوا: أخبزة يا أبا القاسم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الخبزُ من الدَّرْمَك». قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشَّعْبي عن جابر. وذكر ابن وهب قال: حدثنا عبد الرحمن بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنم: «ما بين مَنكِبَيْ أحدهم كما بين المشرق والمغرب». وقال ابن عباس: ما بين مَنكِبي الواحد منهم مَسيرة سنة، وقوّة الواحد منهم أن يضرب بالمِقْمَع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم.

قلت: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عَشَر، هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها». وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثِكلتكم أمهاتكم! أسْمعُ ابن أبي كبشة يخبركم أن خَزَنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدَّهْم ـ أي العَدد ـ والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السّديّ: فقال أبو الأسود[2] بن كَلَدة الجُمَحيّ: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون

---

(١) كذا في أ، ح، ط، و. وفي نسخة: وبم؟.

(٢) كذا في نسخ الأصل: «الأسود». والذي في حاشية الجمل ٤/٤٥٧: «أبو الأشد».

إلى الجنة؛ يقولها مستهزئاً. في رواية: أن الحرث بن كَلَدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر، وأكفوني أنتم أثنين. وقيل: إن أبا جهل قال أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً﴾ أي لم نجعلهم رجالاً فتتعاطون مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذَّبين من الجنّ والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقّة، ولا يستروِحون إليهم؛ ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له، فتؤمن هوادتهم؛ ولأنهم أشدّ خلق الله بأساً وأقواهم بطشاً. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً﴾ أي بليّة. وروي عن ٱبن عباس من غير وجه قال؛ ضلالة للذين كفروا، يريد أبا جهل وذويه. وقيل: إلا عذاباً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾. أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب. وفي «تِسْعَةَ عَشَرَ» سبع قراءات[1]: قراءة العامة «تِسْعَةَ عَشَرَ». وقرأ أبو جعفر بن القَعْقاع وطلحة بن سليمان «تِسْعَةَ عْشَرَ» بإسكان العين. وعن ٱبن عباس «تِسْعَةُ عَشَرَ» بضم الهاء. وعن أنس بن مالك «تِسْعَةُ وَعَشَرْ» وعنه أيضاً «تِسْعَةٌ وَعَشْرُ». وعنه أيضاً «تِسْعَةُ أَعْشُر» ذكرها المهدويّ وقال: من قرأ «تِسْعَةَ عْشَرَ» أسكن العين لتوالي الحركات. ومن قرأ «تِسْعَةُ وَعَشَرْ» جاء به على الأصل قبل التركيب. وعطف عشراً على تسعة، وحذف التنوين لكثرة الاستعمال، وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها. ومن قرأ «تِسْعَةُ عَشَرْ» فكأنه من التداخل؛ كأنه أراد العطف وترك التركيب، فرفع هاء التأنيث، ثم راجع البناء وأسكن. وأما«تِسعةُ أَعْشُر»: فغير معروف، وقد أنكرها أبو حاتم. وكذلك «تِسعةُ وَعَشْر» لأنها محمولة على «تِسعةُ أَعْشُر» والواو بدل من الهمزة، وليس لذلك وجه عند النحويين. الزمخشريّ: وقرىء «تِسْعَةُ أَعْشُر» جمع عَشِير، مثل يَمين وأَيْمنُ.

(١) ورد في الأصول ست قراءات فقط ولعل السابعة قراءة سليمان بن قتة «تسعة أعشر» بضم التاء وهمزة مفتوحة وسكون العين وضم الشين وجر الراء. وتعقب السمين هذه القراءات فقال: «في هذه الكلمة قراءات شاذة وتوجيهات تشاكلها».

قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عِدة خَزَنة جهنم موافقة لما عندهم؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم. ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلاَم. ويحتمل أنه يريد الكل. ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ بذلك؛ لأنهم كلما صدّقوا بما في كتاب الله آمنوا، ثم ازدادوا إيماناً لتصديقهم بعدد خَزَنة جهنم. ﴿وَلاَ يَرْتَابَ﴾ أي ولا يشك ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي أعطوا الكتاب ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي المصدّقون من أصحاب محمد ﷺ في أن عِدة خزنة جهنم تسعة عشر. ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي في صدورهم شك ونفاق من منافقي أهل المدينة، الذين يَنجُمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة، ولم يكن بمكة نفاق وإنما نَجَم بالمدينة. وقيل: المعنى؛ أي وليقول المنافقون الذين ينَجمُون في مستقبل الزمان بعد الهجرة. ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ يعني بعدد خزنة جهنم. وقال الحسين بن الفضل: السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق؛ فالمرض في هذه الآية الخلاف و «الْكَافِرُونَ» أي مشركو العرب. وعلى القول الأوّل أكثر المفسرين. ويجوز أن يراد بالمرض: الشك والارتياب؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين، وبعضهم قاطعين بالكذب، وقوله تعالى إخباراً عنهم: «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ» أي ما أراد «بِهَذَا» العدد الذي ذكره حديثاً، أي ما هذا من الحديث. قال الليث: المَثَل الحديث؛ ومنه: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ» أي حديثها والخبر عنها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخَزَنة جهنم ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ أي يخزي ويعمِي ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي﴾ أي ويرشد ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ كإرشاد أصحاب محمد ﷺ. وقيل: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ» عن الجنة «مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي» إليها «مَنْ يَشَاءُ». ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي وما يدري عدد ملائكة ربّك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار «إِلاَّ هُوَ» أي إلا الله جلّ ثناؤه. وهذا جواب لأبي جهل حين قال: أمَا لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر! وعن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ كان يَقْسم غنائم حُنين، فأتاه جبريل فجلس عنده، فأتى مَلَك فقال: إن ربك يأمرك.

بكذا وكذا، فخشي النبي ﷺ أن يكون شيطاناً، فقال: «يا جبريل أتعرفه»؟ فقال: هو مَلَك وما كل ملائكة ربّك أعرف. وقال الأوزاعيّ: قال موسى: «يا ربّ من في السماء؟ قال ملائكتي. قال كم عِدَّتهم يا ربّ؟ قال: اثني[1] عشر سِبْطاً. قال: كم عدّة كل سِبط؟ قال: عدد التراب». ذكرهما الثعلبيّ. وفي الترمذيّ عن النبي ﷺ: «أَطَّت[2] السماءُ وحُقّ لها أن تَئِطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك واضع جبهته لله ساجداً».

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ يعني الدلائل والحجج والقرآن. وقيل: «وَمَا هِيَ» أي وما هذه النار التي هي سقر «إِلاَّ ذِكْرَى» أي عِظَةٌ «لِلْبَشَرِ» أي للخلق. وقيل: نارالدنيا تذكرة لنار الآخرة. قاله الزجاج. وقيل: أي ما هذه العِدّة «إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ» أي ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار؛ فالكناية على هذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾ ترجع إلى الجنود؛ لأنه أقرب مذكور.

[٣٢] ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾. [٣٣] ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾. [٣٥] ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾.

[٣٦] ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾. [٣٧] ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾. [٣٩] ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾. [٤١] ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾. [٤٣] ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾. [٤٥] ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾.

[٤٧] ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

[٤٨] ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

---

(١) كذا في الأصول. والصواب: إثنا عشر.

(٢) الأطيط: صوت الأقتاب (إكاف البعير). وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها. أي أن كثرة ما فيها من الملائكة قد ثقلها حتى أطت. وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثم أطيط. (النهاية).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ قال الفراء: «كَلَّا» صلة للقسم، التقدير أي والقمر. وقيل: المعنى حقاً والقمر؛ فلا يوقف على هذين التقديرين على «كَلَّا» وأجاز الطّبريّ الوقف عليها، وجعلها ردًّا للذين زعموا أنهم يقاومون خَزَنة جهنم؛ أي ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يقاوم خزنة النار. ثم أقسم على ذلك جلّ وعزّ بالقمر وبما بعده، فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ أي وَلَّى وكذلك «دَبَر». وقرأ نافع وحمزة وحفص «إِذْ أَدْبَرَ» الباقون «إِذَا» بألف و«دَبَر» بغير ألف وهما لغتان بمعنًى؛ يقال: دَبَر وأدبر، وكذلك قَبِل الليل وأقبل. وقد قالوا: أمس الدابر والمدبر؛ قال صخر بن عمرو بن الشَّريد السُّلَميّ:

وَلَقَدْ قَتَلْنَاكُمْ ثُنَاءَ وَمَوْحَداً ... وَتَرَكْتُ مُرَّةَ مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

ويروى المدبِر. وهذا قول الفراء والأخفش. وقال بعض أهل اللغة: دَبَر الليل: إذا مضى، وأدبر: أخذ في الإدبار. وقال مجاهد؛ سألت ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ﴾ فسكت حتى إذا دَبَر قال: يا مجاهد، هذا حين دَبَرَ الليلُ. وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع «واللَّيْلِ إذَا أَدْبَرَ» بألفين، وكذلك في مصحف عبد الله وَأُبَيّ بألفين. وقال قُطرب من قرأ «دَبَرَ» فيعني أقبل، من قول العرب دَبَر فلان: إذا جاء من خلفي. قال أبو عمرو: وهي لغة قريش. وقال ابن عباس في رواية عنه: الصواب: «أَدْبَرَ»، إنما يَدْبَر ظهرَ البعير. واختار أبو عُبيد: «إِذَا أَدْبَرَ» قال: لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه؛ ألا تراه يقول: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾، فكيف يكون أحدهما «إذ» والآخر «إذا»، وليس في القرآن قَسَم تعقبه «إذ» وإنما يتعقبه «إذا». ومعنى «أَسْفَرَ»: ضاء. وقراءة العامة «أَسْفَرَ» بالألف. وقرأ ابن السَّمَيْقع: «سَفَرَ». وهما لغتان. يقال: سَفَر وجهُ فلان وأسفر: إذا أضاء. وفي الحديث: «أسفِروا بالفجر، فإنه أعظم للأجر» أي صلّوا صلاة الصبح مُسْفِرين، ويقال: طَوِّلوها إلى الإسفار، والإسفار: الإنارة. وأسفر وجهه حسناً أي أشرق، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها فهي سافر. ويجوز أن يكون [من] سَفَر الظلامَ أي كنسه، كما يُسفَر البيت؛ أي يُكنَس؛ ومنه السَّفير: لما سقط من ورق الشجر وتَحاتَّ؛ يقال: إنما سمي سفيراً لأن الريح تَسفِره أي تكنُسه. والمِسْفَرة: المِكْنَسة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ جواب القسم؛ أي إن هذه النار «لإِحْدَى الْكُبَرِ» أي لإحدى الدواهي. وفي تفسير مقاتل «الْكُبَر»: اسم من أسماء النار. وروي عن ابن عباس «إِنَّهَا» أي إن تكذيبهم بمحمد ﷺ «لإِحْدَى الْكُبَرِ» أي لكبيرة من الكبائر. وقيل: أي إن قيام الساعة لإحدى الكُبَر. والكُبَر: هي العظائم من العقوبات؛ قال الراجز:

يا بن المُعَلَّى نَزَلتْ إحدى الكُبَرْ داهيةُ الدهر وصَمَّاءُ الغِيَرْ

وواحدة «الكُبَر»، كَبرى مثل الصُّغرى والصُّغَر، والعُظْمى والعُظَم. وقرأ العامة «لإِحْدَى» وهو اسم بني ابتداء للتأنيث، وليس مبنيًا على المذكر؛ نحو عُقْبَى وأخرى، وألفه ألف قطع، لا تذهب في الوصل. وروى جرير بن حازم عن ابن كثير «إِنَّهَا لَحْدَى الكُبَر» بحذف الهمزة. ﴿نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾ يريد النار؛ أي إن هذه النار الموصوفة «نَذِيراً لِلْبَشَر» فهو نصب على الحال من المضمر في «إِنَّهَا» قاله الزجاج. وذُكِّر؛ لأن معناه معنى العذاب، أو أراد ذات إنذار على معنى النَّسب؛ كقولهم: امرأة طالق وطاهر. وقال الخليل: النذير: مصدر كالنكير، ولذلك يوصف به المؤنث. وقال الحسن: والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى منها. وقيل: المراد بالنذير محمد ﷺ؛ أي قم نذيراً للبشر، أي مُخَوِّفاً لهم فـ «ـنَذِيراً» حال من «قُمْ» في أوّل السورة حين قال: «قُمْ فَأَنْذِرْ» قال أبو علي الفارسيّ وابن زيد، وروي عن ابن عباس وأنكره الفراء. ابن الأنباري: وقال بعض المفسرين معناه «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ قُمْ نَذِيراً لِلْبَشَرِ». وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما. وقيل: هو من صفة الله تعالى. روى أبو معاوية الضرير: حدّثنا إسمعيل بن سميع عن أبي رَزين «نَذِيراً لِلْبَشَرِ» قال: يقول الله عزّ وجلّ: أنا لكم منها نذير فاتقوها. و «نَذِيراً» على هذا نصب على الحال؛ أي «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً» منذراً بذلك البشر. وقيل: هو حال من «هو» في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ﴾. وقيل: هو في موضع المصدر، كأنه قال: إنذاراً للبشر. قال الفراء: يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار، أي أنذر إنذاراً؛ فهو كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرِ﴾ أي إنذاري؛ فعلى هذا يكون راجعاً إلى

أوّل السورة؛ أي «قُمْ فَأَنْذِرْ» أي إنذاراً. وقيل: هو منصوب بإضمار فعل. وقرأ ٱبن أبي عَبْلة «نَذِيرٌ» بالرفع، على إضمار هو. وقيل: أي إن القرآن نذير للبشر، لما تضمنه من الوعد والوعيد.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ اللام متعلقة بـ «نذيراً»، أي نذيراً لمن شاء منكم أن يتقدّم إلى الخير والطاعة، أو يتأخر إلى الشر والمعصية؛ نظيره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ أي في الخير ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ عنه. قال الحسن: هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. وقال بعض أهل التأويل: معناه لمن شاء الله أن يتقدّم أو يتأخر؛ فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه، والتقديم الإيمان، والتأخير الكفر. وكان ٱبن عباس يقول: هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزيَ بثواب لا ينقطع، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمداً ﷺ عوقب عقاباً لا ينقطع. وقال السّدي: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ إلى النار المتقدم ذكرها، ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنها إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلّصها وإما أوبقها. وليست «رَهِينَةٌ» تأنيث رهين في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفة لقيل رهين؛ لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث. وإنما هو اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم؛ كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهين؛ ومنه بيت الحماسة:

أبَعْدَ الذي بالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكَبٍ رهِينَةُ رَمْسٍ ذِي تُرابٍ وجَنْدَلِ(١)

كأنه قال رَهْن رمسٍ. والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم لا يُرْتهنون بذنوبهم. وٱختلف في تعيينهم؛ فقال ٱبن عباس: الملائكة.

---

(١) النعف من الأرض: المكان المرتفع في ٱعتراض. والبيت من قول عبد الرحمن بن زيد العذري وقد قتل أخوه وعرضت عليه الدية، فأبى أن يأخذها، وأخذ بثأره.

علي بن أبي طالب: أولاد المسلمين لم يكتسبوا فيُرتهنوا بكسبهم. الضحاك: الذين سبقت لهم من الله الحسنى، ونحوه عن ابن جريج؛ قال: كل نفس بعملها محاسبة «إلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ» وهم أهل الجنة، فإنهم لا يحاسبون. وكذا قال مقاتل أيضاً: هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي. وقال الحسن وابن كَيْسان: هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين؛ لأنهم أدّوا ما كان عليهم. وعن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: هم المسلمون. وقيل: إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان. وقيل: هم الذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم. وقال أبو جعفر الباقر: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين، وكل من أبغضنا أهلَ البيت فهم المرتهنون. وقال الحكم: هم الذين اختارهم الله لخدمته، فلم يدخلوا في الرهن، لأنهم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم. وقال القاسم: كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر، إلا من اعتمد على الفضل والرحمة، دون الكسب والخدمة، فكل من اعتمد على الكسب فهو مرهون، وكل من اعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ به. ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي في بساتين ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي يسألون ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي المشركين ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أي أدخلكم ﴿فِي سَقَرَ﴾ كما تقول: سلكت الخيط في كذا أي أدخلته فيه. قال الكلبيّ: فيَسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه، فيقول له: يا فلان. وفي قراءة عبد الله بن الزبير «يا فلانُ ما سَلَكَكَ فِي سَقَرَ»؟ وعنه قال: قرأ عمر بن الخطاب «يا فلانُ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ» وهي قراءة على التفسير، لا أنها قرآن كما زعم من طعن في القرآن؛ قاله أبو بكر بن الأنباري. وقيل: إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم، فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم: «مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ». قال الفراء: في هذا ما يقوي أن أصحاب الْيَمِينِ الوِلدان؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب. ﴿قَالُوا﴾ يعني أهل النار ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أي المؤمنين الذين يصلون. ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أي لم نك نتصدق. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم. وقال ابن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ، وهو قولهم ـ لعنهم الله ـ كاهن، مجنون، شاعر، ساحر.

وقال السُّدِّي: أي وكنا نكذّب مع المكذّبين. وقال قتادة: كلما غَوَى غاوٍ غَوَينا معه. وقيل معناه: وكنا أتباعاً ولم نكن متبوعين. ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي لم نك نصدّق بيوم القيامة، يوم الجزاء والحكم. قوله تعالى: ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ أي جاءنا ونزل بنا الموت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ هذا دليل على صحة الشفاعة للمذنبين؛ وذلك أنّ قوماً من أهل التوحيد عُذّبوا بذنوبهم، ثم شُفِعَ فيهم، فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة، فأخرجوا من النار، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: يشفع نبيكم ﷺ رابع أربعة: جبريل، ثم إبراهيم، ثم موسى أو عيسى[٢]، ثم نبيكم ﷺ، ثم الملائكة، ثم النبيون، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ويبقى قوم في جهنم، فيقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ قال عبد الله بن مسعود: فهؤلاء هم الذين يبقَون في جهنم؛ وقد ذكرنا إسناده في كتاب «التذكرة».

[٤٩] ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

[٥٠] ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

[٥١] ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

[٥٢] ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾.

[٥٣] ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي فما لأهل مكة قد أعرضوا وولّوا عما جِئتم به. وفي تفسير مقاتل: الإعراض عن القرآن من وجهين: **أحدهما**: الجحود والإنكار، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه. و «مُعْرِضِينَ» نصب على الحال من الهاء والميم في «لَهُمْ» وفي اللام معنى الفعل؛ فانتصاب الحال على معنى الفعل. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار في فرارهم من محمد ﷺ ﴿حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ قال ابن عباس: أراد الحمر الوحشية.

---

(١) راجع ١٠/ ٦٤.

(٢) في ح، ل: «وعيسى».

وقرأ نافع وٱبن عامر بفتح الفاء، أي مُنَفَّرة مذعورة؛ وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم. الباقون بالكسر، أي نافرة. يقال: نَفَرت وٱسْتَنفرت بمعنًى؛ مثل عَجِبت وٱسْتَعجبت، وسَخِرت وٱسْتَسخرت، وأنشد الفراء:

أَمْسِكْ حِمَارَكَ إنّه مُسْتَنْفِرٌ ... في إثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ[1]

قوله تعالى[2]: ﴿فَرَّتْ﴾ أي نفرت وهربت ﴿مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي من رُماة يرمونها. وقال بعض أهل اللغة: إن القسورة الرامي، وجمعه القَسْورة. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وٱبن كَيْسان: القَسْورة: هم الرّماة والصيادون، ورواه عطاء عن ٱبن عباس وأبو [ظَبيان][3] عن أبي موسى الأشعري. وقيل: إنه الأسد؛ قاله أبو هريرة وٱبن عباس أيضاً. ٱبن عرفة: من القَسْر بمعنى القَهْر أي؛ إنه يقهر السباع، والحمر الوحشية تهرب من السباع. وروى أبو جمرة عن ٱبن عباس قال: ما أعلم القسورةَ الأسَد في لغة أحد من العرب، ولكنها عُصَب الرجال؛ قال: فالقسورة جمع الرجال، وأنشد:

يا بنتُ كُوني خَيْرةً لخَيِّره ... أخوالُها الجنّ وأهلُ القَسْوَرَهْ

وعنه: رِكْز الناس أي حسّهم وأصواتهم. وعنه أيضاً: « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أي من حبال الصيادين. وعنه أيضاً: القسورة بلسان العرب: الأسد، وبلسان الحبشة: الرماة؛ وبلسان فارس: شير، وبلسان النَّبَط: أريا. وقال ٱبن الأعرابي: القسورة: أوّلُ الليل؛ أي فرّت من ظلمة الليل. وقاله عِكرمة أيضاً. وقيل: هو أوّل سواد الليل، ولا يقال لآخر سواد الليل قَسْورة. وقال زيد بن أسلم: من رجال أقوياء، وكل شديد عند العرب فهو قسورة وقَسْور. وقال لبيد بن ربيعة:

إذا ما هَتفْنا هَتفةً في نَدِيِّنا ... أتانا الرجالُ العائدون القَسَاوِر

---

(١) غرب (كسكر): ٱسم موضع وجبل دون الشام في بلاد بني كلاب.

(٢) جملة «قوله تعالى»، وكلمة «هربت» ساقطتان من أ، ح.

(٣) في الأصول: «أبو حيان» وهو تحريف. والتصحيح من تفسير الثعلبي «والتهذيب».

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ أي يعطى كتباً مفتوحة؛ وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد! ٱيتنا بكتب من ربّ العالمين مكتوب فيها: إني قد أرسلتُ إليكم محمداً، ﷺ. نظيره: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾. وقال ٱبن عباس: كانوا يقولون إن كان محمد صادقاً فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. قال مطر الورّاق: أرادوا أن يُعطَوا بغير عمل. وقال الكلبيّ: قال المشركون: بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوباً ذنبه وكفارته، فأتنا بمثل ذلك. وقال مجاهد: أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عزّ وجلّ: إلى فلان بن فلان. وقيل: المعنى أن يذكر بذكر جميل، فجعلت الصحف موضع الذكر مجازاً، وقالوا: إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالنا لا نرى ذلك؟ ﴿كَلَّا﴾ أي ليس يكون ذلك. وقيل: حقًّا. والأوّل أجود؛ لأنه رد لقولهم. ﴿بَلْ لاَ يَخَافُونَ ٱلآخِرَةَ﴾ أي لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة، ٱغتراراً بالدنيا. وقرأ سعيد بن جبير «صُحْفاً مُنْشَرَةً» بسكون الحاء والنون، فأما تسكين الحاء فتخفيف، وأما النون فشاذ. إنما يقال: نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت. ويجوز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيها، فإذا نشرت حييت، فجاء على أنشر الله الميت كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب، فقيل فيه نشر الله الميت، فهي لغة فيه.

[٥٤] ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾.

[٥٥] ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

[٥٦] ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي حقًّا إن القرآن عظة. ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي ٱتعظ به. ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ ﴾ أي وما يتعظون ﴿ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي ليس يقدرون على الاتعاظ والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم. وقراءة العامّة « يَذْكُرُونَ » بالياء وٱختاره أبو عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ لاَ يَخَافُونَ ٱلآخِرَةَ ﴾. وقرأ نافع ويعقوب بالتاء، وٱختاره أبو حاتم، لأنه أعمّ وٱتفقوا على تخفيفها. ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ في الترمذيّ وسنن ٱبن ماجه عن

أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قال: «قال الله تبارك وتعالى أنا أهل أن أُتّقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهلٌ أن أغفر له» لفظ الترمذي، وقال فيه: حديث حسن غريب. وفي بعض التفسير: هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضاً للذنوب الصغار، باجتناب الذنوب الكبار. وقال محمد بن نصر: أنا أهلٌ أن يتقيني عبدي، فإن لم يفعل كنت أهلاً أن أغفر له [وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم][١].

سورة القِيامة

مَكِّيَّةٌ، وهي تسع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾.

[٣] ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

[٤] ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

[٥] ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾.

[٦] ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قيل: إن «لا» صلة، وجاز وقوعها في أوّل السورة؛ لأن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[٢] وجوابه في سورة أخرى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[٣] ومعنى الكلام: أقسم بيوم القيامة؛ قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة؛ ومثله قول الشاعر:

تذكَّرتُ لَيْلَى فاعترتني صَبَابَةٌ فكـاد صَمِيـمُ القلـبِ لا يَتَقَطَّـعُ

(١) ما بين المربعين زيادة من ط. (٢) سورة الحجر ١٠/ ٤.
(٣) سورة القلم ١٨/ ٢٥٣.

وحكى أبو الليث السّمرقنديّ: أجمع المفسرون أن معنى «لاَ أُقْسِمُ»: أقسم وٱختلفوا في تفسير «لا» قال بعضهم: «لا» زيادة في الكلام للزينة، ويجري في كلام العرب زيادة «لا» كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ ما مَنَعَكَ أَنْ لاَ تَسْجُدَ﴾ يعني أن تسجد، وقال بعضهم: «لا»: ردٌّ لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم.

قلت: وهذا قول الفرّاء؛ قال الفرّاء: وكثير من النحويين يقولون «لا» صلة، ولا يجوز أن يُبدأ بجحد ثم يُجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار، فجاء الإقسام بالردّ عليهم [في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ][1] وذلك كقولهم لا والله لا أفعل فـ «لا» ردٌّ لكلام قد مضى، وذلك كقولك: لا والله إن القيامة لحقّ، كأنك أكذبت قوماً أنكروه. وأنشد غير الفرّاء لامرىء القيس:

فـلا وأبيـكِ ٱبنـةَ العـامِـرِيِّ لا يَـدَّعِـي القـومُ أَنّـي أَفِـرّ

وقال غُوَيَّة بن سلمى:

ألا نـادتْ أمـامـة بـٱحتمـال لِتحـزُنِني فـلا بِكِ مـا أبـالِي

وفائدتها توكيد القسم في الردّ. قال الفرّاء: وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ «لأُقسِمُ» بغير ألف؛ كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم، وهو صواب؛ لأن العرب تقول: لأقسم بالله وهي قراءة الحسن وٱبن كثير والزهريّ وٱبن هُرْمز ﴿بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي بيوم يقوم الناس فيه لربّهم، ولله عزّوجلّ أن يقسم بما شاء. ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ لا خلاف في هذا بين القراء، وهو أنه أقسم سبحانه بيوم القيامة تعظيماً لشأنه [ولم يقسم بالنفس][2]. وعلى قراءة ٱبن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية. وقيل: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ ردّ آخر وٱبتداء قسم بالنفس اللوامة. قال الثعلبيّ: والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً. ومعنى: ﴿بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردتُ بكذا؟ فلا تراه

(١) الزيادة من تفسير الفراء. (٢) الزيادة من تفسير ٱبن عطية وغيره.

إلا وهو يعاتب نفسه؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، ما يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلامي؟ ما أردتُ بأكلي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لِم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه. وقيل: إنها ذات اللوم. وقيل: إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوّامة بمعنى اللائمة، وهو صفة مدح؛ وعلى هذا يجيء القسم بها سائغاً حسناً. وفي بعض التفسير: إنه آدم عليه السلام لم يزل لائماً لنفسه على معصيته التي أُخرج بها من الجنة. وقيل: اللوّامة بمعنى الملُومة المذمومة ـ عن ٱبن عباس أيضاً ـ فهي صفة ذمّ وهو قول من نفى أن يكون قسماً؛ إذ ليس للعاصي خَطَر يُقْسَم به، فهي كثيرة اللوم. وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه، ويتحسّر في الآخرة على ما فرّط في جنب الله. وقال الفراء: ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهي تلوم نفسها؛ فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان ٱزداد إحساناً، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون ٱرعوى عن إساءته.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ فنعيدها خلقاً جديداً بعد أن صارت رُفاتاً. قال الزجاج: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة: ليجمعن العظام للبعث، فهذا جواب القسم. وقال النحاس: جواب القسم محذوف أي لتبعثنّ؛ ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ للإحياء والبعث. والإنسان هنا الكافر المكذّب للبعث. الآية نزلت في عديّ بن ربيعة قال للنبي ﷺ: حدّثني عن يوم القيامة متى تكون، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ بذلك؛ فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به، أَوَيجمع الله العظام؟! ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «اللهمّ ٱكفني جارَي السُّوءِ عديَّ بن ربيعة، والأخنَس بن شَرِيق». وقيل: نزلت في عدوّ الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت. وذكر العظام والمراد نفسه كلها؛ لأن العظام قالَب الخَلْق. ﴿بَلَى﴾ وقف حسن ثم تبتدىء ﴿قَادِرِينَ﴾. قال سيبويه: على معنى نجمعها قادرين، فـ «قادِرِين» حال من الفاعل المضمر في الفعل المحذوف على ما ذكرناه

من التقدير. وقيل: المعنى بلى نقدر قادرين. قال الفراء: «قَادِرِينَ» نصب على الخروج من «نَجْمَع» أي نقدر ونقوى «قَادِرِينَ» على أكثر من ذلك. وقال أيضاً: يصلح نصبه على التكرير أي «بَلَى» فليحسبنا قادرين. وقيل: المضمر (كنا) أي كنا قادرين في الابتداء، وقد أعترف به المشركون. وقرأ ابن أبي عَبْلة وابن السَّمَيْقَع «بَلَى قَادِرُونَ» بتأويل نحن قادرون. ﴿عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ البنان عند العرب: الأصابع، واحدها بنانة؛ قال النابغة:

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكادُ مِن اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ[1]

وقال عنترة: :

وأنَّ الموتَ طَوْعَ يدِي إذا ما وَصَلْتُ بَنَانَهَا بِالهِنْدُوَانِيْ

فنبّه بالبنان على بقية الأعضاء. وأيضاً فإنها أصغر العظام، فخصّها بالذكر لذلك. قال القتبيّ والزجاج: وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام؛ فقال الله تعالى: بلى قادرين على أن نعيد السُّلاَميّات على صغرها، ونؤلف بينها حتى تستوي، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر. وقال ابن عباس وعامة المفسرين: المعنى ﴿عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخفّ البعير، أو كحافر الحمار، أو كظلف الخنزير، ولا يمكنه أن يعمل به شيئاً، ولكنا فرّقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء. وكان الحسن يقول: جعل لك أصابع فأنت تبسطهنّ، وتقبضهن بهنّ، ولو شاء الله لجمعهنّ فلم تتق الأرض إلا بكفيك. وقيل: أي نقدر أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

قلت: والتأويل الأوّل أشبه بمساق الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ قال ابن عباس: يعني الكافر يكذّب بما أمامه من البعث والحساب. وقاله عبد الرحمن بن زيد؛ ودليله: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾

---

(١) رواية الشطر الأخير كما في «اللسان»:

عنم على أغصانه لم يعقد

والعنم: شجر لين الأغصان لطيفها، يشبه به البنان.

أي يسأل متى يكون! على وجه الإنكار والتكذيب. فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم لما بين يديه. ومما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره القُتَبِيّ وغيره: أن أعرابيًّا قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكا إليه نَقْب إبله[1] ودَبَرها، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله؛ فقال الأعرابيّ:

أَقسـمَ بِـاللّـهِ أبـو حفـصٍ عُمَـرْ ... مـا مَسَّهـا مِـن نَقَـبٍ ولا دَبَـرْ

فٱغفر له اللّهمّ إنْ كان فَجَرْ

يعني إن كان كذّبني فيما ذكرت. وعن ٱبن عباس أيضاً؛ يعجِّل المعصية ويسوِّف التوبة. وفي بعض الحديث قال: يقول سوف أتوب ولا يتوب؛ فهو قد أخلف فكذب. وهذا قول مجاهد والحسن وعِكرمة والسّديّ وسعيد بن جبير، يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على أشرّ أحواله. وقال الضحاك: هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت. وقيل: أي يعزم على المعصية أبداً وإن كان لا يعيش إلا مدّة قليلة. فالهاء على هذه الأقوال للإنسان. وقيل: الهاء ليوم القيامة. والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة. والفجور أصله الميل عن الحقّ. ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي متى يوم القيامة.

[٧] ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾.

[٩] ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾. [١٣] ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ قرأ نافع وأبان عن عاصم «بَرَقَ» بفتح الراء، معناه: لمع بصره من شدّة شخوصه، فتراه لا يَطرِف. قال مجاهد وغيره: هذا عند الموت. وقال الحسن:

(١) النقب: قرحة تخرج في الجنب. والجرب والدبر: قرحة الدابة والبعير.

هذا يوم القيامة. وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة «إِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ». والباقون بالكسر «بَرِق» ومعناه: تحيّر فلم يَطرِف؛ قاله أبو عمرو والزجاج وغيرهما. قال ذو الرمّة:

ولو أنّ لُقْمَانَ الحكيم تَعَرَّضَتْ لِعينيهِ مَيٌّ سافِراً كاد يَبْرَقُ

الفرّاء والخليل: «برِقَ» بالكسر: فَزِع وبُهِت وتَحيَّر[1]. والعرب تقول للإنسان المتحيِّر المبهوت: قد بَرِق فهو برِقٌ؛ وأنشد الفرّاء:

فنَفْسَكَ فَانْعَ ولا تَنْعَنِي وداوِ الكُلُومَ ولا تَبْرِقِ[2]

أي لا تَفزَع من كثرة الكُلوم التي بك. وقيل: بَرَقَ يَبرُق بالفتح: شقّ عينيه وفتحهما. قاله أبو عبيدة: وأنشد قول الكلابيّ:

لما أتانِي ابنُ عُمَيرٍ راغِباً أعطيتُه عِيساً صِهاباً فبَرَقَ[3]

أي فتح عينيه. وقيل: إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنًى.

قوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوءه. والخسوف في الدنيا إلى انجلاء، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوءه. ويحتمل أن يكون بمعنى غاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعرج: «وَخُسِفَ الْقَمَرُ» بضم الخاء وكسر السين يدل عليه ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾. وقال أبو حاتم محمد بن إدريس: إذا ذهب بعضه فهو الكسوف، وإذا ذهب كله فهو الخسوف. ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي جمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه؛ قاله الفراء والزجاج. قال الفراء: ولم يقل جمعت؛ لأن المعنى جمع بينهما. وقال أبو عبيدة: هو على تغليب المذكر. وقال الكسائيّ: هو محمول على المعنى، كأنه قال الضوءان. المبرد: التأنيث

(١) كلمة «تحير» ساقطة من الأصل المطبوع.
(٢) قائله: طرفة.
(٣) في غير القرطبي: لما أتاني ابن صبيح. والعيس الصهاب هي الإبل التي خالط بياضها حمرة، وهي تعد عند العرب من أشرفها.

غير حقيقي. وقال ابن عباس وابن مسعود: جمع بينهما أي قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مُكوَّرين مظلمين مُقرَنَين كأنهما ثوران عَقيران. وقد مضى الحديث بهذا المعنى في آخر سورة «الأنعام»(١). وفي قراءة عبد الله «وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ» وقال عطاء بن يسار: يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر، فيكونان نار الله الكبرى. وقال علي وابن عباس: يجعلان في [نور](٢) الحجب. وقد يجمعان في نار جهنم؛ لأنهما قد عبِدَا من دون الله ولا تكون النار عذاباً لهما لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم. وفي مسند أبي داود الطيالسيّ، عن يزيد الرقاشيّ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر ثوران عَقيران في النار» وقيل: هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويقربان من الناس، فيلحقهم العرق لشدّة الحر؛ فكأن المعنى يجمع حرهما عليهم. وقيل: يجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثَمَّ تعاقب ليل ولا نهار.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾؟ أي يقول ابن آدم، ويقال: أبو جهل؛ أي أين المهرب؟ قال الشاعر:

أيـن المفـرُّ والكِبـاشُ تَنتطِـحْ وأيُّ كَبْشٍ حـاد عنهـا يَفْتَضِـحْ

الماورديّ: ويحتمل وجهين: **أحدهما**: «أَيْنَ الْمَفَرُّ» من الله ٱستحياء منه. **والثاني**: «أَيْنَ الْمَفَرُّ» من جهنم حذراً منها. ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين: **أحدهما** ـ أن يكون من الكافر خاصة في عَرْضة القيامة دون المؤمن؛ لثقة المؤمن ببشرى ربه. **الثاني** ـ أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها. وقراءة العامة «الْمَفَرُّ» بفتح الفاء وٱختاره أبو عبيدة وأبو حاتم؛ لأنه مصدر. وقرأ ابن عباس ومجاهدوالحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم؛ قال الكسائي: هما لغتان مثل مَدَبّ ومَدِبّ، ومَصَحّ ومَصِحّ. وعن الزهريّ بكسر الميم وفتح الفاء. المهدويّ: من فتح الميم والفاء من «المفر» فهو مصدر

(١) راجع ١٤٦/٧. (٢) الزيادة من كتب التفسير.

بمعنى الفرار، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذي يفرّ إليه. ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيّد الفرار؛ فالمعنى أين الإنسان الجيّد الفرار ولن ينجو مع ذلك.

قلت: ومنه قول امرىء القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً[١]

يريد أنه حسن الكرّ والفرّ جيّده. ﴿كَلَّا﴾ أي لا مفرّ فـ «كَلَّا» ردٌّ وهو من قول الله تعالى، ثم فسر هذا الردّ فقال: ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي لا ملجأ من النار. وكان ابن مسعود يقول: لا حِصن. وكان الحسن يقول: لا جبل. وابن عباس يقول: لا ملجأ. وابن جُبير: لا محيص ولا منعة. المعنى في ذلك كله واحد. والوَزَر في اللغة: ما يلجأ إليه من حِصن أو جبل أو غيرهما؛ قال الشاعر:

لَعَمْرِيَ ما لِلفتى مِن وَزَرْ   مِنَ الموتِ يُدْرِكُه والكِبَرْ

قال السديّ: كانوا في الدنيا إذا فزِعوا تحصّنوا في الجبال، فقال الله لهم: لاَ وَزَرَ يعصمكم يومئذٍ منّي؛ قال طرفة:

وَلَقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أَنَّنا   فاضِلُو الرَّأْيِ وفِي الرَّوْعِ وَزَرْ

أي ملجأ للخائف. ويروى: وَقُرْ. ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أي المنتَهى؛ قاله قتادة. نظيره: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾. وقال ابن مسعود: إلى ربك المصير والمرجع. قيل: أي المستقرّ في الآخرة حيث يقرّه الله تعالى؛ إذ هو الحاكم بينهم. وقيل: إن «كَلَّا» من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس له مفرّ قال لنفسه: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ﴾ أي يخبر ابن آدم برّا كان أو فاجراً ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾: أي بما أسلف من عمل سَيِّء أو صالح، أو أخّر من سنّة سيّئة أو صالحة يُعْمَل بها بعده؛ قاله ابن عباس وابن مسعود. وروى منصور عن مجاهد قال: ينبّأ بأوّل عمله وآخره. وقاله النخَعيّ. وقال ابن عباس أيضاً؛ أي بما قدّم من المعصية، وأخّر من الطاعة. وهو قول قتادة.

---

(١) تمام البيت:

كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقال ٱبن زيد: «بِمَا قَدَّمَ» من أمواله لنفسه «وَأَخَّرَ»: خلّف للورثة. وقال الضحاك: ينبأ بما قدّم من فرض، وأخّر من فرض. قال القشيريّ: وهذا الإنباء يكون في القيامة عند وزن الأعمال. ويجوز أن يكون عند الموت.

قلت: والأوّل أظهر؛ لما خرجه ٱبن ماجه في سننه من حديث الزهريّ، حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مما يَلْحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته عِلماً علّمه ونَشَره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته» وخرجه أبو نعَيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «سبع يجري أجرهنّ للعبد بعد موته وهو في قبره: من علّم علماً أو أجرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً أو وَرَّثَ مصحفاً أوترك ولداً يستغفر له بعد موته» فقوله: «بعد موته وهو في قبره» نصًّ على أن ذلك لا يكون عند الموت، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله، وإن كان يبشَّر بذلك في قبره. ودل على هذا أيضاً قوله الحقّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ[1] أَثْقَالِهِم﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلّونَهُمْ بِغَيْرِ[2] عِلْمٍ﴾ وهذا لا يكون إلا في الآخرة بعد وزن الأعمال. والله أعلم.

وفي الصحيح: «من سنّ في الإسلام سنّة حسنةً كان له أجرها وأجر من عمِل بها بعده، من غير أن يُنقَص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

[١٤] ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ قال الأخفش: جعله هو البصيرة، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك. وقال ٱبن عباس: «بَصِيرَةٌ» أي شاهد، وهو شهود جوارحه

---

(١) راجع ١٣/ ٣٣٠. (٢) راجع ١٠/ ٩٦.

عليه: يداه بما بطش بهما، ورجلاه بما مشى عليهما، وعيناه بما أبصر بهما. والبصيرة: الشاهد. وأنشد الفرّاء:

كأنّ على ذي العقلِ عَيْناً بصيرةً ... بِمَقْعَـدِهِ أو مَنْظَـرٍ هـو نـاظِـرُهُ
يُحاذِرُ حتى يَحسِبَ الناسَ كلَّهمْ ... من الخوفِ لا تَخْفَى عليهم سَرائِرُهُ

ودليل هذا التأويل من التنزيل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]. وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان ها هنا الجوارح، لأنها شاهدة على نفس الإنسان؛ فكأنه قال: بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة؛ قال معناه القتبيّ وغيره. وناس يقولون: هذه الهاء في قوله: «بَصِيرَةٌ» هي التي يسمّيها أهل الإعراب هاء المبالغة، كالهاء في قولهم: داهِية وعلاّمة وراوية. وهو قول أبي عُبيد. وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شر؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ فيمن جعل المعاذير السُّتور. وهو قول السّديّ والضحاك. وقال بعض أهل التفسير: المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة؛ أي شاهد فحذف حرف الجر. ويجوز أن يكون «بصيرة» نعتاً لاسم مؤنث فيكون تقديره: بل الإنسان على نفسه عين بصيرة؛ وأنشد الفراء:

كأن على ذِي العقلِ عيناً بصيرةً

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ يعني بصير بعيوب غيره، جاهل بعيوب نفسه. ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ أي ولو أرْخى سُتوره. والسِّتر بلغة أهل اليمن: مِعذار؛ قاله الضحاك. وقال الشاعر:

ولكنهـا ضَنَّـتْ بِمنـزِلِ سـاعـةٍ ... علينـا وأَطَّـتْ فَـوْقَهَـا بـالْمَعَـاذِرِ

قال الزجاج: المعاذِر: السُّتور، والواحد مِعذار؛ أي وإن أرخى ستره؛ يريد أن يخفي عمله، فنفسه شاهدة عليه. وقيل: أي ولو اعتذر فقال لم أفعل شيئاً، لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه، فهو وإن اعتذر وجادل عن نفسه، فعليه شاهد يكذّب

---

(١) راجع ١٢/ ٢١٠.

عذره؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفرّاء والسّديّ أيضاً ومقاتل. قال مقاتل: أي لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك. نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فالمعاذير على هذا: مأخوذ من العذر؛ قال الشاعر:

وإياكَ والأمرَ الذي إنْ تَوسَّعَتْ مَوَارِدُهُ ضاقتْ عليكَ المصادِرُ
فما حَسنٌ أن يَعْذِرَ المرءُ نفسَهُ وليس له مِن سائِرِ الناسِ عاذر

وٱعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخَعيّ فقال له: قد عذرتك غير مُعتذِر، إن المعاذِير يَشُوبها الكذب. وقال ٱبن عباس: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ أي لو تجرّد من ثيابه. حكاه الماورديّ.

قلت: والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب؛ ومنه قول النابغة:

ها إنَّ ذي عِذْرَةٌ إلاَّ تكنْ نَفَعتْ فإنّ صاحِبَها مُشَارِكُ النَّكَدِ

والدليل على هذا قوله تعالى في الكفار: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا[1] مُشْرِكِينَ﴾، وقوله تعالى في المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[2]. وفي الصحيح أنه يقول: «يا ربِّ آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك، وصليت وصمتُ وتصدّقتُ، ويُثني بخير ما ٱستطاع» الحديث. وقد تقدم في «حمّ السجدة»[3] وغيرها. والمعاذير والمعاذِر: جمع مَعْذرة؛ ويقال: عَذَرته فيما صنع أعذِره عُذْراً وعُذُراً، والاسم المَعْذِرة والعُذْرى؛ قال الشاعر[4]:

إنِّي حُدِدْتُ ولا عُذْرَى لمَحْدُودِ

(١) راجع ٦/٤٠١.
(٢) راجع ١٧/٢٨٩.
(٣) راجع ١٥/٣٥ ففيه معنى ما أشار إليه القرطبي وأما الحديث فقد أورده في سورة الأنعام ٦/٤٠٢.
(٤) قائله الجموح الظفري. وقيل: هو راشد بن عبد ربه. وعذرى مقصور. وفي «اللسان»: صواب إنشاده؛ لولا حددت. على إرادة أن تقديره: لولا أن حددت لأن لولا التي معناها ٱمتناع الشيء لوجود غيره هي مخصوصة بالأسماء وقد تقع بعدها الأفعال على تقدير أن.

وكذلك العِذْرة وهي مثل الرِّكْبَة والجِلْسَة؛ قال النابغة:

ها إنّ تا عِذرَةٌ إلاّ تكُنْ نَفَعتْ فإنّ صاحِبَها قَدْ تاه في البَلَدِ[١]

وتضمّنت هذه الآية خمس مسائل:

الأولى ـ قال القاضي أبو بكر بن العربيّ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾: فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه؛ لأنها بشهادة منه عليها؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا خلاف فيه؛ لأنه إخبار على وجه تنتفي التهمة عنه؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه، وهي المسألة:

الثانية ـ وقد قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢] ثم قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾[٣] وهو في الآثار كثير؛ قال النبي ﷺ: «ٱغْدُ يا أُنَيس على ٱمرأة هذا، فإنْ ٱعترفت فٱرجمها». فأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دين فقال مالك: الأمر المجتمع عليه عندنا في الرجل يهلك وله بنون، فيقول أحدهم: إن أبي قد أقرّ أن فلاناً ٱبنه، أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد، ولا يجوز إقرار الذي أقرّ إلا على نفسه في حصته من مال إبيه، يعطي الذي شهد له قدر الدين[٤] الذي يصيبه من المال الذي في يده. قال مالك: وتفسير ذلك أن يهلك الرجل ويترك ٱبنين ويترك ستمائة دينار، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقر أن فلاناً ٱبنه، فيكون على الذي شهد للذي ٱستحق مائة دينار، وذلك نصف ميراث المستلحَق لو لحق، وإن أقرّ له الآخر أخذ المائة الأخرى فٱستكمل حقّه وثبت نسبه. وهو أيضاً بمنزلة المرأة تقر بالدين على أبيها أو على زوجها

---

(١) تقدّم البيت برواية ها إن ذي ـ مشارك الكمد. وهما روايتان.

(٢) راجع ٤/ ١٢٤. (٣) راجع ٨/ ٢٤٠.

(٤) كلمة «الدين» ساقطة من ز، ط، ل، المتطوع.

وينكر ذلك الورثة، فعليها أن تدفع إلى الذي أقرت له قدر الذي يصيبها من ذلك الدين لو ثبت على الورثة كلهم، إن كانت ٱمرأة فورثت الثُّمن دفعت إلى الغريم ثمن دينه، وإن كانت ٱبنة ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه، على حساب هذا يدفع إليه من أقرّ له من النساء.

الثالثة ـ لا يصح الإقرار إلا من مكلَّف، لكن بشرط ألا يكون محجوراً عليه؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحقّ نفسه، فإن كان لحقّ غيره كالمريض كان منه ساقط، ومنه جائز. وبيانه في مسائل الفقه. وللعبد حالتان في الإقرار: **إحداهما**: في ابتدائه، ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم. **والثانية**: في ٱنتهائه، وذلك مثل إبهام الإقرار، وله صور كثيرة وأمهاتها ستّ: **الصورة الأولى** ـ أن يقول له عندي شيء، قال الشافعي: لو فَسّره بتمرة أو كِسرة قُبل منه. والذي تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قَدر، فإذا فسره به قُبل منه وحلف عليه. **الصورة الثانية** ـ أن يفسِّر هذا بخمر أو خنزير أو ما لا يكون مالاً في الشريعة: لم يُقْبل بٱتفاق ولو ساعده عليه المقرّ له. **الصورة الثالثة** ـ أن يفسّره بمختلَف فيه مثل جلد الميتة أو سِرْقين أو كلب، [فإن الحاكم يحكم عليه في ذلك بما يراه من ردّ وإمضاء][1] فإن ردّه لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشيء، لأن الحكم قد نفذ بإبطاله. وقال بعض أصحاب الشافعي: يلزم الخمر والخنزير؛ وهو قول باطل. وقال أبو حنيفة: إذا قال له عليّ شيءٌ لم يقبل تفسيره إلا بِمَكيل أو موزون، لأنه لا يثبت في الذمة بنفسه إلا هما. وهذا ضعيف؛ فإن غيرهما يثبت في الذمة إذا وجب ذلك إجماعاً. **الصورة الرابعة** ـ إذا قال له: عندي مالٌ قُبِلَ تفسيره بما لا يكون مالاً في العادة كالدرهم والدرهمين، ما لم يجىء من قرينة الحال ما يحكم عليه بأكثر منه. **الصورة الخامسة** ـ أن يقول له: عندي مال كثير أو عظيم؛ فقال الشافعيّ: يُقبل في الحبّة. وقال أبو حنيفة: لا يُقبل إلا في نصاب الزكاة. وقال علماؤنا في ذلك أقوالاً مختلفة. منها نصاب السرقة والزكاة والديّة وأقله عندي نصاب السّرقة

(١) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع.

لأنه لا يُبَان عُضوُ المسلم إلا في مال عظيم. وبه قال أكثر الحنفية. ومن يعجب فيتعجّب لقول الليث بن سعد: إنه لا يُقبل في أقل من اثنين وسبعين درهماً. فقيل له: ومن أين تقول ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ويومَ حُنَيْنٍ﴾[١] وغزواته وسراياه كانت اثنتين وسبعين. وهذا لا يصح؛ لأنه أخرج حُنَيْنا منها، وكان حقّه أن يقول يقبل في أحد وسبعين، وقد قال الله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾، وقال: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾، وقال: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾. **الصورة السادسة** ـ إذا قال له: عندي عشرة أو مائة أو ألف، فإنه يُفَسّرها بما شاء ويُقْبل منه، فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهماً فإنه يُفسِّر المبهم ويُقبَل منه. وبه قال الشافعيّ. وقال أبو حنيفة: إن عطف على العدد المبهم مكيلاً أو موزوناً كان تفسيراً؛ كقوله: مائة وخمسون درهماً؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين، والخمسين تفسير للمائة. وقال ابن خيران الإصطخري من أصحاب الشافعيّ: الدرهم لا يكون تفسيراً في المائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفسِّر هو المائة بما شاء.

المسألة الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ ومعناه لو اعتذر بعد الإقرار لم يُقبل منه. وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقرّ في الحدود التي هي خالص حقّ الله؛ فقال أكثرهم منهم الشافعيّ وأبو حنيفة: يقبل رجوعه بعد الإقرار. وقال به مالك في أحد قوليه، وقال في القول الآخر: لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجهاً صحيحاً. والصحيح جواز الرجوع مطلقاً؛ لما روى الأئمة منهم البخاري ومسلم أن النبي ﷺ رد المقرّ بالزنى مراراً أربعاً كل مرّة يُعرِض عنه، ولما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبي ﷺ وقال: «أبكَ جنون» قال؛ لا. قال: «أحْصِنتَ» قال: نعم. وفي حديث البخاريّ: «لعلّكَ قَبّلت أو غمزت أو نظرتَ». وفي النّسائيّ وأبي داود: حتى قال له في الخامسة «أجامعتها»[٢] قال: نعم. قال: «حتى غاب ذلك منك في ذلك منها» قال: نعم. قال: «كما يغيب المِرود في المُكْحَلة والرِّشاء في البئر». قال: نعم. ثم قال: «هل تدري ما الزنى» قال: نعم؛ أتيت منها حراماً مثل ما يأتي الرجل من أهله حلالاً. قال: «فما تريد مني»؟

(١) جملة «ويوم حنين» ساقطة من ز، ط والمطبوع. (٢) اللفظ في رواية لأبي داود.

قال: أريد أن تطهرني. قال: فأمر به فرُجم. قال الترمذيّ وأبو داود: فلما وجد مَسَّ الحجارة فَرَّ يشتد(١)، فضربه رجل بلَحي جَمَل، وضربه الناس حتى مات. فقال النبي ﷺ: «هَلَّا تركتموه» وقال أبو داود والنَّسائي: ليتثبت رسول الله ﷺ، فأما لترك حَدّ فلا. وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله. وفي قوله عليه السلام: «لعلك قَبَّلْتَ أو غمزتَ» إشارة إلى قول مالك: إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجهاً.

الخامسة ـ وهذا في الحر المالك لأمر نفسه، فأما العبد فإن إقراره لا يخلو من أحد قسمين: إما أن يقرّ على بدنه، أو على ما في يده وذمته؛ فإن أقر على ما في بدنه فيما فيه عقوبة من القتل فما دونه نفذ ذلك عليه. وقال محمد بن الحسن: لا يقبل ذلك منه؛ لأن بدنه مستغرَق لحقّ السيد، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بَدَنه؛ ودليلنا قوله ﷺ: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بسَتْر الله، فإن من يُبْد لنا صفحته نُقِم عليه الحَد». المعنى: أن محل العقوبة أصل الخلقة، وهي [الدُّمْية](٢) في الآدمية، ولا حقّ للسيد فيها، وإنما حقّه في الوصف والتبع، وهي المالية الطارئة عليه؛ ألا ترى أنه لو أقرّ بمال لم يقبل، حتى قال أبو حنيفة: إنه لو قال سرقت هذه السلعة أنه لم تقطع يده ويأخذها المقرّ له. وقال علماؤنا: السِّلْعة للسيد ويُتبَع العبدُ بقيمتها إذا عَتَق؛ لأن مال العبد للسيد إجماعاً، فلا يُقبل قوله فيه ولا إقراره عليه، لا سيما وأبو حنيفة يقول: إن العبد لا ملك له. ولا يصح أن يَمْلِك ولا يملك، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملّكه، ولكن جميع ما في يده لسيده بإجماع على القولين. والله أعلم.

[١٦] ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) يشتد: يعدو. (٢) التصحيح من ابن العربي. وفي الأصول «الذمة».

قوله تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ في الترمذي: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرّك به لسانه، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: فكان يحرّك به شفتيه. وحرّك سفيان شفتيه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . ولفظ مسلم عن ابن جُبير عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدّة، كان يحرّك شفتيه ، فقال لي ابن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحرّكهما؛ فقال سعيد: أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحرّكهما، فحرك شفتيه ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ به * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال جمعه في صدرك ثم تقرؤه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قال فاستمع له وأنصت. ثم إن علينا أن نقرأه؛ قال: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليهما السلام استمع ، وإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي ﷺ كما أقرأه ؛ خرّجه البخاري أيضاً . ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ وقد[1] تقدّم . وقال عامر الشَّعبي : إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبّه له، وحلاوته في لسانه ، فنُهي عن ذلك حتى يجتمع ؛ لأن بعضه مرتبط ببعض . وقيل : كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحي حرّك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه ، فنزلت: ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ونزل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾ ونزل: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ قاله ابن عباس. «وقرآنه» أي وقراءته عليك. والقراءة والقرآن في قول الفراء مصدران . وقال قتادة : « فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » أي فاتبع شرائعه وأحكامه . وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام ؛ قاله قتادة . وقيل: ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما . وقيل : أي إن علينا أن نبيّنه بلسانك . قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال ابن عباس: أي إن

---

(١) راجع ١١/ ٢٥٠.

أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه. وقيل: أي «كَلّا» لاَ يُصلّون ولا يزكّون يريد كفار مكة. ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾ أي بل تحبون يا كفار أهل مكة ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ أي الدار الدنيا والحياة فيها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي تَدَعون ﴿الآخِرَةَ﴾ والعمل لها. وفي بعض التفسير قال: الآخرة الجنة. وقرأ أهل المدينة والكوفيون «بَلْ تُحِبُّونَ» «وَتَذَرُونَ» بالتاء فيهما على الخطاب وٱختاره أبو عبيد؛ قال: ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء؛ لذكر الإنسان قبل ذلك. الباقون بالياء على الخبر، وهو ٱختيار أبي حاتم، فمن قرأ بالياء فردا على قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ﴾ وهو بمعنى الناس. ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع؛ لأن ذلك أبلغ في المقصود؛ نظيره: ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾[١].

[٢٢] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ **الأوّل**: من النّضْرة التي هي الحسن والنّعمة. والثاني من النظر أي وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة؛ يقال: نَضَرهم اللّهُ يَنضرُهم نَضْرة ونَضَارة وهو الإشراق والعيش والغنى؛ ومنه الحديث «نَضّر[٢] الله آمرأ سمع مقالتي فوعاها». «إِلَى رَبِّهَا» إلى خالقها ومالكها «نَاظِرَةٌ» أي تنظر إلى ربها؛ على هذا جمهور العلماء. وفي الباب حديث صُهَيب خرجه مسلم وقد مضى في «يونس» عند قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[٣]. وكان ٱبن عمر يقول: أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشية؛ ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. وروى يزيد النحوي عن عِكْرمة قال: تنظر إلى ربها نظراً. وكان الحسن يقول: نضرت وجوههم ونظروا إلى ربّهم.

---

(١) راجع ص ١٤٨ من هذا الجزء.
(٢) يروى الحديث بالتخفيف والتشديد من النضارة وهي في الأصل حسن الوجه والبريق.
(٣) راجع ٨/ ٣٣٠.

وقيل: إن النظر هنا ٱنتظار ما لهم عند الله من الثواب. وروي عن ٱبن عمر ومجاهد. وقال عِكرمة: تنتظر أمر ربها. حكاه الماورديّ عن ٱبن عمر وعِكرمة أيضاً. وليس معروفاً إلا عن مجاهد وحده. وٱحتجوا بقوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصَارَ﴾ وهذا القول ضعيف جدًّا، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار. وفي الترمذيّ عن ٱبن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جِنانه وأزواجه وخَدمه وسُرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشيّة» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال هذا حديث غريب. وقد روي عن ٱبن عمر ولم يرفعه. وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جلّ وعزّ إلا رِداء الكبرياء على وجهه في جَنّة عدن». وروى جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عِياناً كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُون في رؤيته؛ فإن ٱستطعتم ألاّ تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فٱفعلوا». ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ متّفق عليه. وخرجه أيضاً أبو داود والترمذيّ وقال حديث حسن صحيح. وخرج أبو داود عن أبي رَزِين العُقَيليّ قال: قلت يا رسول الله أكلّنا يرى ربه؟ قال ٱبن معاذ: مُخْلِياً به يوم القيامة؟ قال: «نعم يا أبا رَزِين» قال: وما آية ذلك في خَلْقه؟ قال: «يا أبا رَزِين ألیس كلّكم يَرَى القمر» قال ٱبن معاذ: ليلة البدر مُخْلِياً به. قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم» [قال ٱبن معاذ(١) قال]: «فإنما هو خلق من خلق الله ـ يعني القمر ـ فالله أجل وأعظم». وفي كتاب النسائيّ عن صُهَيب قال: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر، ولا أقرّ لأعينهم» وفي التفسير لأبي إسحاق الثّعلبيّ عن الزبير عن جابر قال:

(١) الزيادة من مسند أبي داود.

قال رسول الله ﷺ: «يتجلّى ربّنا عزّ وجلّ حتى ينظروا إلى وجهه، فيخرّون له سُجَّداً، فيقول ٱرفعوا رءوسكم فليس هذا بيوم عِبادة» قال الثّعلبيّ: وقول مجاهد إنها بمعنى تنتظر الثواب من ربّها ولا يراه شيء من خلقه، فتأويل مدخول؛ لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا نظرته؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾، و ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا: نظرت فيه، فأما إذا كان النظر مقروناً بذكر إلى، وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعِيان. وقال الأزهريّ: إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربّها خطأ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار، وإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، كذلك تقوله العرب؛ لأنهم يقولون نظرت إليه: إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته؛ قال:

فَـإِنَّكُمـا إِنْ تَنْظُـرانِـيَ سـاعـةً ... مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

لما أراد الانتظار قال تنظراني، ولم يقل تنظران إليّ؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا: نظرت إليه؛ قال:

نظـرتُ إليهـا والنُّجُـومُ كـأنَّهَـا ... مَصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ[1]

وقال آخر:

نظرتُ إليها بالمُحصَّبِ مِنْ مِنًى ... ولِي نَظَرٌ[2] لولا التَّحَرُّجُ عارِمُ

وقال آخر:

إِنِّي إليكَ لِمَا وَعَدْتَ لنَاظِرٌ ... نَظَرُ الفقيرِ إلى الغنيِّ المُوسِرِ

أي إني أنظر إليك بذلّ؛ لأن نظر الذلّ والخضوع أرقّ لقلب المسئول؛ فأما ما ٱستدلوا به من قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصَارَ﴾ فإنما ذلك

(١) تشب: توقد. والقفال جمع قافل وهو الراجع من السفر. البيت من قصيدة لأمرىء القيس.
(٢) في نسخ الأصل نظرة، والصواب ما ذكرنا كما في ديوان قائله، وهو عمر بن ربيعة.

في الدنيا. وقد مضى القول فيه[(١)] في موضعه مستوفًى. وقال عطية العوفي: ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته، ونظره يحيط بها؛ يدل عليه: ﴿لا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ﴾ قال القشيريّ أبو نصر: وقيل: «إلَى» واحد الآلاء: أي نعمه منتظرة وهذا أيضاً باطل؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء، ثم الآلاء: نعمه الدُّفَّع[(٢)]، وهم في الجنة لا ينتظرون دفع نقمه عنهم، والمنتظر للشيء مُتنغِّص العيش، فلا يوصف أهل الجنة بذلك. وقيل: أضاف النظر إلى الوجه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ والماء يجري في النهر لا النهر. ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ أي على عينيه. ثم لا يبعد قلب العادة غداً، حتى يخلق الرؤية والنظر في الوجه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾، فقيل: يا رسول الله! كيف يمشون في النار على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم».

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة. وفي الصحاح: وبَسَر الفحلُ الناقةَ وابتسرها: إذا ضربها من غير ضَبَعَة[(٣)]. وبَسَر الرجُل وجهَه بسُوراً أي كَلَح؛ يقال: عَبَس وبَسَر. وقال السّديّ: «بَاسِرَةٌ» أي متغيرة والمعنى واحد. ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي توقن وتعلم، والفاقرة: الداهية والأمر العظيم؛ يقال: فقرتْه الفاقرة: أي كسرت فَقَار ظهره. قال معناه مجاهد وغيره. وقال قتادة: الفاقرة الشرّ. السُّديّ: الهلاك. ابن عباس وابن زيد: دخول النار. والمعنى متقارب. وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم؛ قاله الأصمعي. يقال: فَقَرتُ أنفَ البعيرِ: إذا حزتَه بحديدة ثم جعلتَ على موضع الحزِّ الجَرِيرَ[(٤)] وعليه وَتَرٌ مَلْويّ، لِتذلِّلَه بذلك وتَرُوضَه؛ ومنه قولهم: قد عُمِل به الفاقرة. وقال النابغة:

أَبَى لِيَ قَبْرٌ لا يَزالُ مُقَابِلِي ... وضَرْبَةُ فَأْسٍ فوقَ رأْسِيَ فَاقِرَهْ

أي كاسرة.

---

(١) راجع ٧/ ٥٤.
(٢) هكذا في كل الأصول.
(٣) ضبعت الناقة: اشتهت الفحل.
(٤) الجرير: حبل من أدم يخطم به البعير.

[٢٦] ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٢٧] ﴿ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[٢٨] ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[٢٩] ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

[٣٠] ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ «كَلاَّ» رَدْع وزَجْر؛ أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة؛ ثم ٱستأنف فقال: «إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ» أي بلغت النفس أو الروح التراقي؛ فأخبر عما لم يجر له ذكر، لعلم المخاطب به؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ وقد تقدّم[١]. وقيل: «كَلاَّ» معناه حقّا؛ أي حقًّا أن المساق إلى الله ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ أي إذا ٱرتقت النفس إلى التراقي. وكان ٱبن عباس يقول: إذا بلغت نفس الكافر التراقي. والتراقي جمع تَرْقُوة وهي العظام المكتنفة لنُقْرة النَّحر، وهو مقدّم الحلق من أعلى الصدر. موضع الحَشْرجة؛ قال دُرَيد بن الصِّمّة[٢]:

وَرُبَّ عَظِيمــةٍ دافَعْـتَ عَنْهُــمْ   وقَـدْ بَلَغَـتْ نُفُوسُهُـمُ التَّـرَاقِـي

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ التراقي، والمقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ ٱختلُف فيه؛ فقيل: هو من الرقية؛ عن ٱبن عباس وعِكرمة وغيرهما. روى سِمَاك عن عِكرمة قال: مَن راقٍ يَرْقِي: أي يَشْفِي. وروى ميمون بن مِهران عن ٱبن عباس: أي هل من طبيب يَشْفِيه؛ وقاله أبو قِلابة وقتادة؛ وقال الشاعر:

هَلْ لِلْفَتى مِنْ بَناتِ الدَّهْر مِنْ وَاقِ   أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاق

(١) راجع ١٥/ ١٩٥ و ١٧/ ٢٣٠.
(٢) كذا في الأصل. والبيت لابنته عمرة من قصيدة لها ترثي بها أباها كما في شعراء النصرانية.

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس؛ أي من يقدر أن يَرْقِيَ من الموت. وعن ٱبن عباس أيضاً وأبي الجوزاء أنه من رَقِيَ يَرْقَى: إذا صَعِد، والمعنى: من يَرقَى بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل: إن مَلَك الموت يقول مَن راقٍ؟ أي من يَرْقَى بهذه النفس؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها، فيقول ملَكَ الموت: يا فلان ٱصعد بها. وأظهر عاصم وقوم النون في قوله تعالى: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ واللام في قوله: ﴿بَلْ رَانَ﴾ لئلا يشبه مَرَّاق وهو بائع المَرْقة، وبَرَّان في تثنية البرّ. والصحيح ترك الإظهار، وكسرة القاف في «مَنْ رَاق»، وفتحة النون في «بَلْ رَانَ» تكفي في زوالِ اللبس. وأمثل مما ذُكِر: قصد الوقف على «مَنْ» و «بَلْ»، فأظهرهما؛ قاله القشيريّ.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ﴾ أي أيقن الإنسان ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أي فراق الدنيا والأهل والمال والولد، وذلك حين عاين الملائكة. وقال الشاعر:

فـراقٌ ليـس يُشبهُـهُ فِـراقُ قد ٱنقطع الرجاءُ عن التَّلاَقِ

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي فٱتصلت الشدّة بالشدّة؛ شدّة آخر الدنيا بشدة أوّل الآخرة؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. وقال الشعبي وغيره: المعنى ٱلتفت ساقا الإنسان عند الموت من شدّة الكرب. وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى. وقال سعيد بن المسيِّب والحسن أيضاً: هما ساقا الإنسان إذا التفّتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: ٱلتفت ساق الكفن بساق الميت. وقال الحسن أيضاً: ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوّالاً. قال النحاس: القول الأوّل أحسنها. وروى عليّ بن أبي طلحة عن ٱبن عباس: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال: آخرَ يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة، فتلتقي الشدّة بالشدّة إلا من رحمه الله؛ أي شدّة كرب الموت بشدّة هول المطلع؛ والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ وقال. مجاهد: بلاء ببلاء. يقول: تتابعت عليه الشدائد. وقال الضحاك وٱبن زيد: ٱجتمع عليه أمران شديدان: الناس يُجهِّزون جسده، والملائكة يُجهِّزون رُوحه، والعرب لا تذكر الساق إلا في المِحن

والشدائد العظام؛ ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق.

قال الشاعر: وقامتِ الحربُ بنا على ساقْ[١]

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «نٓ وَالْقَلَمِ»[٢]. وقال قوم: الكافر تُعَذَّب روحه عند خروج نفسه، فهذه الساق الأولى، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ أي إلى خالقك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿الْمَسَاقُ﴾ أي المرجع. وفي بعض التفاسير قال: يسوقه مَلَكه الذي كان يحفظ عليه السيئات. والمَسَاق: المصدر من ساق يسوق، كالمقال من قال يقول.

[٣١] ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي لم يصدّق أبو جهل ولم يصلّ. وقيل: يرجع هذا إلى الإنسان في أوّل السورة، وهو ٱسم جنس. والأوّل قول ٱبن عباس. أي لم يصدّق بالرسالة «وَلاَ صَلَّى» ودعا لربّه، وصلّى على رسوله. وقال قتادة: فلا صدّق بكتاب الله، ولا صلّى لله. وقيل: ولا صدّق بمال له، ذخراً له عند الله، ولا صلّى الصلوات التي أمره الله بها. وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. قال الكسائي: «لاَ» بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره؛ تقول العرب: لا عبدُ الله خارج ولا فلان، ولا تقول: مررت برجل لا مُحْسِن حتى يقال ولا مُجمِل، وقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ليس من هذا القبيل؛ لأن معناه أفلا ٱقتحم؛ أي فهلا ٱقتحم، فحذف ألف الاستفهام. وقال الأخفش: «فَلاَ صَدَّقَ» أي لم يصدّق؛ كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ أي لم يقتحم، ولم يشترط أن يُعْقِبه

---

(١) صدر البيت:

صبرا أمام إنه شرٌّباق

(٢) راجع ١٨/٢٤٨.

بشيء آخر، والعرب تقول: لا ذهب، أي لم يذهب، فحرف النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل؛ ومنه قول زهير:

فَلاَ هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدّمِ[١]

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمطَّى﴾ أي يتبختر، ٱفتخاراً بذلك؛ قاله مجاهد وغيره. مجاهد: المراد به أبو جهل. وقيل: «يَتَمَطَّى» من المَطَا وهو الظَّهْر، والمعنى يَلْوِي مَطَاه. وقيل: أصله يتمطط، وهو التمدّد من التكسّل والتثاقل، فهو يتثاقل عن الداعي إلى الحق؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف، والتمطي يدل على قلة الاكتراث، وهو التمدّد، كأنه يمدّ ظهره ويلويه من التبختر. والمَطِيطة الماء الخاثر في أسفل الحوض؛ لأنه يتمطى أي يتمدّد؛ وفي الخبر: «إذا مشت أمّتي المُطَيْطاءُ[٢] وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم». والمُطَيْطاء: التبختر ومدّ اليدين في المشي.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾: تهديد بعد تهديد، ووعيد بعد وعيد، أي فهو وعيد أربعة لأربعة؛ كما روي أنها نزلت في أبي جهل الجاهلِ بربّه فقال: ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أي لا صدّق رسول الله، ولا وقف بين يديّ فصلّى، ولكن كذّب رسولي، وتولّى عن التصلية بين يديّ. فتَرْك التصديق خَصْلة، والتكذيب خَصْلة، وترك الصلاة خَصْلة، والتولي عن الله تعالى خَصْلة؛ فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة. والله أعلم. لا يقال: فإن قوله: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ خَصْلة خامسة؛ فإنّا نقول: تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولّي، فأخبر عنها. وذلك بَيِّنٌ في قول قتادة على ما نذكره. وقيل: إن رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم[٣]، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد، مما يلي باب بني مخزوم، فأخذ رسول الله ﷺ

(١) صدر البيت:

وكان طوى كشحا على مستكنة

(٢) المطيطاء يمدّ ويقصر، قال ٱبن الأثير: وهي من المصغرات التي لم يستعمل لها مكبر.

(٣) في ز، ط، ل: «ذات ليلة».

بيده، فهزّه مرّةً أو مرتين ثم قال: «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى» فقال له أبو جهل: أتهددُني؟ فوالله إني لأَعَزُّ أهل الوادي وأكرمه. ونزل على رسول الله ﷺ كما قال لأبي جهل. وهي كلمة وعيد. قال الشاعر:

فَأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى ... وهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال قتادة: أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر، فأخذ النبي ﷺ بيده فقال: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾. فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئاً، إني لأعزُّ مَنْ بين جبليها. فلما كان يوم بَدْر أشرف على المسلمين فقال: لا يُعْبَد اللّهُ بعد هذا اليوم أبداً. فضرب الله عنقه، وقتله شر قِتْلة. وقيل: معناه: الويل لك؛ ومنه قول الخنساء:

هَمَمْتُ بنفسيَ كُلَّ الهُمُوم ... فَأَوْلَى لِنَفْسِيَ أَوْلَى لَهَا

سَأَحْمِلُ نفسي على آلةٍ[1] ... فإمَّا عليها وإمَّا لَهَا

الآلة: الحالة، والآلة: السرير أيضاً الذي يحمل عليه الميت؛ وعلى هذا التأويل قيل: هو من المقلوب؛ كأنه قيل: أَوْيَل، ثم أخر الحرف المعتل، والمعنى: الويل لك حيًّا، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار؛ وهذا التكرير كما قال[2]:

لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي

أي لك الويل، ثم الويل، ثم الويل، وضعف هذا القول. وقيل: معناه الذم لك أولى من تركه، إلا أنه كثير في الكلام فحذف. وقيل: المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب. وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: قال الأصمعي «أَوْلَى» في كلام العرب معناه مُقَارَبة الهلاك، كأنه يقول: قد وَلِيتَ الهلاك، قد دَانَيْتَ الهلاكَ؛ وأصله من الوَلْي، وهو القُرْبُ؛

---

(١) في أ «على آلَة» بفتح فشد، وهي الحربة. وصوابه آلة أي حالة.

(٢) هو أمرؤ القيس، والبيت بتمامه:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات إنك مرجلي

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلونَكُم مِنَ الْكُفَّار﴾ أي يَقرُبُون منكم؛ وأنشد الأصمعي:

وَأَوْلَى أن يكون له الولاءُ

أي قارب أن يكون له؛ وأنشد أيضاً:

أَوْلَى لِمَنْ هاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْمَدَا

أي قد دنا صاحبها [من][1] الكمد. وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعيّ ويقول: ليس أحد يفسّر كتفسير الأصمعي. النحاس: العرب تقول أَوْلَى لكَ: كدتَ تَهلِك ثم أَفْلَتّ، وكأنّ تقديره: أولى لك وأولى بك الهلكة. المهدويّ قال: ولا تكون أَوْلى (أَفْعَل منك)، وتكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: الوعيد أولى له من غيره؛ لأن أبا زيد[2] قد حكى: أَوْلاَةُ الآن: إذا أَوْعَدوا. فدخول علامة التأنيث دليل على أنه ليس كذلك. و «لَكَ» خبر عن «أَوْلَى». ولم ينصرف «أَوْلَى» لأنه صار علماً للوعيد، فصار كرجل آسمه أحمد. وقيل: التكرير فيه على معنى ألزم لك على عملك السَّيء الأوّل، ثم على الثاني، والثالث، والرابع، كما تقدّم.

[٣٦] ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾. [٣٧] ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

[٣٨] ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ﴾ أي يظن آبن آدم ﴿أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي أن يُخَلَّى مُهمَلاً، فلا يُؤمَر ولا يُنهى؛ قاله آبن زيد ومجاهد، ومنه إبل سُدًى: ترعى بلا راعٍ. وقيل: أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يُبعث. وقال الشاعر:

فأُقْسِمُ بالله جهدَ اليمِـ ـينِ ما تَرَكَ اللّهُ شيئاً سُدَى

---

(١) من: ساقطة من الأصول.

(٢) في (اللسان: ولى) وأسند الحكاية إلى ابن جني. قال: وحكى ابن جني: أولاة الآن، فأنت أولى. قال: وهذا يدل على أنه اسم لا فعل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمنَى﴾ أي من قطرة ماء تُمنَى في الرَّحم، أي تُراق فيه؛ ولذلك سمّيت (مِنًى) لإراقة الدماء.. وقد تقدّم[١]. والنطفة: الماء القليل؛ يقال: نَطَف الماء: إذا قطر. أي ألم يك ماءً قليلاً في صُلْب الرجل وترائب المرأة. وقرأ حفص «مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى» بالياء، وهي قراءة ٱبن محيصن ومجاهد ويعقوب وعَيَّاش عن أبي عمرو، وٱختاره أبو عبيد لأجل المنيّ. الباقون بالتاء لأجل النطفة، وٱختاره أبو حاتم. ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي دماً بعد النطفة، أي قد رَتبه تعالى بهذا كله على خِسَّة قدره. ثم قال: ﴿فَخَلَقَ﴾ أي فقدّر ﴿فَسَوَّى﴾ أي فسوّاه تسويةً، وعدَّله تعديلاً، بجعل الروح فيه ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي من الإنسان. وقيل: من المنيّ. ﴿الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ أي الرجل والمرأة. وقد ٱحتج بهذا من رأى إسقاط الخُنثى. وقد مضى في سورة «الشورى»[٢] أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجتا مخرج الغالب. وقد مضى في أوّل سورة «النساء»[٣] أيضاً القول فيه، وذكرنا في آية المواريث حكمه، فلا معنى لإعادته ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ أي أليس الذي قدَر على خلق هذه النَّسَمة[٤] من قطرة من ماء ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ أي على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى . وروي عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأها قال: «سبحانك اللّهم، بَلَى » وقال ٱبن عباس: من « قرأ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَى ﴾ إماماً كان أو غيره فليقل: سُبْحَانَ رَبِّيَ ٱلأَعْلَى ». ومن قرأ ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ إلى آخرها إماماً كان أو غيره فليقل: «سبحانك اللّهُمَّ، بَلَى»[٥] ذكره الثعلبيّ من حديث أبي إسحاق السَّبِيعيّ عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس. ختمت السورة والحمد[٦] لله.

---

(١) راجع ١٧/ ١١٨ و ٢١٦.
(٢) راجع ١٦/ ٤٨.
(٣) راجع ٥/ ٢.
(٤) في ح: «المضغة».
(٥) في أ، ح: «سبحانك اللهم وبحمدك».
(٦) في ح: «والحمد لله على كل حال».

سـورة الإنسـان

وهي إحدى وثلاثون آية

مَكِّيَّةٌ في قول ٱبن عباس ومقاتل والكلبي. وقال الجمهور: مدنية. وقيل: فيها مكيّ، من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾(١) إلى آخر السورة، وما تقدّمه مدنيّ.

وذكر ٱبن وهب قال: وحدّثنا ٱبن زيد قال: إن رسول الله ﷺ ليقرأ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبي ﷺ، فقال له عمر بن الخطاب؛ لا تُثْقِل على النبي ﷺ، قال: «دَعْه يابن الخطاب» قال: فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده، فلما قرأها عليه وبلغ صفة الجِنان زَفَر زَفْرة فخرجت نَفْسه. فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرَج نفس صاحِبكم ـ أو أخيكم ـ الشَّوْقُ إلى الجنة» وروي عن ٱبن عمر بخلاف هذا اللفظ، وسيأتي. وقال القُشَيريّ: إن هذه السورة نزلت في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. والمقصود من السورة عام. وهكذا القول في كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾.

[٢] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾.

[٣] ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ «هَلْ»: بمعنى(٢) قد؛ قاله الكسائي والفراء وأبو عبيدة. وقد حكي عن سيبويه «هَلْ» بمعنى قد.

---

(١) الآية: ٢٣. (٢) في ح: «تقديره».

قال الفراء: هل تكون جَحْداً، وتكون خبراً، فهذا من الخبر؛ لأنك تقول: هل أعطيتك؟ تُقَرِّره بأنك أعطيته. والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟ وقيل: هي بمنزلة الاستفهام، والمعنى: أتى. والإنسان هنا آدم عليه السلام؛ قاله قتادة والثَّوريّ وعِكرمة والسّديّ. وروي عن ٱبن عباس. ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ قال ٱبن عباس في رواية أبي صالح: أربعون سنة مرّت به، قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقى بين مكة والطائف. وعن ٱبن عباس أيضاً في رواية الضحاك أنه خلق من طين، فأقام أربعين سنة، ثم من حَمَإٍ مسنون أربعين سنة، ثم من صَلْصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة. وزاد ٱبن مسعود فقال: أقام وهو من تراب أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة، ثم نفخ فيه الروح. وقيل: الحين المذكور ها هنا: لا يُعْرف مقدارُه؛ عن ٱبن عباس أيضاً، حكاه الماورديّ. ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ قال الضحاك عن ٱبن عباس: لا في السماء ولا في الأرض. وقيل: أي كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً، لا يُذكَر ولا يُعرفَ، ولا يُدرَى ما ٱسمه ولا ما يراد به ثم نُفِخ فيه الرُّوح، فصار مذكوراً؛ قاله الفراء وقطرب وثعلب. وقال يحيى بن سلاّم: لم يكن شيئاً مذكوراً في الخَلْق وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً. وقيل: ليس هذا الذِّكر بمعنى الإخبار، فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم، بل هذا الذِّكر بمعنى الخطر والشرف والقدر؛ تقول: فلان مذكور أي له شرف وقدر. وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قَدْر عند الخليقة. ثم لما عَرَّف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة، وحمَّله الأمانة التي عجز عنها السموات والأرض والجبال، ظهر فضله على الكل، فصار مذكوراً. قال القُشيريّ: وعلى الجملة ما كان مذكوراً للخلق، وإن كان مذكوراً لله. وحكى محمد بن الجهم عن الفراء: «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً» قال: كان شيئاً ولم يكن مذكوراً. وقال قوم: النفي يرجع إلى الشيء؛ أي قد مضى مُدَد من الدهر وآدم لم يكن شيئاً يذكر في الخليقة؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتي عليه حين. والمعنى: قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة. وهذا معنى قول قتادة ومقاتل: قال قتادة: إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليقة

كانت بعد الإنسان. وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله، ولم يخلق بعده حيواناً. وقد قيل: «الإنسان» في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلإِنسَانِ حِينٌ﴾ عُنِيَ به الجنس من ذرّية آدم، وأن الحين تسعة أشهر، مدّة حمل الإنسان في بطن أمه ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾: إذ كان علقة و مضغة؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له. وقال أبو بكر رضي الله عنه لما قرأ هذه الآية: ليتها تَمَّت فلا نُبْتَلى. أي ليت المدّة التي أتت على آدم لم تكن شيئاً مَذْكوراً تَمَّت على ذلك، فلا يلد ولا يُبْتَلى أولادُه. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ فقال ليتها تَمَّت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ﴾ أي ٱبن آدم من غير خلاف ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي من ماء يقطُر وهو المنيّ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة؛ كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه:

مـالـي أَراكِ تكْـرَهِيـنَ الْجَنَّـهْ هل أنتِ إلاَّ نُطْفَةٌ في شَنَّهْ[1]

وجمعها: نَطف ونِطَاف. ﴿أَمْشَاجٍ﴾: أخلاط. واحدها: مِشْج ومَشِيج، مثل خِدْن وخَدِين؛ قال: رؤبة:

يَطْـرَحْـن كُـلَّ مُعْجَـلٍ نَشَّـاجِ لَمْ يُكْسَ جِلْداً في دَمٍ أَمْشَاجِ

ويقال: مَشَجتُ هذا بهذا أي خلطته، فهو مَمْشوج ومَشِيج؛ مثل مَخْلوط وخَلِيط. وقال المبرّد: واحد الأمشاج: مشيج؛ يقال: مشج يمشِج: إذا خلط، وهو هنا ٱختلاط النطفة بالدم؛ قال الشَّمَّاخ:

طَـوَتْ أَحْشَـاء مُـرْتِجَـةٍ لِـوَقْـتٍ علـى مَشَـجٍ سُـلاَلَتُـهُ مَهِيـنُ

وقال الفراء: أمشاج: أخلاط ماء الرجل وماء المرأة، والدم والعَلَقة. ويقال للشيء من هذا إذا خُلط: مَشِيج كقولك خَلِيط، ومَمْشوج كقولك مَخلُوط. وروي عن ٱبن عباس رضي الله عنه

(١) الشنة: القربة.

قال: الأمشاج: الحمرة في البياض، والبياض في الحمرة؛ وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة؛ قال الهُذَليّ[١]:

كَـأَنَّ الـرِّيـشَ والْفُـوقَيْـنِ مِنْـهُ   خِلاَفَ النَّصْلِ سِيطَ به مَشِيجُ

وعن[٢] ٱبن عباس أيضاً قال: يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد، فما كان من عصب وعظم وقوّة فهو من ماء الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة. وقد روي هذا مرفوعاً؛ ذكره البزار. وروي عن ٱبن مسعود: أمشاجها عروق المضغة. وعنه: ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان. وقال مجاهد؛ نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء. وقال ٱبن عباس: خلق من ألوان؛ خلق من تراب، ثم من ماء الفرج والرحم، وهي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم. ونحوه قال قتادة: هي أطوار الخلق؛ طور وطور علقة وطور مضغة عظام ثم يكسو العظام لحماً؛ كما قال في سورة «المؤمنون» ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الآية. وقال ٱبن السِّكِّيت: الأمشاج الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة. وقال أهل المعاني: الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد؛ لأنه نعت للنطفة؛ كما يقال: بُرْمَةٌ أَعشَار وثوبٌ أخلاقٌ. وروي عن أبي أيوب الأنصاريّ: قال جاء حبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال: أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة؟ فقال: «ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا عَلاَ ماء المرأة آنَثَتْ وإذا عَلاَ ماءُ الرجل أَذْكَرَتْ» فقال الحبر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وقد مضى هذا القول مستوفًى في سورة «البقرة». ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ أي نختبره. وقيل: نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار. وفيما يختبر به وجهان: **أحدهما ـ**

---

(١) هو عمرو بن الداخل الهذلي. وفي («اللسان»: مشج) زهير بن حرام الهذلي. سيط به: أي خرج قذذ من الريش مختلط من الدم والماء.

(٢) وفي حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي ما يأتي:

والمعنى: «من نطفة قد أمتزج فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والثخن والقوام، والخواص تجتمع من الأخلاط وهي العناصر الأربعة، ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان الشبه له».

نختبره بالخير والشر؛ قاله الكلبي. **الثاني** - نختبر شكره في السَّراء وصبره في الضَّرَّاء؛ قاله الحسن. وقيل «نَبْتَلِيهِ» نُكلِّفه. وفيه أيضاً وجهان: **أحدهما** - بالعمل بعد الخلق؛ قاله مقاتل. **الثاني** - بالدِّين ليكون مأموراً بالطاعة ومنهيًّا عن المعاصي. وروي عن ٱبن عباس: «نَبْتَلِيهِ»: نصرفه خلقاً بعد خلق؛ لنبتليه بالخير والشر. وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال: المعنى والله أعلم ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ لنبتليه، وهي مُقدَّمة معناها التأخير.

قلت: لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخِلْقة. وقيل: ﴿جَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾: يعني جعلنا له سمعاً يسمع به الهدى، وبصراً يبصر به الهدى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيّنا له وعَرَّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشرّ ببعث الرسل، فآمن أو كفر؛ كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾. وقال مجاهد: أي بيّنا له السبيل إلى الشَّقاء والسَّعادة. وقال الضحاك وأبو صالح والسّديّ: السبيل هنا خروجه من الرحم. وقيل: منافعه ومضارّه التي يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله. ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ أي أيهما فعل فقد بيّنا له. قال الكوفيون: «إن» ها هنا تكون جزاء و «ما» زائدة أي بيّنا له الطريق إن شَكَر أو كَفَر. وٱختاره الفراء ولم يجزْه البصريون؛ إذ لا تدخل «إنْ» للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل. وقيل: أي هديناه الرشد، أي بيّنا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه؛ ثم إن خلقنا له الهداية ٱهتدى وآمن، وإن خذلناه كَفَر. وهو كما تقول؛ قد نصحت لك، إن شئت فاقبل، وإن شئت فٱترك؛ أي فإن شئت، فتحذف الفاء. وكذا «إِمَّا شَاكِراً» والله أعلم. ويقال: هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل. وقد تقدّم في «الفاتحة»[1] وغيرها. وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع ٱجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى، فٱنتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر المبالغة، فقَلَّ شكره، لكثرة النِّعم عليه وكَثرة[2] كفره وإن قَلّ مع الإحسان إليه. حكاه الماورديّ

(١) راجع ١/١٤٧ و ١٦٠. (٢) في أ، ح، و: «وكثرة كفره».

[٤] ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَاْ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً﴾ بين حال الفريقين، وأنه تَعبَّد العقلاء وكَلَّفهم ومَكَّنهم مما أمرهم، فمن كَفَر فله العقاب، ومن وَحَّد وشكر فله الثواب. والسلاسِل: القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعاً كما مضى في «الحاقة»[١]. وقرأ نافع والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر «سَلاَسِلاً» منوّناً. الباقون بغير تنوين. ووقف قُنْبُل وابن كثير وحمزة بغير ألف. الباقون بالألف. فأما «قوارِير» الأوّل فنوّنه نافع وابن كثير والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم، ولم ينوّن الباقون. ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف. والباقون بالألف. وأما «قَوَارِير» الثانية فنوّنه أيضاً نافع والكسائيّ وأبو بكر، ولم ينوّن الباقون. فمن نوّن قرأها بالألف، ومن لم ينوّن أسقط منها الألف، واختار أبو عُبيد التنوين في الثلاثة، والوقف بالألف اتباعاً لخط المصحف؛ قال: رأيت في مصحف عثمان «سَلاَسِلاً» بالألف و «قَوَارِيراً» الأوّل بالألف، وكان الثاني مكتوباً بالألف فَحُكَّت فرأيت أثرها هناك بيّناً. فمن صرف فله أربع حجج: **أحدها** ـ أن الجموع أشبهت الآحاد فجمعت جمع الآحاد، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت. **الثانية** ـ أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أَفْعَل منك، وكذا قال الكسائيّ والفراء: هو على لغة من يُجرِ الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يُجْرونه؛ وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كُلْثوم:

كَـأَنَّ سُيـوفَنَـا فِينـا وفِيهِـمْ مَخَـارِيـقٌ بِـأَيْـدِي لاَعِبِينَـا

وقال لَبِيد:

وَجَـزُورِ أَيْسَـارٍ دَعـوتُ لِحَتفِهـا بِمَغَـالِـقٍ مُتَشَـابِـهٍ أَجْسَـامُهَـا

وقال لَبِيد أيضاً:

فَضلاً وذو كَرمٍ يُعِينُ على النَّدَى سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُهَا

---

(١) راجع ١٨/ ٢٧٢.

فصرف مَخَاريق ومَغَالق ورَغَائب، وسبيلها ألا تُصرَف. **والحجة الثالثة** ـ أن يقول نوّنت قوارِير الأوّل لأنه رأس آية، ورءوس الآي جاءت بالنون، كقوله جلّ وعزّ: ﴿مَذْكُوراً * سَمِيعاً بَصِيراً﴾ فنوّنا الأوّل ليوقف بين رءوس الآي، ونوّنا الثاني على الجوار للأوّل. **والحجة الرابعة** ـ أتباع المصاحف، وذلك أنهما جميعاً في مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف. وقد أحتج من لم يصرفهنّ بأن قال: إن كل جمع بعد الألف منه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدّد لم يُصرَف في معرفة ولا نكرة؛ فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولك: قناديل ودنانير ومناديل، والذي بعد الألف منه حرفان قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ لأن بعد الألف منه حرفين، وكذلك قوله: ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ والذي بعد الألف منه حرف مُشَدّد شَوَابّ ودَوَابّ. وقال خلف: سمعت يحيى بن آدم يحدّث عن أبن إدريس قال: في المصاحف الأوّل الحرف الأوّل بالألف والثاني بغير ألف؛ فهذا حجة لمذهب حمزة. وقال خلف: رأيت في مصحف ينسب إلى قراءة أبن مسعود الأول بالألف والثاني بغير ألف. وأما أَفْعَل مِنْك فلا يقول أحد من العرب في شعره ولا في غيره هو أفعل منك منوّناً؛ لأن مِن تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنوين وإضافة في حرف؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفراء وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَالاً﴾ جمع غُلّ تُغلّ بها أيديهم إلى أعناقهم. وعن جُبَير بن نُفَير عن أبي الدرداء كان يقول: أرفعوا هذه الأيدي إلى الله جلّ ثناؤه قبل أن تُغلّ بالأغلال. قال الحسن: إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار؛ لأنهم أعجزوا الربّ سبحانه ولكن إذلالاً. ﴿وَسَعِيراً﴾ تقدّم القول فيه.

[٥] ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾.

[٦] ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ الأبرار: أهل الصدق واحدهم بَرٌّ، وهو من ٱمتثل أمر الله تعالى. وقيل: البرّ الموحِّد والأبرار جمع بارّ مثل شاهد وأشهاد، وقيل: هو جمع بَرّ مثل نَهْر وأنهار؛ وفي الصحاح: وجمع البر الأبرار، وجمع البار البَرَرة، وفلان يَبَرُّ خالقَه ويَتَبَرَّره أي يُطِيعه، والأم بَرَّةٌ بولدها. وروى ٱبن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمّاهم الله جل ثناؤه الأبرار لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء، كما أن لوالدك عليك حقًّا كذلك لولدك عليك حقًّا». وقال الحسن: البَرّ الذي لا يؤذي الذَّرّ. وقال قتادة: الأبرار الذين يؤدّون حقّ الله ويوفون بالنَّذر. وفي الحديث: «الأبرار الذين لا يؤذون أحداً». ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ أي من إناء فيه الشراب. قال ٱبن عباس: يريد الخمر. والكأس في اللغة الإناء فيه الشراب: وإذا لم يكن فيه شراب لم يسمّ كأساً. قال عمرو بن كُلْثوم:

صَبنْتِ[1] الكأسَ عَنَّا أُمَّ عمرٍو وكـان الكَـأْسُ مَجْـرَاهـا الْيَمِينَـا

وقال الأصمعيّ: يقال صَبَنْتَ عنّا الهديةَ أو ما كان من معروف تَصبِنُ صَبْنا: بمعنى كَفَفْتَ؛ قاله الجوهري. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي شَوْبها[2] وخلطها؛ قال حسّان:

كَـأَنَ[3] سَبِيئَـةً مِـن بيْـتِ رَأْسٍ يكـونُ مِـزَاجَهـا عَسـلٌ ومـاءُ

ومنه مِزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة. ﴿ كَافُوراً ﴾ قال ٱبن عباس: هو ٱسم عين ماء في الجنة، يقال له عين الكافور. أي يمازجه ماء هذه العين التي تسمّى كافوراً. وقال سعيد عن قتادة: تُمزَج لهم بالكافور وتُختَمُ بالمسك . وقاله مجاهد . وقال عِكرمة : مِزَاجها طعمها. وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها . وقيل : أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبَرْده ؛ لأن الكافور لا يشرب ؛ كقوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ أي كنارٍ . وقال ٱبن كَيْسان : طُيِّب بالمسك والكافور والزنجبيل . وقال

(١) الرواية المشهورة في المعلقات صددت الكأس. (٢) في أ، ح: «شرابها».

(٣) السبيئة: الخمر. وسميت بذلك لأنها تسبأ أي تشترى لتشرب؛ وفي: «كأن خبيئة»، وهي المصونة المضنون بها لنفاستها. وبيت رأس: موضع بالأردن مشهور بالخمر.

مقاتل: ليس بكافور الدنيا. ولكن سمَّى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلوب. وقوله: «كَانَ مِزَاجُهَا» «كَانَ» زائدة أي من كأس مِزَاجُها كافورٌ. ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ قال الفراء: إن الكافور اسم لعين ماء في الجنة؛ فـ «عَيْناً» بدل من كافور على هذا. وقيل: بدل من كأس على الموضع. وقيل: هي حال من المضمر في «مِزاجها». وقيل: نصب على المدح؛ كما يُذكَر الرّجلُ فتقول: العاقلَ اللبيبَ؛ أي ذكرتم العاقلَ اللبيبَ فهو نصب بإضمار أعني. وقيل يشربون عيناً. وقال الزجاج: المعنى من عين. ويقال؛ كافور وقافور. والكافور أيضاً: وعاء طلع النخل وكذلك الكُفُرَّى؛ قاله الأصمعيّ.

وأما قول الراعي:

تَكْسُو الْمَفَارِقَ واللَّبَّاتِ ذَا أَرَجٍ ... مِن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافورِ دَرَّاجِ

فإنّ الظبي الذي يكون منه المسك إنما يَرْعى سُنْبُل الطِّيب فجعله كافوراً. ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال الفراء: يشرب بها ويشربها سواء في المعنى، وكأنّ يشرب بها يَرْوَى بها ويَنْقع؛ وأنشد:

شَرِبْنَ بِماءِ البحرِ ثم تَرَفَّعتْ ... مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيج[1]

قال: ومثله فلان يتكلم بكلام حسن، ويتكلم كلاماً حسناً. وقيل: المعنى يشربها والباء زائدة . وقيل: الباء بدل «مِن» تقديره يشرب منها؛ قاله القتبيّ. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ فيقال: إن الرجل منهم ليمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره؛ وذلك قوله تعالى: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَاد اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ أي يُشقِّقونها شَقًّا كما يفجر الرجل النهر ها هنا وها هنا إلى حيث يريد . وعن ابن أبي نَجيح عن مجاهد ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم . وروى

(١) قائله أبو ذؤيب يصف السحابات، والباء في «بماء» بمعنى «من» و«متى» معناها «في» في لغة هذيل ونئيج: أي مر سريع مع صوت.

أبو مقاتل عن أبي صالح عن سعد عن أبي سهل[١] عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ [والأخرى الزنجبيل][٢] والأخريان نَضَّاختان من فوق العرش إحداهما التي ذكر الله [عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى][٣] «سَلْسَبِيلاً» والأخرى التَّسْنيم» ذكره الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول». وقال: فالتسنيم للمقربين خاصة شرباً لهم، والكافور للأبرار شرباً لهم؛ يمزج للأبرار من التسنيم شرابهم، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مِزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شرب، فما كان للأبرار مِزاج فهو للمقربين صِرف، وما كان للأبرار صِرف فهو لسائر أهل الجنة مِزاج. والأبرار هم الصادقون، والمقربون: هم الصديقون.

[٧] ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾.

[٩] ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي لا يُخلِفون إذا نَذَروا. وقال مَعْمَر عن قتادة: بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعُمْرة وغيره من الواجبات. وقال مجاهد وعكرمة: يوفون إذا نذروا في حقّ الله جلّ ثناؤه. وقال الفرّاء والجرجاني: وفي الكلام إضمار؛ أي كانوا يوفون بالنذر في الدنيا. والعرب قد تزيد مرّة «كان» وتحذف أخرى. والنذر: حقيقته ما أوجبه المكلّف على نفسه من شيء يفعله. وإن شئت قلت في حَدِّه: النذر: هو إيجاب المكلّف على نفسه من الطاعات، ما لو لم يوجبه لم يلزمه. وقال الكَلْبيّ: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» أي يتمّمون العهود والمعنى واحد؛ وقد قال الله تعالى:

(١) هذا السند في الأصول: أبو مقاتل عن صالح بن سعيد عن أبي سهل الخ وصوبناه من التذكرة للقرطبي..

(٢) الزيادة من «الدر المنثور».

(٣) الزيادة من «التذكرة» «والدر المنثور».

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أي أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج. وهذا يقوّي قول قتادة. وأن النذر يندرج فيه ما ألتزمه المرء بإيمانه من أمتثال أمر الله؛ قاله القُشيري. وروى أشهب عن مالك أنه قال: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» هو نذر العتق والصيام والصلاة. وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» قال: النذر: هو اليمين.

قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ﴾ أي يحذرون ﴿يَوْماً﴾ أي يوم القيامة. ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ أي عالياً داهياً فاشياً[١] وهو في اللغة ممتدّا: والعرب تقول: أستطار الصدع في القارورة والزجاجة وأستطال: إذا أمتد؛ قال الأعشى:

وبَانَتْ وقد أَسْأَرَتْ[٢] في الفُؤَا ... دِ صَدْعاً على نَأْيِهَا مُسْتَطِيرَا

ويقال: أستطار الحريق: إذا أنتشر. وأستطار الفجر إذا أنتشر الضوء.

وقال حسّان:

وهَانَ على سَرَاة بنِي لُؤَيٍّ ... حريق بالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ[٣]

وكان قتادة يقول: أستطار واللّهِ شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. وقال مقاتل: كان شره فاشياً في السموات فأنشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وفي الأرض نُسِفت الجبالُ وغارت المياهُ.

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ قال أبن عباس ومجاهد؛ على قِلّته وحبّهم إياه وشهوتهم له. وقال الدّاراني: على حبّ الله. وقال الفُضَيل بن عِياض: على حبّ إطعام الطعام. وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سُكَّراً فإن الربيع يحب السكر. ﴿مِسْكِيناً﴾ أي ذا مسكنة. وروى أبو صالح عن أبن عباس قال: هو الطوّاف يسألك مَالَكَ ﴿وَيَتِيماً﴾ أي من يتامى المسلمين. وروى منصور عن الحسن: أن

---

(١) في أ، ح، ل، و: «قاسيا» وهو تحريف. (٢) ويروى: أورثت.

(٣) سراة بني لؤي أي خيارهم. والبويرة: موضع ببني قريظة، يشير إلى ما فعله المسلمون ببني قريظة.

يتيماً كان يحضر طعام ٱبن عمر، فدعا ذات يوم بطعامه، وطلب اليتيم فلم يجده، وجاءه بعدما فرغ ٱبن عمر من طعامه فلم يجد الطعام، فدعا له بسَوِيق وعسل؛ فقال: دونك هذا، فوالله ما غُبِنتَ؛ قال الحسن وٱبن عمر: والله ما غُبِن. ﴿وَأَسِيراً﴾ أي الذي يؤسر فيحبس. فروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم. وقاله قتادة. وروى ٱبن أبي نجيح عن مجاهد قال: الأسير هو المحبوس. وكذا قال سعيد بن جُبير وعطاء: هو المسلم يُحبس بحقّ. وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وٱبن عباس. قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وأن أسراهم يومئذٍ لأهلُ الشّرك، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه. وقال عِكرمة: الأسير العبد. وقال أبو حمزة الثُّمَالي: الأسير المرأة، يدلّ عليه قوله عليه السلام: «ٱستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عَوَانٍ عندكم» أي أسيرات. وقال أبو سعيد الخُدري: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ فقال: «المسكين الفقير، واليتيم الذي لا أب له، والأسير المملوك والمسجون» ذكره الثعلبي. وقيل: نسخ إطعام المسكين آية الصدقات؛ وإطعام الأسير [آية] السيف؛ قاله سعيد بن جُبير. وقال غيره: بل هو ثابت الحكم، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلاّ أن يتخير فيه الإمام. الماورديّ: ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل؛ لأنه في أسر خَبْله وجنونه، وأسر المشرك ٱنتقام يقف على رأي الإمام؛ وهذا بِرٌّ وإحسان. وعن عطاء قال: الأسير من أهل القبلة وغيرهم.

قلت: وكأنّ هذا القول عام يجمع جميع الأقوال، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى، غير أنه من صدقة التطوع، فأما المفروضة فلا. والله أعلم. ومضى القول في المسكين واليتيم والأسير وٱشتقاق ذلك من اللغة في « البقرة»[1] مستوفًى والحمد لله.

---

(١) راجع ٢/ ١٤ فما بعدها، وص ٢١.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ» في الله جلّ ثناؤه فزعاً من عذابه وطمعاً في ثوابه. ﴿لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً﴾ أي مكافأة. ﴿وَلاَ شُكُوراً﴾ أي ولا أن تثنوا علينا بذلك؛ قال ٱبن عباس: كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا. وعن سالم عن مجاهد قال: أما إنهم ما تكلّموا به ولكن علمه الله جلّ ثناؤه منهم فأثنى به عليهم؛ ليرغب في ذلك راغب. وقاله سعيد بن جُبير حكاه عنه القُشيريّ. وقيل: إن هذه الآية نزلت في مُطْعم بن ورقاء الأنصاريّ نذر نذراً فوفّى به. وقيل: نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعليّ والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة رضي الله عنهم؛ ذكره الماورديّ. وقال مقاتل: نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً. وقال أبو حمزة الثُّمَالي: بلغني أن رجلاً قال يا رسول الله أطعمني فإني واللّهِ مجهود؛ فقال: «والذي نفسي بيده ما عندي ما أطعمك ولكن ٱطلب» فأتى رجلاً من الأنصار وهو يتعشى مع ٱمرأته فسأله، وأخبره بقول النبي ﷺ؛ فقالت المرأة: أطعمه وٱسقِه. ثم أتى النبي ﷺ يتيم فقال: يا رسول الله! أَطعمني فإني مجهود. فقال: «ما عندي ما أطعمك ولكن ٱطلب» فٱستطعم ذلك الأنصاريّ فقالت المرأة: أطعمه وٱسقِه، فأطعمه. ثم أتى النبي ﷺ أسير فقال: يا رسول الله! أطعمني فإني مجهود. فقال؛ «والله ما معي ما أطعمك ولكن ٱطلب» فجاء الأنصاريّ فطلب، فقالت المرأة: أطعمه وٱسقِه. فنزلت: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ ذكره الثعلبيّ. وقال أهل التفسير: نزلت في عليّ وفاطمة رضي الله عنهما وجارية لهما ٱسمها فضة.

قلت: والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومَن فعل فعلاً حسناً؛ فهي عامة. وقد ذكر النقاش والثّعلبيّ والقشيريّ وغير واحد من المفسّرين في قصة عليّ وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصح ولا يثبت، رواه ليث عن مجاهد عن ٱبن عباس في قوله عزّ وجلّ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ قال:

مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله ﷺ، وعادهما عامة العرب؛ فقالوا: يا أبا الحسن ـ ورواه جابر الجُعْفيّ عن قَنْبَر مولى عليّ قال: مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبا الحسن ـ رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم ـ لو نذرتَ عن ولديك شيئاً، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء. فقال رضي الله عنه: إن بَرأ ولداي صمتُ لله ثلاثة أيام شكراً. وقالت جارية لهم نوبية: إن بَرأ سيِّداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً. وقالت فاطمة مثل ذلك. وفي حديث الجُعْفيّ فقال الحسن والحسين: علينا مثل ذلك فأُلبِس الغلامان العافية، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فانطلق عليّ إلى شمعون بن حاريا الخيبريّ، وكان يهودياً، فاستقرض منه ثلاثة أصوُع من شعير، فجاء به، فوضعه ناحية البيت، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه. وفي حديث الجُعْفيّ: فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحد منهم قرص، فلما مضى صيامهم الأوّل وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش؛ إذ أتاهم مسكين، فوقف بالباب وقال: السلام عليكم أهلَ بيت محمد ـ في حديث الجُعْفي ـ أنا مسكين من مساكين أمة محمد ﷺ، وأنا والله جائع؛ أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه عليّ رضي الله عنه، فأنشأ[1] يقول:

فاطمَ ذاتَ الفضلِ واليقينْ: يا بنت خير الناسِ أجمعينْ
أما تَرَينَ البائسَ المسكينْ قد قام بالباب له حنينْ
يشكو إلى الله ويستكينْ يشكو إلينا جائعٌ حزينْ
كل امرىء بكسبه رهينْ وفاعل الخيرات يستبِينْ

---

(١) هذه الأبيات والتي بعدها كل النسخ مجمعة على تحريفها، ولقد أحسن أبو حيان إذ يقول فيها: وذكر النقاش في ذلك حكاية طويلة جداً، ظاهرة الاختلاق، وفيها أشعار للمسكين واليتيم والأسير يخاطبون بها بيت النبوّة، وأشعار لفاطمة رضي الله عنها تخاطب كل واحد منهم، ظاهرها الاختلاق لسفساف ألفاظها وكسر أبياتها وسخافة معانيها. وسيأتي للمؤلف رحمه الله ما يضعف هذا الحديث ويزيفه.

مـوعِـدُنـا جَنّـة عِلّيـين حـرّمها الله علـى الضَّنِيـن
وللبخِيـل مـوقِـفٌ مهيـن تَهـوِي بِـهِ النـار إلـى سِجّيـن
شـرابـه الحميـم والغِسْليـن مـن يفعـلِ الخيـرَ يقـم سميـن
ويَدْخُلِ الجنةَ أيّ حِين

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أمرُكَ عندي يابن عَمٍّ طاعة ما بِيَ من لُؤْم ولا وَضَاعة
غَـدَيْـتُ فـي الخبـز لـه صناعـة أُطعِمـه ولا أُبـالـي السَّـاعـة
أرجـو إذا أشبعـتُ ذا المَجَـاعـة أَنْ أَلحـقَ الأخيـارَ والجَمَـاعـة
وأدخلَ الجنةَ لي شَفاعة

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح، فلما أن كان في اليوم الثاني قامت إلى صاع فطحنته واختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم؛ فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، يتيم من أولاد المهاجرين استشهد والدي يوم العَقَبة(١). أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه عليّ فأنشأ يقول:

فـاطِـمَ بنـتَ السّيـدِ الكـريـمْ بنـتَ نبِـيٍّ ليـس بـالـزَّنِيـمْ
لقـد أتـى الله بِـذِي اليتيـمْ مـن يـرحـم اليـوم يكـن رحِيـمْ
ويـدخـل الجنـة أي سلِيـمْ قـد حـرم الخلـدُ علـى اللئيـمْ
ألاَّ يَحـوزَ الصـراطَ المستقيـمْ يـزلّ فـي النـار إلـى الجحيـمْ
شرابهُ الصديدُ والحميمْ

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول:

أطعِمـه اليـوم ولا أبـالِـي وأوثـر اللّـهَ علـى عيـالـي
أَمسَـوْا جيـاعـاً وَهُـمُ أَشْبَـالـي أصغـرُهـم يُقتَـلُ فـي القِتـالِ

---

(١) كذا في الأصل.

بِكَــرْبَــلاَ يُقتَــلُ بــاْغْتِيَــالِ يــا ويــلُ لِلقــاتِــل مَــعْ وَبَــالِ
تَهْــوى بــه النــار إلــى سِفــالِ وفــي يــديــهِ الغُــلّ والأغــلال
كبولة زادت على الأكبالِ

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح؛ فلما كانت في اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقي فطحنته واْختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم؛ إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، تأسروننا وتَشُدُّوننا ولا تُطْعِموننا! أطعموني فإنّي أسير محمد. فسمعه عليّ فأنشأ يقول:

فــاطــم يــا بنــتَ النبــيِّ أحمــدْ بنــت نبــيٍّ سيِّــدٍ مُسَــوَّدْ
وسمـــاه الله فهـــو محمـــد قــد زانــه الله بِحســنٍ أغيــدْ
هــذا أسِيــرٌ للنبــيّ المهتــدْ مُثقَّــلٌ فــي غُلّــه مُقيَّــدْ
يَشكــو إلينــا الجــوعَ قــد تمــددْ مــن يُطعِــمِ اليــوم يجِــده فــي غــدْ
عنــد العلــيّ الــواحــدِ المــوحّــدْ مــا يــزرع الــزارعُ ســوف يَحصُــدْ
أعطيه لا لا تجعليِه أقعد

فأنشأت فاطمة رضي الله تعالى عنها تقول:

لــم يَبْــقَ مِمّــا جــاء غيــرُ صــاعْ قــد ذهبــت كَفّــي مــع الــذِّراعْ
اْبنــايَ والله هُمَــا جِيَــاعْ يــا ربّ لا تتــركهمــا ضيــاعْ
أبــوهمــا للخيــر ذو اْصطنــاعْ يَصطنِــع المعــروفَ بــابتــداعْ
عَبْــلُ الــذِّراعيــن شــديــد البــاعْ ومــا علــى رأسِــيَ مِــن قِنــاعْ
إلاّ قناعاً نَسْجُه أنْسَاعْ(١)

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح، فلما أن كان في اليوم الرابع، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن، وبيده اليسرى الحسين، وأقبل نحو

(١) النسع ـ بالكسر ـ: سير يضفر على هيئة أعنة النعال، تشد به الرحال.

رسول الله ﷺ وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع؛ فلما أبصرهم رسول الله ﷺ قال: «يا أبا الحسن ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم ٱنطلق بنا إلى ٱبنتي فاطمة» فانطلقوا إليها وهي في محرابها، وقد لصق بطنها بظهرها، وغارت عيناها من شدة الجوع، فلما رآها رسول الله ﷺ وعرف المجاعة في وجهها بكى وقال: «واغوثاه يا الله، أهلُ بيت محمد يموتون جوعاً» فهبط جبريل عليه السلام وقال: السلام عليك، ربك يقرئك السلام يا محمد، خذه هنيئاً في أهل بيتك. قال: «وما آخذ يا جبريل» فأقرأه ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول: فهذا حديث مُزوَّق مُزيَّف، قد تَطرَّف فيه صاحبه حتى تَشبَّه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهفاً ألاّ يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم؛ وقد قال الله تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك، وجرت الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترة بأن «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى». «وٱبدأ بنفسك ثم بمن تعول» وٱفترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يَقُوت» أفيحسب عاقل أن عليّا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن؟ حتى تَضوَّروا من الجوع، وغارت العيون منهم؛ لخلاء أجوافهم، حتى أبكى رسول الله ﷺ ما بهم من الجهد. هَبْ أنه آثَرَ على نفسه هذا السائل، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك؟! وهَبْ أنّ أهله سمحت بذلك لعليّ فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن؟! ما يرُوج مثل هذا إلا على حَمْقى جهّال؛ أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعليّ مثل هذا. وليت شعري من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن عليّ وفاطمة، وإجابة كل واحد منهما صاحبه، حتى أدّاه إلى هؤلاء الرواة؟! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى. بلغني أن قوماً

يُخلَّدون في السجون فيبقون بلا حيلة، فيكتبون أحاديث في السَّمَر وأشباهه، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة، فإذا صارت إلى الجهابذة رمَوا بها وزَيَّفوها، وما من شيء إلا له آفة ومكيدة، وآفة الدِّين وكيُده أكثر.

[١٠] ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ «عَبُوساً» من صفة اليوم، أي يوماً تعبِس فيه الوجوه من هوله وشدته، فالمعنى نخاف يوماً ذا عبوس. وقال ٱبن عباس يعبس الكافر يومئذٍ حتى يسيلَ منه عرَق كالقطران. وعن ٱبن عباس: العَبُوس: الضَّيِّق، والقَمْطَرِير: الطويل؛ قال الشاعر:

شدِيداً عبوساً قَمْطَرِيراً

وقيل: القَمْطرير الشديد؛ تقول العرب: يوم قَمْطرير وقُمَاطِر وعَصِيب بمعنًى؛ وأنشد الفرّاء:

بنِي عَمِّنَا هل تَذْكُرونُ بَلاَءَنَا عليكُم إذا ما كان يومٌ قُمَاطِرُ

بضم القاف. وٱقْمَطَرَّ إذا ٱشتدّ. وقال الأخفش: القمطرير: أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء؛ قال الشاعر:

ففرُّوا إذا ما الحرب ثار غُبارُها ولَجَّ بها اليومُ العَبُوسُ القُمَاطِرُ

وقال الكسائي: يقال ٱقْمَطَرّ اليومُ وٱزْمَهَرَّ ٱقمِطراراً وٱزمِهراراً، وهو القمطرير والزمهرير، ويوم مُقْمَطِرّ إذا كان صعباً شديداً؛ قال الهذليّ[1]:

بَنُو الحرْبِ أرْضِعْنا لهم مُقْمَطِرَّةٌ ومَنْ يُلْقَ مِنّا ذلكَ اليومَ يَهْرُبِ

(١) البيت لحذيفة بن أنس الهذلي، والذي في ديوان الهذليين:

بنو الحرب أرضعنا بها مقمطرة ومن يلق منا يلق سيد مدرب

أرضعنا مبني للمجهول. مقمطرة: من أقمطرت الناقة إذا لقحت. ويلق بني للمجهول في اللفظين. والسيد عند هذيل: الأسد. والمدرب: الضاري.

وقال مجاهد: إنّ العبُوس بالشفتين، والقمطرير بالجبهة والحاجبين؛ فجعلها من صفات الوجه المتغيّر من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد ٱبن الأعرابيّ:

يَغدُو على الصَّيْدِ يَعُودُ مُنْكَسِرْ   ويَقْمَطِــرُّ ســاعَــةً ويَكْفَهِــرّْ

وقال أبو عبيدة: يقال رجل قَمْطرير أي متقبض ما بين العينين. وقال الزجاج: يقال ٱقْمَطرَّت الناقةُ: إذا رَفَعت ذَنَبها وجَمَعت قُطْرَيها، وزَمَّت بأنفها؛ فٱشتقه مِن القُطْر، وجعل الميم مزيدة. قال أسد بن ناعِصة:

وٱصطليتُ الحروبَ في كلّ يومٍ   باسِـلِ الشَّرِّ قَمْطَـرِيـرِ الصبَّاحِ

قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي دفع عنهم ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي بأسه وشدته وعذابه ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أي أتاهم وأعطاهم حين لقُوه أي رأوه ﴿نَضْرَةً﴾ أي حسناً ﴿وَسُرُوراً﴾ أي حبوراً. قال الحسن ومجاهد: «نَضْرَةً» في وجوههم «وَسُروراً» في قلوبهم. وفي النضرة ثلاثة أوجه: أحدها - أنها البياض والنقاء؛ قاله الضحاك. الثاني - الحسن والبهاء؛ قاله ٱبن جبير. الثالث - أنها أثر النعمة؛ قاله ٱبن زيد.

[١٢] ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

[١٣] ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾.

[١٤] ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ على الفقر. وقال القرظيّ: على الصوم. وقال عطاء: على الجوع ثلاثة أيام وهي أيام النذر. وقيل: بصبرهم على طاعة الله، وصبرهم على معصية الله ومحارمه. و «ما»: مصدرية، وهذا على أن الآية نزلت في جميع الأبرار ومن فعل فعلاً حسناً. وروى ٱبن عمر أن رسول الله ﷺ سئل عن الصبر فقال: «الصبر أربعة: أوّلها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على ٱجتناب محارم الله، والصبر على المصائب». ﴿جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير. أي يسمى

(١) في أ، ح: «وروى».

بحرير الدنيا وكذلك الذي في الآخرة [وفيه] ما شاء الله عزّ وجلّ من الفضل. وقد تقدم[١]: أن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإنما أُلبسه من أُلبسه في الجنة عوضاً عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرم الله فيها.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ أي في الجنة؛ ونصب «مُتَّكِئِينَ» على الحال من الهاء والميم في «جَزَاهُمْ» والعامل فيها جزى ولا يعمل فيها «صَبَرُوا»؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا والاتكاء في الآخرة. وقال الفرّاء. وإن شئت جعلت «مُتَّكِئِينَ» تابعاً، كأنه قال جزاهم جنة «مُتَّكِئِينَ فِيهَا». ﴿عَلَى ٱلْأَرَائِكِ﴾ السُّرُر في الحِجَال وقد تقدم[٢]. وجاءت عن العرب أسماء تحتوي على صفات: أحدها الأريكة لا تكون إلا في حَجَلة على سرير، ومنها السَّجْل، وهو الدّلو الممتلىء، ماءً، فإذا صَفِرت لم تُسمَّ سَجْلاً، وكذلك الذَّنُوب لا تُسمَّى ذَنُوباً حتى تُملأ، والكأس لا تسمى كأساً حتى تُتْرَع من الخمر، وكذلك الطَّبَق الذي تُهدَى عليه الهدية مِهْدَى، فإذا كان فارغاً قيل طَبَق أو خِوان؛ قال ذو الرُّمَّة:

خُدُودٌ جَفَتْ في السَّيْرِ حتَّى كأنَّمَا ... يُبَاشِرْنَ بِالْمَعْزَاءِ مَسَّ الأرائِكِ[٣]

أي الفرش على السرر. ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً﴾ أي لا يرون في الجنة شدة حرٍّ كحرِّ الشمس ﴿وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ أي ولا برداً مفرطاً؛ قال الأعشى:

مُنَعَّمَـــةٌ طَفْلَـــةٌ كَـــالْمَهَـــا ... ةِ لَمْ تَرَ شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيرَا[٤]

وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشتكت النارُ إلى ربِّها عزّ وجلّ قالت: يا ربّ أكَلَ بعضي بعضاً، فجعل لها نَفَسين نَفَساً في الشتاء ونَفَساً في الصيّف، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدّة ما تجدون من الحرّ في الصيف

---

(١) راجع ١٢/١٩.

(٢) راجع ١٠/٣٩٨.

(٣) المعزاء: الأرض الصلبة. يقول: من شدة الحاجة إلى النوم يرون الأرض الصلبة ذات الحجارة مثل الفرش على الأرائك وهي السرر. ويروى: «خدودا» على أنه مفعول لفعل في البيت قبله.

(٤) الذي في ديوان الأعشى طبع أوروبا. مبتلة الخلق مثل المهاة.. الخ.

من سَمُومها». وعن النبي ﷺ أنه قال: «إن هواء الجنة سَجْسَج: لا حرٌّ ولا بردٌ» والسَّجْسَج: الظِّل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. وقال مُرَّة الهَمْداني: الزمهرير البرد القاطع. وقال مقاتل بن حيان: هو شيء مثل رءوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد. وقال ابن مسعود: هو لون من العذاب، وهو البرد الشديد، حتى إن أهل النار إذا أُلقوا فيه سألوا الله أن يعذّبهم بالنار ألف سنة أهونَ عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحداً. قال أبو النَّجْم:

أو كُنتُ ريحاً كُنتُ زَمْهَريراً

وقال ثعلب: الزَّمْهرير: القمر بلغة طيِّء؛ قال شاعرهم:

وليلةٍ ظَلاَمُهَا قدِ اعْتَكَرْ قَطَعْتُهَا والزَّمْهَرِيرُ ما زَهَرْ

ويروى: ما ظهر؛ أي لم يطلع القمر. فالمعنى لا يرون فيها شمساً كشمس الدنيا ولا قمراً كقمر الدنيا، أي إنهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار؛ لأن ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر. وقد مضى هذا المعنى مجوداً في سورة «مريم»[1] عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. وقال ابن عباس: بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نوراً ظنوه شمساً قد أشرقت بذلك النور الجنة، فيقولون: قال ربنا: ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ فما هذا النور؟ فيقول لهم رضوان: ليست هذه شمس ولا قمر، ولكن هذه فاطمة وعليّ ضحكا، فأشرقت الجنان من نور ضحكهما، وفيهما أنزل الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ وأنشد:

أنا مَوْلًى لِفَتًى أُنْزِلَ فيه هَلْ أَتَى
ذاكَ عليٌّ المُرْتَضَى وابنُ عَمٍّ المصطفَى

قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا﴾ أي ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار، فهي مُظِلّة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمَّ؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة،

(١) راجع ١١/١٢٧.

وإن كان لا وسخ ولا شَعث ثَمَّ. ويقال: إن ٱرتفاع الأشجار في الجنة مقدار مائة عام، فإذا ٱشتهى وليّ الله ثمرتها دانت حتى يتناولها. وٱنتصبت «دَانِيَةً» على الحال عطفاً على «مُتَّكِئِينَ» كما تقول: في الدار عبد الله متكئاً ومرسلة عليه الحجال. وقيل: ٱنتصبت نعتاً للجنة؛ أي وجزاهم جنةً دانيةً، فهي صفة لموصوف محذوف. وقيل: على موضع ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ ويرون دانيةً. وقيل: على المدح أي دنت دانيةً. قاله الفراء. «ظِلاَلُهَا» الظلال مرفوعة بدانية. ولو قرى برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لجاز، وتكون الجملة في موضع الحال من الهاء والميم في «وجَزَاهُمْ» وقد قرىء بذلك. وفي قراءة عبد الله «وَدَانِياً عَلَيْهِمْ» لتقدم الفعل. وفي حرف أبيّ «وَدَانٍ» رفع على الاستئناف ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ أي سُخِّرت لهم ﴿قُطُوفُها﴾ أي ثمارها ﴿تَذْلِيلاً﴾ أي تسخيراً، فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع، لا يرد أيديهم عنها بُعدٌ ولا شوك؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: إن قام أحد ٱرتفعت له، وإن جلس تدلّت عليه، وإن ٱضطجع دنت منه فأكل منها. وعنه أيضاً: أرض الجنة من وَرِق، وترابها الزعفران، وطيبها مسك أذفر، وأصول شجرها ذهب وورِق، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، والثمر تحت ذلك كله؛ فمن أكل منها قائماً لم تؤذِه، ومن أكل منها قاعداً لم تؤذِه، ومن أكل منها مضطجعاً لم تؤذِه. وقال ٱبن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد، وتذليل القطوف تسهيل التناول. والقطوف: الثمار، الواحد قِطف بكسر القاف، سمّي به لأنه يُقطَف، كما سمّي الجَنَى لأنه يُجنى. «تَذْلِيلاً» تأكيد لما وصف به من الذّل؛ كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾. الماورديّ: ويحتمل أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها، وتخلص لهم من نواها.

قلت: وفي هذا بعدٌ؛ فقد روى ٱبن المبارك، قال: أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس قال: نخل الجنة: جذوعها زُمُردٌ أخضر، وكَرَبُها ذهب أحمر، وسَعَفها كُسْوة لأهل الجنة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القلال والدِّلاء، أشدّ

بياضاً من اللَّبَن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبْد ليس فيه عَجَم. قال أبو جعفر النحاس: ويقال المذلَّل الذي قد ذلّله الماءُ أي أرواه. ويقال المذلّل الذي يُفَيِّئُهُ أدنى ريح لنَعْمته، ويقال المذلَّل المُسَوَّى؛ لأن أهل الحجاز يقولون: ذَلِّلْ نَخْلكَ أي سَوِّه، ويقال المُذَلَّل القريب المتناوَل؛ من قولهم: حائط ذَليلٌ أي قصير. قال أبو جعفر[١]: وهذه الأقوال التي حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها في قول ٱمرىء القيس:

وساقٍ كَأَنْبوبِ السَّقِيّ المُذَلَّلِ[٢]

[١٥] ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب ﴿بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ﴾ قال ٱبن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء؛ أي ما في الجنة أشرف وأعلى وأنقى. ثم لم تنف الأواني الذهبية بل المعنى يسقون في أواني الفضة، وقد يسقون في أواني الذهب. وقد قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وأَكْوَابٍ﴾. وقيل: نَبّه بذكر الفضّة على الذهب؛ كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أي والبرد؛ فنبّه بذكر أحدهما على الثاني. والأكواب: الكِيزان العظام التي لا آذان لها ولا عُرَى، الواحد منها كوب؛ وقال عَدِيّ:

مُتَّكِئاً تُقْرَعُ[٣] أبوابُهُ يَسْعَى عليهِ العبدُ بِالكُوبِ

وقد مضى في «الزخرف»[٤]. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي في صفاء القوارير وبياض الفضة؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضّة. وقيل: أرض الجنة

---

(١) كذا في نسخ الأصل. والذي في المطبوع: «أبو حنيفة». (٢) الأنبوب: البردى. والسقي: النخل المسقي. شبه ساق المرأة ببردى قد نبت تحت نخل، فالنخل يظله من الشمس، وذلك أحسن ما يكون منه. وصدر البيت: وكشح لطيف كالجديل مخصر

(٣) يروى: تخفق. بدل تقرع. (٤) راجع ١٦/ ١١١.

من فضّة، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها. ذكره ابن عباس وقال: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه، إلا القوارير من فضة. وقال: لو أخذت فضّة من فضّة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذُّبَاب لم ترَ من ورائها الماء، ولكن قوارير الجنة مثل الفضّة[1] في صفاء القوارير. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ قراءة العامة بفتح القاف والدال؛ أي قَدّرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أتوا بها على قدرِيِّهم؛ بغير زيادة ولا نقصان. الكلبي: وذلك ألذ وأشهى؛ والمعنى: قدّرتها الملائكة التي تطوف عليهم. وعن ابن عباس أيضاً: قدّروها على مِلء الكف لا تزيد ولا تنقص، حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر. وقيل: إن الشاربين قَدّروا لها مقادير في أنفسهم، على ما اشتهوا وقَدّروا. وقرأ عبيد بن عمير الشَّعْبي وابن سيرين «قُدِّروها» بضم القاف وكسر الدال؛ أي جعلت لهم على قدر إرادتهم. وذكر هذه القراءة المهدويّ عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما؛ وقال: ومن قرأ «قُدِّرُوهَا» فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى، وكأن الأصل قُدِّروا عليها فحذف الجر؛ والمعنى قُدِّرت عليهم؛ وأنشد سيبويه[2]:

آلَيْتَ حَبَّ العِراقِ الدَّهْرَ آكُلُهُ ... والْحَبُّ يأكله في القَرْيةِ السُّوسُ

وذهب إلى أن المعنى على حَبِّ العراق. وقيل: هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب؛ وذلك قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ أي لا يفضل عن الرّيّ ولا ينقص منه، فقد أُلهمت الأقداحُ معرفةَ مقدار رِيّ المشتهي حتى تغترف بذلك المقدار. ذكر هذا القول الترمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول».

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً﴾ وهي الخمر في الإناء. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً﴾ «كَانَ» صلة؛ أي مزاجها زنجبيل، أو كان في حكم الله زنجبيلاً. وكانت العرب تستلذ من

(١) أي في بياضها.

(٢) قائله المتلمس. ويروى: أطعمه. والرواية الصحيحة في «آليت» بالفتح لأنه يخاطب عمرو بن هند الملك، وكان قد أقسم ألا يطعم المتلمس حب العراق. فقال له المتلمس مستهزئاً آليت على حب العراق لا أطعمه، وقد وجدت منه بالشام ما يغنى عما عندك، فمنه هناك كثير، بحيث يأكله السوس. وأراد بالقرية الشام.

الشراب ما يُمزج بالزنجبيل لِطيب رائحتِه؛ لأنه يَحْذُو اللسان، ويهضم المأكول، فرغبوا في نعيم الآخرة بما ٱعتقدوه نهاية النِّعمة والطيب. وقال المسيَّب بن عَلَس يصف ثَغر المرأة:

وكَأنَّ طَعْمَ الزنجبيلِ بِهِ إذْ ذُقْتَهُ وَسَلاَفَةَ الخَمْرِ

ويروى: الكَرْم. وقال آخر(١):

كَأَنَّ جَنِيًّا مِن الزَّنْجَبِيـ ـلِ بَاتَ بِفِيهَا وَأرْياً مشُوراً

ونحوه قول الأعشى:

كَأَنَّ القَرَنْفُلَ والزَّنْجَبِيـ ـلَ بَاتَا بِفِيهَا وأرياً مَشُوراً

وقال مجاهد: الزنجبيل ٱسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار. وكذا قال قتادة: والزّنجبيل ٱسم العين التي يشرب بها المقربون صِرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة. وقيل: هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل. وقيل: إنّ فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل. والمعنى كأنّ فيها زنجبيلاً. ﴿عَيْناً﴾ بدل من كأس. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عيناً. ويجوز نصبه بإسقاط الخافض أي من عين على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾. ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ السَّلْسبيل الشراب اللذيذ، وهو فَعْلَلِيل من السَّلاَلة؛ تقول العرب: هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسَال وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنًى؛ أي طيّب الطعم لذيذه. وفي الصحاح: وتسلسل الماء في الحلق جرى، وسَلْسَلْتُه أنا صببته فيه، وماء سَلْسَل وسَلْسَال: سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، والسُّلاسل بالضم مثله. وقال الزجاج: السَّلْسَبيل في اللغة: اسم لما كان في غاية السَّلاَسة؛ فكأنّ العين سمّيت بصفتها. وعن مجاهد قال: سَلْسَبيلا: حديدة الجَرْية تسيل في حلوقهم ٱنسلالاً. ونحوه عن ٱبن عباس: إنها الحديدة الجَرْي. ذكره الماورديّ؛ ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

---

(١) الذي في ديوان الأعشى هذا البيت لا الذي بعده، وفيه: خالط فاها. . الخ والظاهر أن البيتين واحد واختلفت الرواية. والأرى: العسل.

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عليهمُ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ[١]

وقال أبو العالية ومقاتل: إنما سميّت سَلْسَبيلاً؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة. وقال قتادة: سلسلة منقاد ماؤها حيث شاءوا. ونحوه عن عِكرمة. وقال القَفَّال: أي تلك عين شريفة فَسَلْ سَبِيلاً إليها. وروي هذا عن عليّ رضي الله عنه. وقوله: «تسمَّى» أي إنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم. وصرف سلسبيل؛ لأنه رأس آية؛ كقوله تعالى: ﴿الظُّنُونَا﴾ و ﴿السَّبِيلاَ﴾.

[١٩] ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ بيّن مَن الذي يطوف عليهم بالآنية؛ أي ويخدمهم ولدان مُخلَّدون، فإنهم أخفُّ في الخدمة. ثم قال: «مُخَلَّدُونَ» أي باقون على ما هم عليه من الشَّباب والغَضَاضة والحُسْن، لا يَهْرَمون ولا يتغيّرون، ويكونون على سنّ واحدة على مَر الأزمنة. وقيل: مُخلَّدون لا يموتون. وقيل: مُسوَّرون مُقرَّطون؛ أي مُحلَّون والتخليد التحلية. وقد تقدم[٢] هذا. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ أي ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم: لؤلؤاً مفرقاً في عَرْصة المجلس، واللؤلؤ إذا نُثِر على بساط[٣] كان أحسن منه منظوماً. وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بُوران بنت الحسن بن سهل، وهو

(١) البريص: نهر بدمشق. وبردى نهر آخر بدمشق أيضاً أي ماء بردى. ويصفق: يمزج. والرحيق: الخمر البيضاء. (٢) راجع ١٧/٢٠٢.

(٣) في ل، و: «واللؤلؤ إذ نثر كان أحسن...».

على بساط منسوج من ذهب، وقد نثَرت عليه نساءُ دار الخليفة اللؤلؤَ، فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فٱستحسن المنظر وقال: للّهِ دَرُّ أبي نُواس كأنه أبصر هذا حيث يقول:

كأنَّ صُغْرى وكُبْرَى من فَقَاقِعها ... حَصْبَاءُ دَرٍّ على أرضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقيل: إنما شبههم بالمنثور؛ لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذا شبههنّ باللؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنهنّ لا يُمتهنّ بالخدمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْت نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ «ثَمَّ»: ظرف مكان أي هناك في الجنة، والعامل في «ثَمَّ» معنى «رَأَيْتَ» أي وإذا رأيت ببصرك «ثَمَّ». وقال الفرّاء: في الكلام «ما» مضمرة؛ أي وإذا رأيت ما ثَمّ؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ما بينكم. وقال الزجاج: «ما» موصولة بـ«ـثم» على ما ذكره الفرّاء، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصّلة، ولكن «رَأَيْتَ» يتعدّى في المعنى إلى «ثَمَّ» والمعنى: إذا رأيت ببصرك «ثَمَّ» ويعني بـ«ـثَمَّ» الجنة، وقد ذكر الفرّاء هذا أيضاً. والنعيم: سائر ما يُتنعّم به. والمُلْك الكبير: ٱستئذان الملائكة عليهم؛ قاله السُّديّ وغيره. قال الكلبيّ: هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى وليّ الله وهو في منزله، فيستأذن عليه؛ فذلك المُلْك العظيم. وقاله مقاتل بن سليمان. وقيل: المُلْك الكبير: هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجباً، حاجباً دون حاجب، فبينما وليّ الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه مَلَك من عند الله، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتحفةٍ من ربّ العالمين لم يرها ذلك الوليّ في الجنة قطّ، فيقول للحاجب الخارج: ٱستأذن على وليّ الله فإن معي كتاباً وهدية من ربّ العالمين. فيقول هذا الحاجب للحاجب الذي يليه: هذا رسول من ربِّ العالمين، ومعه كتاب وهديّة يستأذن على وليّ الله؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذي يلي وليّ الله فيقول له: يا وليّ الله! هذا رسول من ربّ العالمين يستأذن عليك، معه كتاب وتُحْفة من ربّ العالمين أفيؤذن له؟ فيقول: نعم! فأذنوا له. فيقول ذلك الحاجب الذي يليه: نَعَم فأذنوا له[1]. فيقول الذي يليه للآخر كذلك حتى يبلغ

(١) في أ، ح، ل: «فقاربوا له».

الحاجب الآخر، فيقول له: نَعَم أيها المَلك؛ قد أذن لك، فيدخل فيسلّم عليه ويقول: السَّلامُ يُقرئك السَّلام، وهذه تحفة، وهذا كتاب من رب العالمين إليك. فإذ هو مكتوب عليه: من الحيّ الذي لا يموت، إلى الحيّ الذي يموت. فيفتحه فإذا فيه: سلام على عبدي ووليي ورحمتي وبركاتي. يا وليي أما آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربّك؟ فيستخفه الشوق فيركب البُرَاق فيطير به البُرَاق شوقاً إلى زيارة علام الغيوب، فيعطيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقال سفيان الثوريّ: بلغنا أن المُلْك الكبير تسليم الملائكة عليهم؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾. وقيل: المُلْك الكبير كون التّيجان على رءوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك. وقال الترمذيّ الحكيم: يعني مُلْك التكوين، فإذا أرادوا شيئاً قالوا له كن. وقال أبو بكر الورّاق: مُلْك لا يتعقبه هُلْك. وفي الخبر عن النبي ﷺ: «إنّ الملك الكبير هو [أنّ][١] أدناهم منزلة ينظر في مُلْكه مسيرة ألفي عام، يَرَى أقصاه كما يرى أدناه» قال: «وإن أفضلهم منزلة مَن ينظر في وجه ربّه تعالى كل يوم مرتين» سبحان المنعم[٢].

قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قرأ نافع وحمزة وٱبن محيصن «عاليِهم» ساكنة الياء، وٱختاره أبو عبيد ٱعتباراً بقراءة ٱبن مسعود وٱبن وثاب وغيرهما «عَالِيَتُهُمْ» وبتفسير ٱبن عباس: أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يعلوها أفضل منها. الفراء: وهو مرفوع بالابتداء وخبره «ثِيَابُ سُنْدُسٍ» وٱسم الفاعل يراد به الجمع. ويجوز في قول الأخفش أن يكون[٣] إفراده على أنه ٱسم فاعل متقدّم و «ثيَابُ» مرتفعة به وسَدّت مسدّ الخبر، والإضافة فيه في تقدير الانفصال لأنه لم يُخَصّ، وٱبتدىء به لأنه اختصّ بالإضافة. وقرأ الباقون «عَالِيَهُمْ» بالنصب. وقال الفراء: هو كقولك فَوْقَهم، والعرب تقول: قومُك داخلَ الدارِ فينصبون داخل على الظرف، لأنه مَحلّ. وأنكر الزجاج هذا وقال: هو مما لا نعرفه في الظروف، ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء، ولكنه بالنصب على الحال من شيئين: أحدهما ـ الهاء والميم في قوله:

---

(١) زيادة يقتضيها المعنى.
(٢) جملة: «سبحان المنعم»: في الأصل المطبوع.
(٣) جملة: «أن يكون» ساقطة من الأصل.

«يطُوفُ عَلَيْهِمْ» أي على الأبرار «وِلْدَانٌ» عالياً الأبرارَ ثيابُ سندسٍ؛ أي يطوف عليهم في هذه الحال، **والثاني** - أن يكون حالاً من الولدان؛ أي ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ في حال علوّ الثياب أبدانهم. وقال أبو عليّ: العامل في الحال إمّا ﴿لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ وإمّا ﴿جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ قال: ويجوز أن يكون ظرفاً فصُرِف. المهدوي: ويجوز أن يكون ٱسم فاعل ظرفاً؛ كقولك هو ناحيةَ من الدار، وعلى أن عالياً لما كان بمعنى فوق أُجْرِي مُجْراه فجعل ظرفاً. وقرأ ٱبن محيصن وٱبن كثير وأبو بكر عن عاصم «خُضْرٍ» بالجر على نعت السُّنْدس «وَإِسْتَبْرَقٌ» بالرفع نَسْقاً على الثياب، ومعناه عاليهم [ثيابُ][1] سندسٍ وإستبرقٌ. وقرأ ٱبن عامر وأبو عمرو ويعقوب «خُضْرٌ» رفعاً نعتاً للثياب «وَإِسْتَبْرَقٍ» بالخفض نعتاً للسُّنْدس، وٱختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لجودة معناه؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتاً للثياب فهي مرفوعة، وأحسن ماعطف الإستبرق على السُّنْدس عطف جنس على جنس، والمعنى؛ عاليَهم ثيابٌ خُضْرٌ مِن سندسٍ وإستبرقٍ، أي من هذين النوعين. وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع ويكون «خُضْرٌ» نعتاً للثياب؛ لأنهما جميعاً بلفظ الجمع «وإِسْتَبْرَقٌ» عطفاً على الثياب. وقرأ الأعمش وٱبن وَثّاب وحمزة والكسائيّ كلاهما بالخفض ويكون قوله: «خُضْرٍ» نعتاً للسُّندس، والسُّندس ٱسم جنس، وأجاز الأخفش وصف ٱسم الجنس بالجمع على ٱستقباح له؛ وتقول: أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدرهمُ البِيضُ؛ ولكنه مستبعد في الكلام. والمعنى على هذه القراءة: عالِيهم ثِيابُ سُندسٍ خضرٍ وثيابُ إستبرقٍ. وكلهم صرف الإستبرق إلا ٱبن محيصن، فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ «وإستبرقَ» نصباً في موضع الجر، على منع الصرف، لأنه أعجمي، وهو غلط؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم [ٱبن محيصن][2] أنه قد يجعل علماً لهذا الضرب من الثياب. وقرىء «وَٱسْتَبْرَقَ» بوصل الهمزة والفتح على أنه سُمِّي بٱستفعل من البريق، وليس بصحيح أيضاً؛ لأنه مُعرَّب مشهور تعريبه، وأن أصله ٱسْتَبْرَكَ[3] والسُّندس: ما رَقّ من الديباج. والإستبرق: ما غَلُظ منه. وقد تقدّم[4].

---

(١) زيادة تقتضيها العبارة. (٢) زيادة من أ، ح. (٣) في الأصل إستبرق، وهو تحريف والتصويب من القاموس الفارسي. وفي الألفاظ الفارسية وشرح القاموس أصله: «استبره».

(٤) راجع ١٠/٣٩٧ و ١٧/١٧٩.

قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوا﴾ عطف على «وَيَطُوفُ». ﴿أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وفي سورة فاطر ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَمِنْ ذَهَبٍ﴾ وفي سورة الحج ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾، فقيل: حُليّ الرجل الفضة وحُليّ المرأة الذهب. وقيل: تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضّة. وقيل: يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضّة وسواران من لؤلؤ، ليجتمع لهم محاسن الجنة؛ قاله سعيد بن المسيّب. وقيل: أي لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم. ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ قال عليّ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ قال: إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مرّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فتجري عليهم بنضرة النَّعيم، فلا تتغير أبشارهم، ولا تتشعث أشعارهم أبداً، ثم يشربون من الأخرى، فيخرج ما في بطونهم من الأذى، ثم تستقبلهم خَزنة الجنة فيقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. وقال النَّخعيّ وأبو قِلابة: هو إذا شربوه بعد أكلهم طَهَّرهم، وصار ما أكلوه وما شربوه رَشْحَ مِسْكٍ، وضَمَرت بطونهم. وقال مقاتل: هو من عينٍ ماء على باب الجنة، تنبع من ساق شجرة، من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غِلّ وغشٍّ وحسدٍ، وما كان في جوفه من أذًى وقذر. وهذا معنى ما روي عن عليّ، إلا أنه في قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فعولاً للمبالغة، ولا يكون فيه حجة للحنفي أنه بمعنى الطاهر. وقد مضى بيانه في سورة «الفرقان»(١) والحمد لله. وقال طَيِّب الجمَّال: صَلَّيْتُ خَلْف سهل بن عبد الله العَتَمة، فقرأ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ وجعل يُحرِّك شفتيه وفمه، كأنه يَمصُّ شيئاً، فلما فرغ قيل له: أتشرب أم تقرأ؟ فقال؛ والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي يقال لهم: إنما هذا جزاء لكم أي ثواب. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ﴾ أي عملكم ﴿مَشْكُوراً﴾ أي من قبل الله، وشكره للعبد قبول طاعته، وثناؤه عليه، وإثابته إياه. وروى سعيد عن قتادة قال: غفر لهم الذَّنب وشَكَر لهم الحُسْنى. وقال

(١) راجع ٣٩/١٣.

مجاهد: «مَشْكُوراً» أي مقبولاً والمعنى متقارب؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم. روي عن ابن عمر: أن رجلاً حَبَشِيًّا قال: يا رسول الله! فُضِّلتم علينا بالصُّوَر والألوان والنبوّة، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنت به، وعملت بما عملت، أكائن أنا معك في الجنة؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده إنه لَيُرَى بياض الأسود في الجنة وضياؤه من مسيرة ألف عام» ثم قال النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عَهْد، ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة»، فقال الرجل: كيف نهلك بعدها[1] يا رسول الله؟ فقال: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله. فتجيء النعمة من نِعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يلطف[2] الله برحمته». قال: ثم نزلت ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿ومُلْكاً كَبِيراً﴾ قال الحبشيّ: يا رسول الله! وإن عينيّ لترى ما ترى عيناك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «نعم» فبكى الحبشيّ حتى فاضت نَفْسه. وقال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدْليه في حفرته ويقول: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ قلنا: يا رسول الله وما هو؟ قال: «والذي نفسي بيده لقد أوقفه الله ثم قال أي عبدي لأبيضنّ وجهك ولأبوِّئنّك من الجنة حيث شئت، فنعم أجر العاملين».

[٢٣] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ ما افتريتَه ولا جئتَ به من عندك، ولا من تلقاء نفسك، كما يدّعيه المشركون. ووجه اتصال هذه الآية بما قبلُ أنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعيد، بيّن أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه، فليس بسحر

(١) في أ، ح، و: «بعد هذا». (٢) في ز، ط، ل: يتعطف.

ولا كَهانة، ولا شِعر، وأنه حقّ. وقال ٱبن عباس: أنزل القرآن متفرّقاً: آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة؛ فلذلك قال «نَزَّلْنَا» وقد مضى القول في هذا مبيناً[١] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لقضاء ربك. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: ٱصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت. ثم نسخ بآية القتال. وقيل: أي ٱصبر لما حكم به عليك من الطاعات، أو ٱنتظر حكم الله إذ وعَدَك أنه ينصرك عليهم، ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة. ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً﴾ أي ذا إثم ﴿أَوْ كَفُوراً﴾ أي لا تطع الكفار، فروى مَعْمَر عن قتادة قال: قال أبو جهل: إن رأيتُ محمداً يُصلّي لأطأنّ على عنقه. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾. ويقال: نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يَعرضان عليه الأموال والتزويج، على أن يترك ذكر النبوّة، ففيهما نزلت: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾. قال مقاتل: الذي عرض التزويج عُتبة بن ربيعة؛ قال: إن بناتي من أجمل نساء قريش، فأنا أزوّجك ٱبنتي من غير مهر وٱرجع عن هذا الأمر. وقال الوليد: إن كنت صنعت ما صنعت لأجل المال، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وٱرجع عن هذا الأمر؛ فنزلت. ثم قيل: «أو» في قوله تعالى: ﴿آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ أوْكَد من الواو: لأن الواو إذا قلت: لا تطع زيداً وعمراً فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين، فإذا قال: ﴿لاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ فـ «ـأو» قد دلّت على أن كل واحد منهما أهل أن يُعصَى؛ كما أنك إذا قلت: لا تخالف الحسن أو ٱبن سيرين، أو ٱتبع الحسن أو ٱبن سيرين فقد قلت: هذان أهل أن يُتَّبعا وكل واحد منهما أهل لأن يُتَّبع؛ قاله الزجاج. وقال الفرّاء: «أو» هنا بمنزلة «لا» كأنه قال: ولا كفوراً؛ قال الشاعر:

لاَ وَجْدُ ثَكْلَى كما وَجَدْتُ وَلاَ ... وَجْـدُ عَجُـولٍ أَضَلَّهَـا رُبَـعُ[٢]
أَوْ وَجْـدُ شيـخٍ أَضَـلَّ نـاقتَـهُ ... يَـوْمَ تَـوَافَـى الحجيجُ فـٱنـدفَعُوا

---

(١) راجع ١٣/٢٩.

(٢) العجول من النساء والإبل: الواله التي فقدت ولدها، سميت بذلك لعجلتها في جيئتها وذهابها جزعاً، وهي هنا الناقة. والربع: كمضر؛ الفصيل ينتج في الربيع.

أراد ولا وجد شيخ. وقيل: الآثم المنافق، والكفور الكافر الذي يظهر الكفر؛ أي لا تطع منهم آثماً ولا كفوراً. وهو قريب من قول الفراء.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي صلِّ لربّك أول النهار وآخره، ففي أوّله صلاة الصبح وفي آخره صلاة الظهر والعصر. ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ يعني التطوّع في الليل؛ قاله ٱبن حبيب. وقال ٱبن عباس وسفيان: كلّ تسبيح في القرآن فهو صلاة. وقيل: هو الذكر المطلق سواء كان في الصلاة أو في غيرها. وقال ٱبن زيد وغيره: إن قوله: «وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً» منسوخ بالصلوات الخمس. وقيل: هو ندب. وقيل؛ هو مخصوص بالنبي ﷺ. وقد تقدّم القول في مثله في سورة «المزمل»[1] وقول ٱبن حبيب حسن. وجمع الأصيل: الأصائل والأُصُل؛ كقولك سَفَائن وسُفُن؛ قال:

ولا بأحسنَ منها إذ دنا ٱلأُصُلُ

وقال[2] في الأصائل، وهو جمع الجمع:

لَعَمْرِي لأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهْلَهُ وأَقعـدُ فـي أَفْيَـائِـهِ بِـالأَصَـائِـلِ

وقد مضى هذا في آخر «الأعراف»[3] مستوفًى. ودخلت «مِن» على الظرف للتبعيض، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾.

[٢٧] ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

[٢٨] ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾: توبيخ وتقريع، والمراد أهل مكة. والعجلة الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي ويدعون ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ أي بين أيديهم ﴿يَوْماً ثَقِيلاً﴾

---

(١) راجع ص ٣٨ من هذا الجزء.

(٢) قاله أبو ذؤيب الهذلي.

(٣) راجع ٧/ ٣٥٥.

أي عسيراً شديداً كما قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يتركون الإيمان بيوم القيامة. وقيل: «وَرَاءَهُمْ» أي خلفهم، أي ويذرون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يعملون لها. وقيل: نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ وصحة نبوّته. وحبهم العاجلة: أخذهم الرّشا على ما كتموه. وقيل: أراد المنافقين؛ لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا. والآية تعمّ. واليوم الثقيل يوم القيامة. وإنما سمّيَ ثقيلاً لشدائده وأهواله. وقيل: للقضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ أي من طين. ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي خَلْقهم؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم. والأَسْر الخَلْق؛ قال أبو عُبيد: يقال فرس شديد الأَسْر أي الخَلْق. ويقال أسره الله جلّ ثناؤه إذا شَدَّد خَلْقه؛ قال لبيد:

ساهِمُ الوجهِ شدِيدٌ أَسْرُهُ مُشْرِفُ الحارِكِ مَحْبوكُ الكَتِدَ(١)

وقال الأخطل:

مِن كلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدٍ أَسْرُهُ سَلِسِ القِيادِ تَخالُهُ مُخْتَالاً(٢)

وقال أبو هريرة والحسن والربيع: شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب. وقال مجاهد في تفسير الأَسْر: هو الشَّرْج، أي إذا خرج الغائط والبول تَقَبَّضَ الموضعُ. وقال ٱبن زيد القوّة. وقال ٱبن أحمر يصف فرساً:

يَمشِي بِأَوظِفَةٍ شِدَادٍ أَسْرُهَا صُمِّ السَّنَابِكِ لا تَقِي بِالْجَدْجَدِ(٣)

وٱشتقاقه من الإسار وهو القِدّ الذي يشد به الأقتاب؛ يقال: أَسَرْتُ القَتَبَ أَسْراً أي شددته وربطته؛ ويقال: ما أحسن أَسْرَ قَتَبِه أي شدّه وربطه؛ ومنه قولهم: خذه

---

(١) ورد في «اللسان» مادة (حبك) أنشد بيت لبيد على هذه الصورة: مشرف الحارك محبوك الكفل (وكذلك هو في ديوانه)، ومحبوك الكفل: مدمجه. وفي مادة حرك أنشد الشطر:
مغبط الحارك محبوك الكفل
أما الشطر الذي في التفسير هنا فهو لأبي دواد وقد مر في ١٧/ ٣٢.

(٢) مجتنب: مفتعل من الجنيبة وهي الفرس تقاد ولا تركب، وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل.

(٣) الجدجد: الأرض الصلبة. ولا تقي: لا تتوقى ولا تتهيب.

بِأَسْرِهِ إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله؛ كأنهم أرادوا تَعْكِيمه[1] وشدّه لم يُفتَح ولم يُنقَص منه شيء. ومنه الأسير، لأنه كان يُكتَف بالإسار. والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنِّعَم حين قابلوها بالمعصية. أي سَوَّيتُ خَلْقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ قال ٱبن عباس؛ يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم. وعنه أيضاً لغيّرنا محاسنهم إلى أسمج الصُّوَر وأقبحها. كذلك روى الضحاك عنه. والأوّل رواه عنه أبو صالح.

[٢٩] ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي طَريقاً موصّلاً إلى طاعته وطلب مرضاته. وقيل: «سَبِيلاً» أي وسيلة. وقيل وجهة وطريقاً إلى الجنة[2]. والمعنى واحد. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ أي الطاعة والاستقامة وٱتخاذ السبيل إلى الله ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تنفذ مشيئة أحدٍ ولا تتقدّم، إلا أن تتقدّم مشيئته. وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو «وَمَا يَشَاءُونَ» بالياء على معنى الخبر عنهم. والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه. وقيل: إن الآية الأولى منسوخة بالثانية. والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته. قال الفرّاء: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ جواب لقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ ذلك السبيلَ ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ لكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بأعمالكم ﴿حَكِيماً﴾ في أمره ونهيه لكم. وقد مضى في غير موضع.

---

(١) عكمت المتاع شددته، والعكام الخيط الذي يعكم به، وعكمت البعير شددت عليه العكم.

(٢) في ب، ز، ط: إلى الخير.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي يدخله الجنة راحماً له ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ أي ويعذب الظالمين فنصبه بإضمار يعذب. قال الزجاج: نصب الظالمين لأن قبله منصوب؛ أي يدخل من يشاء في رحمته ويعذّب الظالمين أي المشركين ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيراً لهذا المضمر؛ كما قال الشاعر:

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ أَمْلِـكُ رَأسَ الْبَعِيـرِ إِنْ نَفَـرَا
وَالـذِّئْـبَ أَخْشَـاهُ إِنْ مَـرَرْتُ بِـهِ وَحْدِي وأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرا

أي أخشى الذئب أخشاه. قال الزجاج: والاختيار النصب وإن جاز الرفع؛ تقول: أعطيت زيداً وعمراً أعددت له بِرا، فيختار النصب؛ أي وَبَرَرْتُ عمراً أو أبرّ عمرا. وقوله في «حم عسق»: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ والظَّالِمُونَ﴾ ٱرتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب في المعنى؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله فٱرتفع بالابتداء. وها هنا قوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً﴾ يدل على ويعذّب فجاز النصب. وقرأ أبان بن عثمان «وَالظَّالِمُون» رفعاً بالابتداء والخبر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾. ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي مؤلماً موجِعاً. وقد تقدم هذا في سورة «البقرة»[١] وغيرها والحمد لله. ختمت السورة.

سـورة المرسَـلات

مكيّةٌ في قول الحسن وعِكرمة وعطاء وجابر. وقال ٱبن عباس وقتادة إلا آية منها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾ مدنية. وقال ٱبن مسعود: نزلت ﴿وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً﴾ على النبي ﷺ ليلة الجنّ ونحن معه نسير، حتى أوينا إلى غار بمنًى فنزلت، فبينا نحن نتلقاها منه، وإنّ فاه لَرَطْب بها إذ وثَبَت حيّة، فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت؛ فقال النبي ﷺ: «وُقِيتم شَرَّها كما وُقِيت شَرَّكم». وعن كريب مولى ٱبن عباس قال: قرأت سورة ﴿وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً﴾ فسمعتني أُمُّ الفضل ٱمرأة العباس، فبكت وقالت: والله يا بنيّ لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة المغرب. والله أعلم. وهي خمسون آية.

(١) راجع ١/١٩٨.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾. [٢] ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾.
[٣] ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾. [٤] ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾.
[٥] ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾. [٦] ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾.
[٧] ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾. [٨] ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾.
[٩] ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾. [١٠] ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾.
[١١] ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾. [١٢] ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾.
[١٣] ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾. [١٤] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾.
[١٥] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً﴾ جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح. وروى مسروق عن عبد الله قال: هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي. وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبيّ. وقيل: هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله؛ قاله ٱبن عباس. وقال أبو صالح: إنهم الرسل تُرْسَل بما يُعْرَفون به من المعجزات. وعن ٱبن عباس وٱبن مسعود؛ إنها الرياح؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ﴾ وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾. ومعنى «عُرْفاً» يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس؛ تقول العرب: الناس إلى فلان عُرْفٌ واحد: إذا توجهوا إليه فأكثروا. وهو نصب على الحال من ﴿وَالْمُرْسَلاَتِ﴾ أي والرياح التي أرسلت متتابعة. ويجوز أن تكون مصدراً أي تِباعاً. ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر، كأنه قال: والمرسلات بالعُرْف، والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل. وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب، لما فيها من نعمة ونقمة، عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه. وقيل: إنها الزواجر والمواعظ. و «عرفا» على هذا التأويل متتابعات كعرف الفرس؛ قاله ٱبن مسعود. وقيل: جاريات؛ قاله الحسن؛ يعني في القلوب. وقيل: معروفات في العقول.

﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ﴾ الرياح بغير اختلاف؛ قاله المهدويّ . وعن ٱبن مسعود: هي الرياح العواصف تأتي بالعصف ، وهو ورق الزرع وحُطَامه؛ كما قال تعالى: ﴿فَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ[١] قاصِفاً ﴾. وقيل: العاصفات الملائكة الموكّلون بالرياح يعصفون بها. وقيل: الملائكة تعصف بروح الكافر؛ يقال: عصف بالشيء أي أباده وأهلكه، وناقة عَصُوف أي تعصف براكبها، فتمضي كأنها ريح في السرعة، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم. وقيل: يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف. ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾ الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها. وقال ٱبن مسعود ومجاهد: هي الرياح يرسلها الله تعالى نشراً بين يدي رحمته؛ أي تنشر السحاب للغيث. وروي ذلك عن أبي صالح. وعنه أيضاً: الأمطار؛ لأنها تنشر النبات، فالنشر بمعنى الإحياء؛ يقال: نشر الله الميت وأنشره أي أحياه. وروى عنه السديّ: أنها الملائكة تنشر كتب الله عزّ وجلّ. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم. الضحاك: إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد. وقال الربيع: إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح. قال: «وَالنَّاشِرَاتِ» بالواو؛ لأنه ٱستئناف قسم آخر. ﴿فَالْفَارِقاتِ فَرْقاً﴾ الملائكة تنزل بالفرق بين الحقّ والباطل؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال. وروى ٱبن أبي نجيح عن مجاهد قال: الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدّده. وعن سعيد عن قتادة قال: «الْفَارِقَاتِ فَرْقاً» الفرقان، فَرّق الله فيه بين الحق والباطل والحرام والحلال. وقاله الحسن وٱبن كيسان. وقيل: يعني الرسل فَرَقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أي بيّنوا ذلك. وقيل: السحابات الماطرة تشبيهاً بالناقة الفارق وهي الحامل التي تخرج وتَنِدّ في الأرض حين تضع، ونوق

---

(١) كذا في الأصول؛ ولعل المناسب الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ كما أشار إليه أبو حيان بقوله: وأن العصف من صفات الريح. . . الخ.

فَوارِقُ وفُرَّق. [وربما][1] شبهوا السحابة التي تنفرد من السحاب بهذه الناقة؛ قال ذو الرمّة:

أَوْ مُزْنَةٌ فارقٌ يَجْلو غَوارِبهَا تَبَوُّجُ الْبَرْقِ والظَّلْمَاءُ عُلْجُومُ[2]

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾ الملائكة بإجماع؛ أي تلقي كتب الله عزّ وجلّ إلى الأنبياء عليهم السلام؛ قاله المهدوي. وقيل: هو جبريل وسمي بٱسم الجمع؛ لأنه كان ينزل بها. وقيل: المراد الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم؛ قاله قُطْرب. وقرأ ٱبن عباس «فَالملقَّيات» بالتشديد مع فتح القاف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾. ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾: أي تلقى الوحي إعذاراً من الله أو إنذاراً إلى خلقه من عذابه؛ قاله الفراء. وروي عن أبي صالح قال: يعني الرسل يُعذرون ويُنذرون. وروى سعيد عن قتادة «عُذْراً» قال: عذراً لله جلّ ثناؤه إلى خلقه، ونَذْراً للمؤمنين ينتفعون به ويأخذون به. وروى الضحاك عن ٱبن عباس. «عُذْراً» أي ما يلقيه الله جلّ ثناؤه من معاذير أوليائه وهي التوبة «أَوْ نُذْراً» ينذر أعداءه. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص «أَوْ نُذْراً» بإسكان الذال وجميع السبعة على إسكان ذال «عُذْراً» سوى ما رواه الجُعْفيّ والأعشى عن أبي بكر عن عاصم أنه ضم الذال. وروي ذلك عن ٱبن عباس والحسن وغيرهما. وقرأ إبراهيم التَّيمي وقتادة «عُذْراً وَنُذُراً» بالواو العاطفة ولم يجعلا بينهما ألفاً. وهما منصوبان على الفاعل له أي للإعذار أو للإنذار. وقيل: على المفعول به، قيل: على البدل من «ذِكْراً» أي فالملقيات عذراً أو نذراً. وقال أبو علي: يجوز أن يكون العذرُ والنذُر بالتثقيل على جمع عاذر وناذر؛ كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ فيكون نصباً على الحال من الإلقاء؛ أي يلقون الذكر في حال العذر والإنذار. أو يكون مفعولاً لـ «ـذكراً» أي «فَالْمُلْقِيات» أي تُذَكِّر «عُذْراً أَوْ نُذْراً». وقال المبرد: هما بالتثقيل جمع والواحد عَذير ونَذير. ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب ما تقدم من القسم؛ أي ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم.

---

(١) الزيادة من «اللسان» عن الجوهري مادة «فرق».

(٢) تبوج البرق: تفتحه وتكشفه. علجوم: شديد السواد.

ثم بيّن وقت وقوعه فقال: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي ذهب ضوءها ومُحِي نورُها كطمس الكتاب؛ يقال: طَمَس الشيء إذا درس وطُمِس فهو مطموس، والريح تطمُس الآثار فتكون الريح طامسة والأثر طامساً بمعنى مطموس. ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي فُتِحت وشُقَّت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: فُرجت للطيّ. ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي ذهب بها كلها بسرعة؛ يقال: نَسفْتُ الشيءَ وأنسفته: إذا أخذته كله بسرعة. وكان ابن عباس والكلبيّ يقول: سُوِّيت بالأرض، والعرب تقول: فَرَس نَسُوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه؛ قال بِشْر:

نَسُوفٌ لِلحزَام بمرفقيها

ونَسَفت الناقةُ الكلأَ: إذا رعته. وقال المبرد: نُسِفت قُلِعت من موضعها؛ يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض: أَنْسَفت رجلاه. وقيل: النَّسْف تفريق الأجزاء حتى تذروها الرياح. ومنه نسف الطعام؛ لأنه يُحرَّك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التِّبْن. ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي جمعت لوقتها ليوم القيامة، والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه؛ فالمعنى: جعل لها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾. وقيل: هذا في الدنيا أي جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبهم بأن الكفّار مُمْهَلون. وإنما تزول الشكوك يوم القيامة. والأوّل أحسن؛ لأن التوقيت معناه شيء يقع يوم القيامة، كالطمس ونَسْف الجبال وتشقيق السماء ولا يليق به التأقيت قبل يوم القيامة. قال أبو علي: أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً. وقيل: أُقِّتت وُعِدت وأُجِّلت. وقيل: «أُقِّتَتْ» أي أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد. والهمزة[1] في «أُقِّتت» بدل من الواو؛ قاله الفراء والزجاج. قال الفراء: وكل واو ضُمَّت وكانت ضمتها لازمة جاز أن يبدل منها همزة؛ تقول: صلّى القوم إِحْدانا تريد وِحْدانا، ويقولون هذه وُجُوه حسان و [أُجُوه][2].

(١) وضح المؤلف هذا البدل عند قوله تعالى: ﴿قل أوحىٰ﴾ في أول هذا الجزء.

(٢) زيادة يقتضيها المقام.

وهذا لأن ضمة الواو ثقيلة. ولم يجز البدل في قوله: ﴿وَلاَ تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ لأنّ الضمّة غير لازمة. وقرأ أبو عمرو وحميد والحسن ونصر. وعن عاصم ومجاهد «وُقِّتَتْ» بالواو وتشديد القاف على الأصل. وقال أبو عمرو: وإنما يقرأ «أُقِّتَتْ» من قال في وُجُوه أجُوه. وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج «وُقِتَت» بالواو وتخفيف القاف. وهو فُعِلَتْ من الوقت ومنه ﴿كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾. وعن الحسن أيضاً: «ووُقِتَتْ» بواوين، وهو فُوعِلت من الوقت أيضاً مثل عُوهِدت. ولو قلبت الواو في هاتين القراءتين ألفاً لجاز. وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلاّم «أُقِتَتْ» بالهمزة والتخفيف؛ لأنها مكتوبة في المصحف بالألف. ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾؟ أي أخرت، وهذا تعظيم لذلك اليوم فهو ٱستفهام على التعظيم. أي ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ أُجِّلت. وروى سعيد عن قتادة قال: يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار. وفي الحديث: «إذا حشر الناس يوم القيامة قاموا أربعين عاماً على رءوسهم الشمسُ شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون الفصل». ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أتبع التعظيم تعظيماً؛ أي وما أعلمك ما يوم الفصل؟ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي عذاب وخزي لمن كذّب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد. وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذّب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، ورُبّ شيء كذّب به هو أَعظم جُرْماً من تكذيبه بغيره؛ لأنه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الردّ على الله، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وفاقه وهو قوله : ﴿ جَزَاءً وِفَاقاً ﴾. وروي عن النعمان بن بشير قال: وَيْلٌ: وادٍ في جهنم فيه ألوان العذاب. وقاله ٱبن عباس وغيره . قال ٱبن عباس: إذا خَبَت جهنمُ أُخذ من جمره فألقى عليها فيأكل بعضها بعضاً . وروي أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « عُرضت عليّ جهنم فلم أَرَ فيها وادياً أعظم من الويْل » وروي أنه مَجْمَع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم، وإنما يسيل الشيء فيما سفل من الأرض وٱنفطر ، وقد علم العباد في الدنيا أن شر المواضع في الدنيا ما ٱستنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغُسالات من الجيف وماء الحمامات ؛ فذكر أن ذلك

الوادي. مستنقع صديد أهل الكفر والشرك؛ ليعلم ذوو العقول أنه لا شيء أقذر منه قذارة، ولا أنتن منه نتناً، ولا أشدّ منه مرارةً، ولا أشدّ سواداً منه؛ ثم وصفه رسول الله ﷺ بما تضمن من العذاب، وأنه أعظم وادٍ في جهنم، فذكره الله تعالى في وعيده في هذه السورة.

[١٦] ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضين من لدن آدم إلى محمد ﷺ. ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ﴾ أي نلحق الآخرين بالأوّلين. ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ما فعلناه بمن تقدّم نفعل بمشركي قريش إما بالسيف: وإما بالهلاك. وقرأ العامة «ثُمَّ نُتْبِعُهُمْ» بالرفع على الاستئناف، وقرأ الأعرج «نُتْبِعْهُمْ» بالجزم عطفاً على «نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ» كما تقول: ألم تزرني ثم أكرمك. والمراد أنه أهلك قوماً بعد قوم على ٱختلاف أوقات المرسلين. ثم ٱستأنف بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ يريد من يهلك فيما بعد. ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفاً من «نُتْبِعُهُم» لتوالي الحركات. وروي عنه الإسكان للتخفيف. وفي قراءة ٱبن مسعود «ثُمَّ سَنُتْبِعُهُمُ» والكاف من «كَذَٰلِكَ» في موضع نصب، أي مثل ذلك الهلاك نفعله بكل مشرك. ثم قيل: معناه التهويل لهلاكهم في الدنيا ٱعتباراً. وقيل: هو إخبار بعذابهم في الآخرة.

[٢٠] ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ منَ ماءٍ مَهِينٍ﴾ أي ضعيف حقير وهو النطفة وقد تقدّم. وهذه الآية أصل لمن قال: إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده. وقد مضى القول[١] فيه.

---

(١) راجع ١٢/٧.

﴿فَجَعَلْنَاهُ في قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ أي في مكان حريز وهو الرَّحم. ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ قال مجاهد: إلى أن نصوِّره. وقيل: إلى وقت الولادة. ﴿فَقَدَرْنَا﴾ وقرأ نافع والكسائيّ «فَقَدَّرْنَا» بالتشديد. وخفّف الباقون، وهما لغتان بمعنًى. قاله الكسائيّ والفراء والقُتَبي. قال القُتَبي: قدرنا بمعنى قدّرنا مشدّدة: كما تقول: قدرت كذا وقدّرته؛ ومنه قول النبيﷺ في الهلال: «إذا غُمّ عليكم فاقدُروا له» أي قدّروا له المسير والمنازل. وقال محمد بن الجهم عن الفراء: «فَقَدَّرْنَا» قال: وذكر تشديدها عن عليّ رضي الله عنه وتخفيفها: قال: ولا يبعد أن يكون المعنى في التشديد والتخفيف واحداً؛ لأن العرب تقول: قَدَر عليه الموت وقَدَّر: قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ قرىء بالتخفيف والتشديد، وقَدَر عليه رزقه وقَدّر. قال: وٱحتج الذين خَفّفوا فقالوا؛ لو كانت كذلك لكانت فنعم المقدّرون. قال الفراء: وتجمع العرب بين اللغتين؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ قال الأعشى:

وأنكَرَتنِي وما كان الذي نَكِرَتْ ... من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

وروي عن عكرمة «فَقَدَرْنَا» مخففة من القدرة، وهو ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم والكسائيّ لقوله: ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ ومن شدّد فهو من التقدير، أي فقدّرنا الشقي والسعيد فنعم المقدّرون. رواه ٱبن مسعود عن النبيﷺ. وقيل: المعنى قدرنا قصيراً أو طويلاً. ونحوه عن ٱبن عباس: قدّرنا ملكنا. المهدوي: وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف.

قلت: هو صحيح فإن عِكرمة هو الذي قرأ «فَقَدَرْنَا» مخفّفاً قال: معناه فملكنا فنعم المالكون، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين؛ أي قدّرنا وقت الولادة وأحوال النطفة في التنقيل من حالة إلى حالة حتى صارت بشراً سويًّا، أو الشقيّ والسعيد، أو الطويل والقصير، كله على قراءة التشديد. وقيل: هما بمعنى كما ذكرنا.

[٢٥] ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتاً﴾ أي ضامّة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها. وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه. وقوله عليه السلام: «قُصُّوا أظافركم وادفنوا قُلَاماتِكم» وقد مضى في «البقرة»[١] بيانه. يقال: كَفَتُّ الشيء أكْفِته: إذا جمعته وضممته، والكَفْت: الضم والجمع؛ وأنشد سيبويه:

كِـرامٌ حيـنَ تَنكفـتُ الأفَـاعـي إلـى أجْحَـارهـنّ مـن الصَّقِيـعِ

وقال أبو عبيد: «كِفَاتاً» أوعية. ويقال لِلنِّحْي: كِفْت وكَفِيت، لأنه يحوي اللبن ويضمه قال:

فأنت اليومَ فوقَ الأرض حَيًّا وأنت غداً تَضُمُّكَ في كِفَات

وخرج الشَّعبيّ في جنازة فنظر إلى الجَبَّان فقال: هذه كِفات الأموات، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كِفات الأحياء.

و [الثانية][٢] - روي عن ربيعة في النَّبَّاش قال تقطَع يده فقيل له: لم قلت ذلك؟ قال: إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾ فالأرض حِرْز. وقد مضى هذا في سورة «المائدة»[٣]. وكانوا يسمّون بَقِيع الغَرْقد كَفْتة، لأنه مقبرة تضم الموتى، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم والأموات في قبورهم. وأيضاً آستقرار الناس على وجه الأرض، ثم آضطجاعهم عليها، آنضمام منهم إليها. وقيل: هي كِفات للأحياء يعني دفن ما يخرجَ من الإنسان من الفضلات في الأرض؛ إذ لا ضَمَّ في كون الناس عليها، والضَّمّ يشير إلى الاحتفاف من جميع الوجوه. وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد في أحد قوليه: الأحياء والأموات ترجع إلى الأرض، أي الأرض منقسمة إلى حيّ وهو الذي ينبت، وإلى ميت

---

(١) راجع ٢/ ١٠٢.
(٢) لم يذكر في الأصول لفظ المسألة الثانية والمتبادر أن هنا موضعها كما يستفاد من أحكام القرآن لابن العربي.
(٣) راجع ٦/ ١٦٨.

وهو الذي لا ينبت. وقال الفراء: ٱنتصب ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾ بوقوع الكِفات عليه؛ أي ألم نجعل الأرض كِفات أحياء وأموات. فإذا نوّنت نصبت؛ كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً﴾. وقيل: نصب على الحال من الأرض، أي منها كذا ومنها كذا. وقال الأخفش: «كِفَاتاً» جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع. وقال الخليل: التكفيت: تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطناً لظهر. ويقال: ٱنكفت القومُ إلى منازلهم أي ٱنقلبوا. فمعنى الكِفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدفنون فيها. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ يعني الجبال، والرواسي الثوابت. والشامخات الطوال؛ ومنه يقال: شمخ بأنفه إذا رفعه كبراً. قال: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً﴾ أي وجعلنا لكم سُقْيا. والفُرَات: الماء العذب يشرب ويسقى منه الزرع. أي خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات. وهذه الأمور أعجب من البعث. وفي بعض الحديث قال أبو هريرة: في الأرض من الجنة الفُرَات والدّجلة ونهر الأردن. وفي صحيح مسلم: سَيحان وَجَيْحان والنيل والفُرات كلّ من أنهار الجنة.

[٢٩] ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

[٣٠] ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

[٣١] ﴿ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾.

[٣٢] ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[٣٤] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال للكفار سيروا «إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تكذبون» من العذاب يعني النار، فقد شاهدتموها عياناً. ﴿ٱنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ﴾ أي دخان ﴿ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ﴾ يعني الدخان الذي يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب. وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ٱرتفع تشعب. ثم وصف الظلّ فقال: ﴿لاَ ظَلِيلٍ﴾ أي ليس كالظلّ الذي يقي حرّ الشمس ﴿وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي لا يدفع من لهب جهنم شيئاً. واللهب

ما يعلو على النار إذ اضطرمت، من أحمر وأصفر وأخضر. وقيل: إن الشُّعَب الثلاث هي الضريع والزُّقُّوم والغِسْلين؛ قاله الضحاك. وقيل: اللهب ثم الشرر ثم الدخان؛ لأنها ثلاثة أحوال، هي غاية أوصاف النار إذا اضطرمت واشتدّت. وقيل: عُنُق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب. فأما النور فيقف على رءوس المؤمنين، وأما الدخان فيقف على رءوس المنافقين، وأما اللهب الصافي فيقف على رءوس الكافرين. وقيل: هو السُّرَادق، وهو لسان من نار يحيط بهم، ثم يتشعب منه ثلاث شعب، فتظللهم حتى يُفْرَغ من حسابهم إلى النار. وقيل: هو الظل من يَحْموم؛ كما قال تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ﴾ على ما تقدّم[١]. وفي الحديث: «إن الشمس تدنو من رءوس الخلائق وليس عليهم يومئذٍ لباس ولا لهم أكفان فتلحقهم[٢] الشمس وتأخذ بأنفاسهم ومُدَّ ذلك اليوم، ثم ينجّي الله برحمته من يشاء إلى ظلّ من ظلّه فهنالك يقولون: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ ويقال للمكذبين: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ من عذاب الله وعقابه ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ﴾. فيكون أولياء الله جلّ ثناؤه في ظلّ عرشه أو حيث شاء من الظلّ، إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقرّه من الجنة والنار. ثم وصف النار فقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ الشرر: واحدته شررة. والشرار: واحدته شرارة، وهو ما تطاير من النار في كل جهة، وأصله من شَرَّرْتُ الثوبَ إذا بسطته للشمس ليجفّ. والقصر البناء العالي. وقراءة العامة «كَالْقَصْرِ» بإسكان الصاد: أي الحصون والمدائن في العِظم وهو واحد القصور. قاله ابن عباس وابن مسعود. وهو في معنى الجمع على طريق الجنس. وقيل: القصر جمع قَصْرةٍ ساكنة الصاد، مثل جَمْرَة، وجَمْرٍ وتَمْرة وتَمْر. والقصرة: الواحدة من جَزْل الحطب الغليظ.

وفي البخاريّ عن ابن عباس أيضاً: ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ﴾ قال كنا نرفع الخشبَ بقَصَرٍ ثلاثة أذرعٍ[٣] أو أقلّ، فنرفعه للشتاء، فنسميه القَصَر. وقال سعيد بن جُبير والضحاك: هي

---

(١) راجع ١٧/ ٢١٣. (٢) كذا في الأصول ولعل اللفظ تلفحهم.

(٣) بنصب ثلاثة ويجوز إضافة بقصر إليها أي بقدر ثلاثة أذرع. ولفظ الحديث في (النهاية قصر): (كنا نرفع الخشب للشتاء ثلاث أذرع أو أقل، ونسميه القصر)

أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقُطِع. وقيل: أعناقه. وقرأ ابن عباس ومجاهد وحُميد والسّلميّ «كَالْقَصَرِ» بفتح الصاد، أراد أعناق النخل. والقَصَرة العنق، جمعها قَصَر وقَصَرات. وقال قتادة: أعناق الإبل. وقرأ سعيد بن جُبير بكسر القاف وفتح الصاد، وهي أيضاً جمع قَصْرة مثل بَدْرة وبِدَر وقَصْعة وقِصَع وحَلْقَة وحِلَق، لحِلقِ الحديد. وقال أبو حاتم: ولعله لغة، كما قالوا حاجَة وحِوَج. وقيل: القَصْر: الجبل، فشبه الشرر بالقَصْر في مقاديره، ثم شبهه في لونه بالجمالات الصُّفْر، وهي الإبل السود؛ والعرب تسمى السُّود من الإبل صُفْراً؛ قال[1] الشاعر:

تِلْكَ خَيْلي منه وتلك رِكَابِي ... هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُها كالزَّبِيبِ

أي هنّ سود. وإنما سُمّيت السود من الإبل صُفراً لأنه يشوب سوادها شيء من صُفرة؛ كما قيل لبِيض الظباء: الأُدْم؛ لأن بياضها تعلوه كُدْرة: والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود، لما يشوبُها من صُفْرة. وفي شعر عِمْران بن حِطّان الخارجيّ:

دَعَتْهُمْ بِأعلى صَوْتِها وَرَمَتْهُمُ ... بِمِثْلِ الجِمالِ الصُّفْرِ نزّاعةُ الشَّوَى

وضعّف الترمِذِيّ[2] هذا القول فقال: وهذا القول محال في اللغة، أن يكون شيء يشوبه شيء قليل، فنسب كله إلى ذلك الشائب، فالعجب لمن قد قال هذا، وقد قال الله تعالى: ﴿ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ ﴾ فلا نعلم شيئاً من هذا في اللغة. ووجهه عندنا أن النار خُلِقت من النور فهي نار مضيئة، فلما خلق الله جهنم وهي موضع النار، حشا ذلك الموضع بتلك النار، وبعث إليها سلطانه وغضبه، فاسودّت من سلطانه وازدادت حِدّة، وصارت أشدّ سواداً من النار ومن كل شيء سواداً، فإذا كان يوم القيامة وجيء بجهنم في الموقف رمت بشررها على أهل الموقف، غضباً لغضب الله، والشرر هو أسود، لأنه من نار سوداء، فإذا رمت النار بشررها فإنها ترمي الأعداء به، فهنّ سود من سواد النار، لا يصل ذلك إلى الموحّدين؛ لأنهم

---

(١) هو الأعشى.

(٢) في نسخة: اليزيدي. وهو تصحيف.

في سرادق الرحمة قد أحاط بهم في الموقف، وهو الغمام الذي يأتي فيه الربّ تبارك وتعالى، ولكن يعاينون ذلك الرمي، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه في رأي العين منهم حتى يروها صفراء؛ ليعلم الموحدون أنهم في رحمة الله لا في سلطانه وغضبه. وكان ابن عباس يقول: الجِمالات الصُّفر: حِبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال. ذكره البخاري. وكان يقرؤها «جُمَالاَتٌ» بضم الجيم، وكذلك قرأ مجاهد وحُميد «جُمَالاَت» بضم الجيم، وهي الحبال الغلاظ، وهي قُلُوس السفينة أي حبالها. وواحد القُلُوس: قَلْس. وعن ابن عباس أيضاً على أنها قطع النحاس، والمعروف في الحبل الغليظ جُمَّل بتشديد الميم كما تقدم في «الأعراف»[1]. «وجُمَالاَت» بضم الجيم: جمع جِمالة بكسر الجيم مُوَحّداً، كأنه جمع جَمَل، نحو حَجَر وحجارة، وذَكَر وذِكارة. وقرأ يعقوب وابن أبي إسحاق وعيسى والجَحْدَريّ «جُمَالة» بضم الجيم موحداً وهي الشيءالعظيم المجموع بعضه إلى بعض. وقرأ حفص وحمزة والكسائي «جِمَالة» وبقية السبعة «جِمَالاَت» قال الفراء: يجوز أن تكون الجِمالات جمع جِمال كما يقال: رجل ورِجال ورِجالات. وقيل: شبهها بالجمالات لسرعة سيرها. وقيل: لمتابعة بعضها بعضاً. والقَصْر: واحد القصور. وقَصْر الظلام: اختلاطه. ويقال: أتيته قصراً أي عَشِيًّا، فهو مشترك؛ قال[2]:

كَأَنَّهُمُ قَصْراً مَصَابِيحُ راهِبٍ   بِمَوْزَنَ رَوَّى بالسَّلِيطِ ذُبالَها

مسألة ـ في هذه الآية دليل على جواز ادّخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومغانِي مفاقِرِه. وذلك مما يقتضي النظر أن يكتسبه في غير وقت حاجته؛ ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن، كما كان النبي ﷺ يدّخر القوت في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكل شيء محمول عليه. وقد بين ابن عباس هذا بقوله: كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندّخره للشتاء وكنا نسميه القَصَر. وهذا أصح ما قيل في ذلك والله أعلم.

---

(١) راجع ٧/٢٠٧. (٢) قائله كثير عزة. وموزن كمقعد: بلد بالجزيرة.

[٣٥] ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

[٣٦] ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

[٣٧] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هذا يومُ لا يَنطِقُون﴾ أي لا يتكلمون ﴿ولا يُؤْذن لهم فيعتذِرونَ﴾ أي إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت، فهذا من المواقيت التي لا يتكلَّمون فيها، ولا يؤذن لهم في الاعتذار والتنصل. وعن عِكرمة عن ٱبن عباس قال: سأله ٱبن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطِقون﴾ و ﴿لا تَسْمَع إلا هَمْساً﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بعضُهم على بَعْضٍ يَتَسَاءلون﴾ فقال له: إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وإِنَّ يوماً عِند ربكَ كأَلفِ سنةٍ مِما تَعُدُّون﴾ فإن لكل مقدار من هذه الأيام لوناً من هذه الألوان. وقيل: لا ينطقون بحجة نافعة، ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق. قال الحسن: لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون. وقيل: إن هذا وقت جوابهم ﴿ٱخْسَئُوا فِيها ولا تكلِّمون﴾ وقد تقدّم[١]. وقال أبو عثمان: أسكتتهم رؤيةُ الهيبة وحياءُ الذنوب. وقال الجُنيد: أيُّ عذر لِمن أعرض عن مُنعمِهِ وجحده وكفر أياديه ونِعمه؟ و «يوم» بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر؛ أي تقول الملائكة: «هذا يوم لا ينطِقون». ويجوز أن يكون قوله: «ٱنطلِقوا» من قول الملائكة، ثم يقول الله لأوليائه: هذا يوم لا ينطِق الكُفَّار. ومعنى اليوم الساعة والوقت. وروى يحيى بن سلطان عن أبي بكر عن عاصم «هذا يومَ لا ينطِقون» بالنصب، ورُوِيتْ عن ٱبن هُرْمز وغيره، فجاز أن يكون مبنياً لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع. وهذا مذهب الكوفيين. وجاز أن يكون في موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم. وهذا مذهب البصريين؛ لأنه إنما بني عندهم إذا أضيف إلى مبنيّ، والفعل ها هنا معرب. وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذِرون﴾ الفاء نَسَق أي عطف على «يُؤْذَن»، وأجيز ذلك؛ لأن أواخر الكلام بالنون. ولو قال: فيعتذروا لم يوافق الآيات. وقد قال:

---

(١) راجع ١٢/١٥٣.

﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ بالنصب وكله صواب؛ ومثله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفُهُ﴾ بالنصب والرفع.

[٣٨] ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

[٣٩] ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

[٤٠] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي ويقال لهم هذا اليوم الذي يُفْصل فيه بين الخلائق؛ فيتبين المحقّ من المبطل. ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ قال ابن عباس: جمع الذين كذّبوا محمداً والذين كذّبوا النبيين من قبله. رواه عنه الضحاك. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي حيلة في الخلاص من الهلاك ﴿فَكِيدُونِي﴾ أي فاحتالوا لأنفسكم وقاوُوني ولن تجدوا ذلك. وقيل: أي ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي قدرتم على حرب ﴿فَكِيدُونِي﴾ أي حاربوني. كذا روى الضحاك عن ابن عباس. قال: يريد كنتم في الدنيا تحاربون محمداً ﷺ وتحاربونني فاليوم حاربوني. وقيل: أي إنكم كنتم في الدنيا تعملون بالمعاصي وقد عجزتم الآن عنها وعن الدَّفْع عن أنفسكم. وقيل: إنه من قول النبي ﷺ، فيكون كقول هود: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ﴾.

[٤١] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

[٤٢] ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

[٤٣] ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ أخبر بما يصير إليه المتقون غداً، والمراد بالظلال ظلال الأشجار وظلال القصور مكان الظلّ في الشعب الثلاث. وفي سورة يَس ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾(١). ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي يتمنون. وقراءة العامة «ظِلَالٍ». وقرأ الأعرج والزهريّ وطلحة «ظُلَلٍ» جمع ظُلّة يعني

---

(١) راجع ١٥/ ٤٤.

في الجنة. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي يقال لهم غداً هذا بدل ما يقال للمشركين ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾. فـ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ في الظرف الذي هو ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ أي هم مستقرّون ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ مقولاً لهم ذلك. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي نثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد ﷺ وأعمالهم في الدنيا.

[٤٦] ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

[٤٧] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً﴾ هذا مردود إلى ما تقدم قَبْل المتقين، وهو وعيد وتهديد وهو حال من ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً﴾. ﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ أي كافرون. وقيل: مكتسبون فعلاً يضركم في الآخرة، من الشرك والمعاصي.

[٤٨] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

[٤٩] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٥٠] ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾ أي إذا قيل لهؤلاء المشركين: ﴿ارْكَعُوا﴾ أي صلّوا ﴿لاَ يَرْكَعُونَ﴾ أي لا يصلون؛ قاله مجاهد. وقال مقاتل: نزلت في ثقيف، امتنعوا من الصلاة فنزل ذلك فيهم. قال مقاتل: قال لهم النبي ﷺ: «أسلموا» وأمرهم بالصلاة فقالوا: لا ننحني فإنها مَسبّة علينا، فقال النبي ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود». يُذْكَر أن مالكاً رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر، وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر، فجلس ولم يركع، فقال له صبيّ: يا شيخ قم فاركع. فقام فركع ولم يحاجّه بما يراه مذهباً، فقيل له في ذلك، فقال: خشيت أن أكون من الذين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾. وقال ابن عباس: إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يُدْعون إلى السجود فلا يستطيعون. قتادة: هذا في الدنيا. ابن العربيّ: هذه الآية

حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركناً في الصلاة وقد انعقد الإجماع عليه، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب، وإنما يُدْعون إلى السجود كشفاً لحالِ الناس في الدنيا، فمن كان لِلَّهِ يسجد يمكن(١) من السجود، ومن كان يسجد رئاءً لغيره صار ظهره طَبَقاً واحداً. وقيل: أي إذا قيل لهم أخضعوا للحق لا يخضعون، فهو عام في الصلاة وغيرها وإنما ذكر الصلاة، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد. وقيل: الأمر بالإيمان؛ لأنها لا تصح من غير إيمان.

قوله تعالى ﴿فبأي حديثٍ بعده يؤمنون﴾ أي إن لم يصدقوا بالقرآن الذي هو المعجز والدلالة على صدق الرسول عليه السلام، فبأي شيء يصدّقون! وكُرِّر «ويل يومئذٍ للمكذبين» لمعنى تكرير التخويف والوعيد. وقيل: ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراد بالآخر؛ كأنه ذكر شيئاً فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا. ثم كذلك إلى آخرها. ختمت السورة ولله الحمد.

سورة «عَمَّ» مكية وتسمى سورة «النبأ» وهي أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١﴾.

[٢] ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾.

[٣] ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

[٤] ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

[٥] ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿عم يتساءلون﴾؟ «عم» لفظ استفهام ولذلك سقطت منها ألف «ما»، ليتميز الخبر عن الاستفهام. وكذلك (فيم، ومم) إذا استفهمت. والمعنى عن أي شيء

---

(١) في نسخة: تمكن من السجود. (٢) كذا في أحكام القرآن لابن العربي طبعة السعادة.

يسأل بعضهم بعضاً. وقال الزجاج: أصل «عَمَّ» عن ما فأدغمت النون في الميم، لأنها تشاركها في الغُنّة. والضمير في «يتساءلون» لقريش. وروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدّق ومنهم المكذب به فنزلت: ﴿عم يتساءلون﴾؟ وقيل: «عم» بمعنى: فيم يتشدّد المشركون ويختصمون.

قوله تعالى: ﴿عنِ النبإ العظِيم﴾ أي يتساءلون «عنِ النبإ العظِيم» فعن ليس تتعلق بـ «يتساءلون» الذي في التلاوة؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون «عنِ النبإ العظِيم» كقولك: كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرناه من ٱمتناع تعلقه بـ «يتساءلون» الذي في التلاوة، وإنما يتعلق بيتساءلون آخر مضمر. وحسن ذلك لتقدم يتساءلون؛ قاله المَهْدويّ. وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام في قوله: «عن» مكرر إلا أنه مضمر، كأنه قال عم يتساءلون أعن النبإ العظيم؟ فعلى هذا يكون متصلاً بالآية الأولى. والنبأ العظيم» أي الخبر الكبير. ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتلفون﴾ أي يخالف فيه بعضهم بعضاً، فيصدق واحد ويكذب آخر؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: هو القرآن؛ دليله قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عظِيم * أَنتُم عنهُ مُعْرِضُونَ﴾ فالقرآن نبأ وخبر وقصص، وهو نبأ عظيم الشأن. وروى سعيد عن قتادة قال: هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين: مصدّق ومكذب. وقيل: أَمْر النبيﷺ. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: وذلك أن اليهود سألوا النبيﷺ عن أشياء كثيرة، فأخبره الله جلّ ثناؤه باختلافهم، ثم هدّدهم فقال: ﴿كلا سَيَعْلمون﴾ أي سيعلمون عاقبة القرآن، أو سيعلمون البعث: أحق هو أم باطل. و «كلا» ردّ عليهم في إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن، فيوقف عليها. ويجوز أن يكون بمعنى حقاً أو «ألاَ» فيُبدأ بها. والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث؛ قال بعض علمائنا: والذي يدل عليه قوله عزّوجلّ: ﴿إن يوم الفصلِ كان مِيقاتاً﴾ يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث. ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ أي حقا لَيَعْلَمُنَّ[1] صدق ما جاء به محمدﷺ من القرآن ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت. وقال الضحاك: «كلا

---

(١) في الأصول: ليعلمون. والفعل مؤكد بالنون الثقيلة بعد القسم.

سيعلمون» يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم. «ثم كلا سيعلمون» يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم. وقيل: بالعكس أيضاً. وقال الحسن: هو وعيد بعد وعيد. وقراءة العامة فيهما بالياء على الخبر؛ لقوله تعالى: ﴿يتساءلون﴾ وقوله: «هم فيه مختلِفون». وقرأ الحسن وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما.

[٦] ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾. [٧] ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾.

[٨] ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾. [٩] ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾.

[١٠] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾. [١١] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلم نجعلِ الأرض مِهاداً﴾: دلهم على قدرته على البعث؛ أي قُدْرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة. والمِهاد: الوِطاء والفراش. وقد قال تعالى: ﴿الذِي جعلَ لكم الأرضَ فِراشاً﴾ وقُرِىء «مَهْداً». ومعناه أنها لهم كالمهد للصبيّ وهو ما يمهد له فينوّم عليه ﴿والجِبال أوتاداً﴾ أي لتسكن ولا تتكَفّأ ولا تميل بأهلها. ﴿وخَلَقْناكُمْ أزواجاً﴾ أي أصنافاً: ذكراً وأنثى. وقيل: ألواناً. وقيل: يدخل في هذا كل زوج من قبيح وحسن، وطويل وقصير؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضل ويصبر المفضول. ﴿وجَعَلْنَا نَوْمَكُم﴾ «جعلنا» معناه صَيَّرنا؛ ولذلك تعدّت إلى مفعولين. ﴿سُباتاً﴾ المفعول الثاني، أي راحة لأبدانكم، ومنه يوم السَّبْت أي يوم الراحة؛ أي قيل لبني إسرائيل: ٱستريحوا في هذا اليوم، فلا تعملوا فيه شيئاً. وأنكر ٱبن الأنباري هذا وقال: لا يقال للراحة سُبَات. وقيل: أصله التمدّد؛ يقال: سبتت المرأة شعرها: إذا حلته وأرسلته، فالسُبَات كالمد، ورجل مسبوت الخلق: أي ممدود. وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدّد، فسميت الراحة سبتاً.

وقيل: أصله القَطْع؛ يقال: سَبَتَ شعره سَبْتاً: حَلَقه؛ وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال، فالسُّبات يشبه الموت، إلا أنه لم تفارقه الروح. ويقال: سيرٌ سَبْت: أي سهل لين؛ قال الشاعر[١]:

وَمَطْوِيَةِ الأقرابِ أمّا نهارُها فَسَبْتٌ وأمّا ليلُها فَذَمِيلُ

﴿وجعلنا الليل لِباساً﴾ أي تلبَسكم ظلمته وتغشاكم؛ قاله الطبري. وقال ابن جُبير والسُّدي: أي سَكنا لكم. ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ فيه إضمار، أي وقتَ معاشٍ، أي مُتَصَرَّفاً لِطلب المعاش وهو كل ما يُعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك فـ «معاشا» على هذا اسم زمان، ليكون الثاني هو الأول. ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف. ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شِداداً﴾ أي سبع سموات محكمات؛ أي محكمة الخلق وثيقة البنيان. ﴿وجعلنا سِراجاً وَهّاجاً﴾ أي وقّاداً وهي الشمس. وجعل هنا بمعنى خلق؛ لأنها تعدّت لمفعول واحد والوهاج الذي له وَهَج؛ يقال؛ وهَجَ يهِج وَهْجا ووَهَجاً ووَهَجَاناً. ويقال للجوهر إذا تلألأ توهّج. وقال ابن عباس: وهّاجاً منيراً متلألئاً. ﴿وأنزلنا مِن المُعْصِرات ماء ثَجّاجاً﴾ قال مجاهد وقتادة: والمعصِرات الرياح. وقاله ابن عباس. كأنها تَعْصِر السحاب. وعن ابن عباس أيضاً: أنها السحاب. وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك: أي السحائب التي تنعصِر بالماء ولما تُمْطر بعد، كالمرأة المُعْصِر التي قد دنا حيضُها ولم تحض، قال أبو النجم:

[تمشِي الهوَيْنَى مائلاً خِمارُها قد أَعْصَرتْ أو قد دنا إعصارها][٢]

[وقال آخر]:

فكان مِجني دون من كنت أتقِي ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبان ومُعْصِرُ[٣]

(١) هو حميد بن ثور، والسبت: السير السريع. والذميل: السير اللين.
(٢) هذه الزيادة عن أبي حيان، دل عليها إجماع نسخ الأصل على ذكر أبي النجم.
(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة.

وقال[١] آخر:

وذِي أشُرٍ كالأقحوانِ يزينهُ ذِهابُ الصَّبا والمُعْصِراتُ الرَّوائِحُ

فالرياح تسمى مُعْصرات؛ يقال: أَعْصَرَت الريح تُعْصِر إعصاراً: إذا أثارت العجاج، وهي الإعصار، والسحب أيضاً تسمى المُعْصِرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضاً: المُعْصِرات السماء. النَّحَّاس: هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر مُعْصرات، والرياح تلقح السحاب، فيكون المطر، والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوز أن تكون الأقوال واحدة، ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المُعصِرات «ماء ثَجَّاجا» وأصح الأقوال أن المعصرات: السحاب. كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان (بالمُعصرات) لكان الريح أولى. وفي الصحاح: والمعصرات السحائب تُعْتَصر بالمطر. وأُعصِر القوم أي أمطِروا؛ ومنه قرأ بعضهم «وفيه يُعْصِرون» والمعصِر: الجارية أوّل ما أدركت وحاضت؛ يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز[٢]:

جـارِيـةٌ بسَفَـوانَ دارهـا تمشِي الهُوَيْنَى ساقطاً خمارُها

قد أَعَصَرَتْ أو قد دنا إعصارُها

والجمع: مَعاصِر، ويقال: هي التي قاربت الحيض؛ لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام. سمعته من أبي الغوث الأعرابيّ. قال غيره: والمُعْصر السحابة التي حان لها أن تمطر؛ يقال أجن الزرع فهو مُجنّ: أي صار إلى أن يُجِنّ، وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر. وقال المبرِّد: يقال سحاب معصر أي ممسك للماء، ويُعْتَصر منه شيء بعد شيء، ومنه العَصَر بالتحريك للملجأ الذي يلجأ إليه، والعُصْرة بالضم أيضاً الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة «يوسف»[٣] والحمد لله. وقال أبو زبيد[٤]:

---

(١) هو البعيث كما في «اللسان»، وروايته للبيت:

وذي أشر كالأقحوان تشوفه ذهاب الصبا والمقصرات الدوالح

والدوالح السحائب التي أثقلها الماء: والذهاب بكسر الذال: الأمطار الضعيفة.

(٢) هو منصور بن مرثد الأسدي. (٣) راجع ٢٠٥/٩.

(٤) قاله في رثاء ابن أخته وكان مات عطشاً في طريق مكة.

صـادِيـاً يستغِيـثُ غيـر مُغـاثٍ ولقـدْ كـان عُصْـرة المنْجـودِ

ومنه المُعصِر للجارية التي قد قربت من البلوغ يقال لها مُعصِر؛ لأنها تُحْبَس في البيت، فيكون البيت لها عَصَراً. وفي قراءة ٱبن عباس وعِكرمة «وأنزلنا بِالمعصِراتِ». والذي في المصاحف «مِن المعصِراتِ» قال أبيّ بن كعب والحسن وٱبن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان: «مِن المعصِراتِ» أي من السموات. «ماءً ثَجاجاً» صباباً متتابعاً؛ عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما. يقال: ثَجَجْت دمَه فأنا أَثُجه ثجاً، وقد ثج الدم يَثُج ثجوجاً، وكذلك الماء، فهو لازم ومتعدّ. والثجاج في الآية المنصَبّ. وقال الزجاج: أي الصَّبَّاب. وهو متعدّ كأنه يثج: نفسه أي يَصُبّ. وقال عَبِيد بن الأبرص[1]:

فثَـجَّ أعـلاه ثـم ٱرتـجَّ أَسفلُـه وضاقَ ذَرْعاً بحَمل الماءِ مُنْصاحِ

وفي حديث النبي ﷺ أنه سئل عن الحج المبرور فقال: «العَجّ والثَّجّ» فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إراقة الدماء وذبح الهدايا. وقال ٱبن زيد: ثجاجاً كثيراً. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿لِنخرج بِهِ﴾ أي بذلك الماء ﴿حبًّا﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿ونَبَاتاً﴾ من الأبّ، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش. ﴿وجناتٍ﴾ أي بساتين ﴿ألفافاً﴾ أي ملتفة بعضها ببعض لتشعّب أغصانها، ولا واحد له كالأوزاع والأخياف. وقيل: واحد الألفاف لِفٌّ بالكسر، ولُفّ بالضم. ذكره الكسائي؛ قال:

جنـة لُـفٌّ وعيـشٌ مُغْـدِق ونَـدامَـى كلُّهـمْ بِيـضٌ زُهُـرْ

وعنه أيضاً وأبي عبيدة: لفيف كشريف وأشراف. وقيل: هو جمع الجمع. حكاه الكسائي. يقال: جنة لَفّاء ونبت لِفٌّ والجمع لُفٌّ بضم اللام مثل حمر، ثم يجمع اللّف ألفافاً. الزمخشري: ولو قيل جمع مُلْتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيهاً. ويقال: شجرة لَفّاء وشجر لُفّ وامرأة

(١) البيت في وصف المطر، ومنصاح: منشق بالماء. وفي الديوان: فالتج أعلاه.

(٢) قوله: والجمع لف بضم اللام راجع إلى جنة لفاء بدليل قوله: مثل حمر، لأنه جمع لحمراء، وأما لف بالكسر والفتح فجمعه ألفاف.

لفاء: أي غليظة الساق مجتمعة اللحم. وقيل: التقدير: ونخرج به جنات ألفافاً، فحذف لدلالة الكلام عليه. ثم هذا الالتفاف والانضمام معناه أن الأشجار في البساتين تكون متقاربة(١)، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها.

[١٧] ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إن يوم الفصلِ كان مِيقاتاً﴾ أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأوّلين والآخرين؛ لما وعد الله من الجزاء والثواب. وسمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه.

قوله تعالى: ﴿يوم ينفخ فِي الصورِ﴾ أي للبعث ﴿فتأتُون﴾ أي إلى موضع العَرْض. ﴿أفواجاً﴾ أي أمماً، كل أمّة مع إمامهم. وقيل: زمراً وجماعات. الواحد: فوج. ونصب يوماً بدلاً من اليوم الأوّل. وروي من حديث معاذ بن جبل قلت: يا رسول الله! أرأيت قول الله تعالى: ﴿يوم ينفخ فِي الصور فتأتون أفواجاً﴾ فقال النبي ﷺ: «يا معاذ [بنَ جَبَل](٢) لقد سألت عن أمر عظيم» ثم أرسل عينيه باكياً، ثم قال: «يُحشَر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين، وبدل صُوَرهم، فمنهم على صورة القِرَدة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم مُنكَّسون: أرجلهم أعلاهم، ووجوهُهم يُسْحَبون عليها، وبعضهم عُمْي يتردّدون، وبعضهم صُمٌّ بُكْمٌ لا يعقلون، وبعضهم يَمضُغون ألسنتهم، فهي مُدلاَّة على صدورهم، يسيل القَيح من أفواههم لعاباً، يتقذّرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من النار، وبعضهم أشدّ نَتْناً من الجِيف، وبعضهم ملبسون جلابيب سابغة من القَطران لاصقة بجلودهم؛ فأما الذين على صورة القردة فالقَتَّات من الناس ـ يعني النمام ـ وأما الذين على صورة الخنازير، فأهل

---

(١) في أ، ح: متقاربة الأغصان من كل. . . الخ.

(٢) [بن جبل]: ساقطة من الأصل المطبوع.

السُّحْت والحرام والمَكْس. وأما المنكَّسون رءوسهم ووجوههم، فأكَلة الربا، والعُمْي: من يجور في الحكم، والصم البكم: الذين يعجبون بأعمالهم. والذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقُصّاص الذين يخالف قولهم فعلهم. والمقطعة أيديهم وأرجلهم: فالذين يؤذون الجيران. والمصلَّبون على جذوع النار: فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نَتْناً من الجِيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات، ويمنعون حق الله من(١) أموالهم. والذين يلْبَسون الجلابيب: فأهل الكِبْر والفخر والخَيَلاء».

قوله تعالى: ﴿وفُتِحتِ السماء فكانت أبواباً﴾ أي لنزول الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿ويوم تشقق السماء بِالغمامِ وَنُزِّلَ الملائِكة تنزِيلاً﴾. وقيل: تقطعت، فكانت قِطعاً كالأبواب فأنتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف. وقيل: التقدير فكانت ذات أبواب؛ لأنها تصير كلها أبواباً. وقيل: أبوابها طُرُقها. وقيل؛ تنحلّ وتتناثر، حتى تصير فيها أبواب. وقيل: إن لكل عبد بابين في السماء: باباً لعمله، وباباً لرزقه، فإذا قامت القيامة أنفتحت الأبواب. وفي حديث الإسراء: «ثُمّ عَرج بنا إلى السماء فأستَفْتح جبريل، فقيل: من أنت قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وَقَد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففُتح لنا». ﴿وسيرتِ الجبال فكانت سراباً﴾ أي لا شيء كما أنَّ السراب كذلك: يظنه الرائي ماء وليس بماء. وقيل: «سُيِّرت» نسِفت من أصولها. وقيل: أُزيلت عن مواضعها.

[٢١] ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾. [٢٢] ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾. [٢٤] ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾. [٢٦] ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) وفي «الدر المنثور»: حق الله والفقراء... الخ.

قوله تعالى: ﴿إِن جهنم كانت مِرصاداً﴾: مِفعال من الرَّصَد والرصَد: كل شيء كان أمامك. قال الحسن: إن على النار رَصَداً، لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجيء بجواز حُبِس. وعن سُفيان رضي الله عنه قال: عليها ثلاث قَناطر. وقيل «مِرصاداً» ذات أَرْصاد على النسب، أي ترصد من يمرّ بها. وقال مقاتل: مَحْبِساً. وقيل: طريقاً وممرّاً، فلا سبيل إلى الجنة حتى يَقْطع جهنم. وفي الصّحاح: والمِرصاد: الطريق. وذكر القُشَيريّ: أن المرصاد المكان الذي يَرصُد فيه الواحد العدوّ، نحو المِضمار: الموضع الذي تُضَمَّر فيه الخيل. أي هي معدّة لهم؛ فالمِرصاد بمعنى المحلّ؛ فالملائكة يرصدون الكفار حتى ينزلوا بجهنم. وذكر الماورديّ عن أبي سِنان[1] أنها بمعنى راصدة، تجازيهم بأفعالهم. وفي الصحاح: الراصد الشيءِ: الراقبُ له؛ تقول: رصدَه يرصدُه رَصْداً ورَصَداً، والترصُّد: الترقب. والمَرْصَد: موضع الرصْد. الأصمعيّ: رَصَدْته أرصُده: ترقبته، وأرْصدته: أعددت له. والكسائي: مثله.

قلت: فجهنم مُعَدّة مترصّدة، مُتفعّل من الرصْد وهو الترقب: أي هي متطلعة لِمن يأتي. والمِرصاد مِفعال من أبنية المبالغة كالمِعطار والمِغيار، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار. ﴿لِلطاغِين مآباً﴾ بدل من قوله: «مِرصاداً» والمآب: المرجع، أي مرجعاً يرجعون إليها؛ يقال: آب يَئُوب أوبة: إذا رجع. وقال قتادة: مأوًى ومنزلاً. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم.

قوله تعالى: ﴿ لابِثِين فِيها أحقاباً ﴾ أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، فكلما مضى حُقُب جاء حُقُب. والحُقُب بضمتين: الدهر والأحقاب الدهور. والحِقْبة بالكسر: السَّنة: والجمع حِقَب؛ قال متمم بن نُويرة التميمي:

وكنا كنَدْمانَيْ جَذِيمة حِقبةً ... مِن الدَّهرِ حتى قيل لنْ يتصدّعَا
فلما تفرّقنا كأنّي ومالِكاً ... لِطولِ اجتماعٍ لم نبِتْ ليلة معَا

(١) أ، ح، ل، و: «أبي سفيان».

والحُقُب بالضم والسكون: ثمانون سنة. وقيل: أكثر من ذلك وأقل، على ما يأتي، والجمع: أحقاب. والمعنى في الآية: [لابثين][1] فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها؛ فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه؛ إذ في الكلام ذكر الآخرة وهو كما يقال أيام الآخرة؛ أي أيام بعد أيام إلى غير نهاية، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب. ونحوه وذكر الأحقاب لأن الحُقُب كان أبعد شيء عندهم، فتكلم بما تذهب إليه أوهامُهم ويعرفونها، وهي كناية عن التأبيد، أي يمكثون فيها أبداً. وقيل: ذكر الأحقاب دون الأيام؛ لأن الأحقاب أهول في القلوب، وأدل على الخلود. والمعنى متقارب؛ وهذا الخلود في حق المشركين. ويمكن حمل الآية على العُصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب. وقيل: الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغَسَّاق، فإذا ٱنقضت فيكون لهم نوع آخر من العقاب؛ ولهذا قال: ﴿لابِثِين فِيها أحقاباً. لا يذوقون فِيها بَرْداً ولا شَرَاباً. إلا حَمِيماً وغَسَّاقاً﴾. و «لابِثِين» ٱسم فاعل من لبِث، ويقويه أن المصدر منه اللَّبْث بالإسكان، كالشُّرْب. وقرأ حمزة والكسائي «لبِثِين» بغير ألف وهو ٱختيار أبي حاتم وأبي عبيد، وهما لغتان؛ يقال: رجل لابِث ولبِث، مثل طمِع وطامِع، وفرِه وفارِه. ويقال: هو لَبِث بمكان كذا: أي قد صار اللَّبث شأنه، فشبه بما هو خلقة في الإنسان نحو حَذِر وفَرِق؛ لأن باب فَعِل إنما هو لما يكون خِلْقة في الشيء في الأغلب، وليس كذلك ٱسم الفاعل من لابث. والحُقُب: ثمانون سنة في قول ٱبن عمر وٱبن مُحَيصن وأبي هريرة، والسنة ثلثمائة يوم وستون يوماً، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا؛ قاله ٱبن عباس. وروى ٱبن عمر هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وقال أبو هريرة: والسنة ثلثمائة يوم وستون يوماً كل يوم مثل أيام الدنيا. وعن ٱبن عمر أيضاً: الحُقُب: أربعون سنة. السُّدِّيّ: سبعون سنة. وقيل: إنه ألف شهر. رواه أبو أمامة مرفوعاً. بشير بن كعب: ثلثمائة سنة. الحسن: الأحقاب لا يَدرِي أَحَدٌ كَمْ هي، ولكن ذكروا أنها مائة حُقُب، والحُقُب الواحد منها سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون. وعن أبي أمامة أيضاً،

---

(١) [لابثين]: ساقط من أ، ز، ل، ط.

عن النبي ﷺ: «إن الحُقُب الواحد ثلاثون ألفَ سنة» ذكره المهدويّ. والأوّل الماورديّ. وقال قُطرب: هو الدهر الطويل غير المحدود. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «والله لا يخرُج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً، الحُقُب بضع وثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوماً، كلّ يوم ألفُ سنة مما تَعُدُّون؛ فلا يتكلنَّ أحدكم على أنه يخرج من النار». ذكره الثعلَبيّ. القُرظيّ: الأحقاب: ثلاثة وأربعون، حُقُباً كل حُقُب سبعون خَريفاً، كل خريف سبعمائةِ سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة.

قلت: هذه أقوال متعارضة، والتحديد في الآية للخلود، يحتاج إلى توقيف يقطَع العُذْر، وليس ذلك بثابت عن النبي ﷺ. وإنما المعنى ـ والله أعلم ـ ما ذكرناه أوّلاً؛ أي لابثين فيها أزماناً ودهوراً، كلما مضى زمن يعقبه زمن، ودهر يعقبه دهر، هكذا أبد الآبدين من غير ٱنقطاع. وقال ٱبن كَيْسان: معنى «لابِثِينَ فِيها أحقاباً» لا غاية لها ٱنتهاء، فكأنه قال أبداً. وقال ٱبن زيد ومُقاتل: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فذوقوا فلن نزِيدكم إلا عذاباً﴾ يعني أن العدد قد ٱنقطع، والخلود قد حصل.

قلت: وهذا بعيد؛ لأنه خبر، وقد قال تعالى: ﴿ولا يدْخُلُون الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجملُ فِي سَمِّ الخِياطِ﴾ على ما تقدم(١). هذا في حق الكفار، فأما العُصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص. والله أعلم. وقيل: المعنى ﴿لابِثِين فِيها أحقاباً﴾ أي في الأرض؛ إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير في ﴿لا يذوقون فِيها برداً ولا شراباً﴾ لجهنم. وقيل: واحد الأحقاب حُقُب وحِقْبَةٌ؛ قال:

فإنْ تَنْأَ عنها حِقْبَةً لا تُلاقِهَا فأَنتَ بِما أَحْدَثْتَهُ بِالمُجَرَّبِ

وقال الكميت(٢):

مَرّ لها بعد حِقبةٍ حِقَبُ

---

(١) راجع ٧/٢٠٦.
(٢) صدر البيت:

ولا حمول غدت ولا دمن

قوله تعالى: ﴿لَاَ يَذُوقُونَ فِيها﴾ أي في الأحقاب ﴿بَرْداً ولا شَرَاباً﴾ البرد: النوم في قول أبي عبيدة وغيره؛ قال الشاعر[1]:

ولو شِئتُ حَرَّمتُ النساءَ سِواكُمُ وإن شِئت لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْدَا

وقاله مجاهد والسُّدّيّ والكسائيّ والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي؛ وأنشدوا قول الكنديّ:

بَرَدت مَراشفُها عليَّ فصدني عنها وعن تقبيلِها البَرْد

يعني النوم. والعرب تقول: مَنع البَرْدُ البَرْد، يعني: أذهب البرد النوم.

قلت: وقد جاء الحديث أنه عليه الصلاة والسلام سُئل هل في الجنة نوم. فقال: «لا؛ النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها» فكذلك النار؛ وقد قال تعالى: ﴿لا يُقْضَى عليهِم فيموتوا﴾ وقال ابن عباس: البَرْدُ: برد الشراب. وعنه أيضاً: البرد النوم: والشراب الماء. وقال الزّجاج: أي لا يذوقون فيها برد ريح، ولا ظِل، ولا نوم. فجعل البرد برد كل شيء له راحة، وهذا برد ينفعهم، فأما الزمهرير فهو برد يتأذّون به، فلا ينفعهم، فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به. وقال الحسن وعطاء وابن زيد: بَرْداً: أي رَوْحاً وراحة؛ قال الشاعر[2]:

فلا الظلَّ مِن بردِ الضحى تستطيعُه ولا الفَيْءَ أوقات[3] العَشِيّ تذوقُ

﴿لا يذوقون فِيها برداً ولا شراباً﴾ جملة في موضع الحال من الطاغين، أو نعت للأحقاب؛ فالأحقاب ظرف زمان، والعامل فيه «لابِثِين» أو «لبِثِين» على تعدية فِعل. ﴿إلا حمِيماً وغساقاً﴾ استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم، ومن جعله من البرودة كان بدلاً منه. والحميم: الماء الحار؛ قاله أبو عبيدة. وقال ابن زيد: الحميم: دموع أعينهم، تجمع في حياض ثم يُسْقَونه. قال النحاس: أصل الحميم: الماء الحار، ومنه اشتق الحَمّام، ومنه الحُمَّى، ومنه ﴿وظِلٌ مِن

(١) هو العرجي: عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان. ونسب إلى العرج، وهو موضع قبل الطائف كان ينزل به. والنقاخ كغراب: الماء الطيب.

(٢) قائله حميد بن ثور يصف سرحة، وكنى بها عن امرأة.

(٣) كذا في الأصل. وفي كتب اللغة مادة «فيأ» ولا الفيء من برد العشي.. الخ.

يَحموم﴾: إنما يراد به النهاية في الحر. والغَسّاق: صديد أهل النار وقَيْحُهم. وقيل الزَّمْهَرير. وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين، وقد مضى في «ص»[1] القول فيه. ﴿جزاءاً وِفاقاً﴾ أي موافقاً لأعمالهم. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما؛ فالوِفاق بمعنى الموافقة كالقِتال بمعنى المقاتلة. و «جزاء» نصب على المصدر، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم؛ قاله الفَرّاء والأخفش. وقال الفراء أيضاً: هو جمع الوِفق، والوفق واللفق واحد. وقال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار. وقال الحسن وعكرمة: كانت أعمالهم سيئة، فأتاهم الله بما يسوءهم. ﴿إنهم كانوا لا يرجُون﴾ أي لا يخافون ﴿حِساباً﴾ أي محاسبة على أعمالهم. وقيل: معناه لا يرجون ثواب حساب. الزجاج: أي إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم. ﴿وكَذَّبوا بآياتِنا كِذَّاباً﴾ أي بما جاءت به الأنبياء. وقيل: بما أنزلنا من الكتب. وقراءة العامة «كِذّاباً» بتشديد الذال، وكسر الكاف، على كَذَّب، أي كَذَّبوا تكذيباً كبيراً. قال الفراء: هي لغة يمَانِيَة فسيحة؛ يقولون: كَذَّبت [به][2] كِذَّاباً، وخرقت القميص خِرَّاقاً؛ وكل فِعل في وزن (فَعَّلَ) فمصدره فِعَّال مشدد في لغتهم؛ وأنشد بعض الكلابيين:

لقد طالَ ما ثَبَّطَتني عن صحابتي وعن حِوجٍ قِضَّاؤُها مِن شِفائِنا

وقرأ علي رضي الله عنه «كِذَاباً» بالتخفيف وهو مصدر أيضاً. وقال أبو عليّ: التخفيف والتشديد جميعاً: مصدر المكاذبة، كقول الأعشى:

فصدقتها وكَذَبتُها[3] والمـرءُ ينفعـهُ كِـذَابـه

أبو الفتح: جاءا جميعاً مصدر كَذَبَ وكَذَّب جميعاً. الزمخشري: «كِذَابا» بالتخفيف مصدر كَذَب؛ بدليل قوله:

فصدقتُها وكَذَبْتُها والمرءُ ينفعهُ كِذَابهُ

---

(١) راجع ٢٢١/١٥ فما بعدها. (٢) الزيادة من معاني القرآن للفراء.

(٣) قال الشهاب: وضمير صدقتها وكذبتها للنفس. والمراد: أنه يصدق نفسه: تارة، بأن يقول إن أمانيها محققة، وتكذيبها بخلافه، أو على العكس.

وهو مثل قوله: ﴿أنبتكُم من الأرضِ نَباتاً﴾ يعني وكذبوا بآياتنا أفكذَبوا كِذَاباً. أو تنصِبه بـ «ـكَذَّبوا»، لأنه يتضمن معنى كَذَبوا؛ لأن كل مُكَذِّب بالحق كاذِب؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين، وكان المسلمون عندهم كاذبين، فبينهم مُكاذبة. وقرأ ابن عمر «كُذَّاباً» بضم الكاف والتشديد، جمع كاذب؛ قاله أبو حاتم. ونصبه على الحال الزمخشريّ. وقد يكون الكُذَّاب: بمعنى الواحد البليغ في الكَذِب، يقال: رجل كُذّاب، كقولك حُسَان وبُخَّال، فيجعله صفة لمصدر «كَذَّبوا» أي تكذيباً كُذَّاباً مفرطاً كذبهُ. وفي الصحاح: وقوله تعالى: ﴿وكذبوا بِآياتنا كِذاباً﴾ وهو أحد مصادر المشدّد؛ لأن مصدره قد يجيء على (تفعيل) مثل التكليم وعلى (فِعّال) كِذَّابِ وعلى (تفعِلة) مثل توصِية، وعلى (مُفَعَّلٍ)؛ ﴿ومَزَّقْناهم كلَّ مُمَزَّقٍ﴾. ﴿وكلَّ شيءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً﴾ «كلَّ» نصب بإضمار فعل يدل عليه «أحصيناه» أي وأحصينا كل شيء أحصيناه. وقرأ أبو السَّمَّال «وكلُّ شيءٍ» بالرفع على الابتداء. «كِتاباً» نصب على المصدر؛ لأن معنى أحصينا: كتبنا، أي كتبناه كتاباً. ثم قيل: أراد به العلم، فإن ما كُتِب كان أبعد من النسيان. وقيل: أي كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة. وقيل: أراد ما كُتب على العباد من أعمالهم. فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكَّلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة؛ دليله قوله تعالى: ﴿وإنَّ عليكُمْ لحافِظِينَ * كراماً كاتِبِينَ﴾. ﴿فذُوقوا فلنْ نَزِيدكُمْ إلاَّ عَذَاباً﴾ قال أبو بَرْزة: سألت النبي ﷺ عن أشد آية في القرآن؟ فقال: «قوله تعالى: ﴿فذُوقوا فلنْ نزِيدَكم إلاّ عذاباً﴾» أي «كلما نضِجَتْ جُلودُهمْ بَدَّلناهم جلوداً غيرَها» و ﴿كلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً﴾.

[٣١] ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ﴾.

[٣٢] ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

[٣٣] ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

[٣٤] ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

[٣٦] ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إنّ للمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾ ذَكَر جزاء من ٱتقى مخالفة أمر الله «مَفازاً» موضع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار. ولذلك قيل للفَلاة إذا قل ماؤها: مفازة، تفاؤلاً بالخلاص منها. ﴿حدائقَ وأَعناباً﴾ هذا تفسير الفوز. وقيل: ﴿إنّ للمتَّقِين مَفازاً﴾ إن للمتقين حدائقَ؛ جمع حديقة، وهي البستان المُحَوَّط عليه؛ يقال أحدق به: أي أحاط. والأعناب: جمع عنب، أي كروم أعناب، فحذف. ﴿وكواعِبَ أتْراباً﴾ كواعِب: جمع كاعِب وهي الناهد: يقال: كَعَبَت الجارية تَكْعَب كُعوباً، وكَعَّبت تُكَعِّب تكعِيباً، ونَهَدت تَنْهَد نهُوداً. وقال الضحاك: ككواعب العَذَارَى؛ ومنه قول قيس بن عاصم:

وكمْ مِن حَصانٍ قد حَوَينا كرِيمةٍ ... ومِن كاعِبٍ لم تدرِ ما البؤسُ مُعْصِرِ

والأتراب: الأقران في السنّ. وقد مضى في سُورة «الواقعة»[(١)] الواحد: ترب. ﴿وكَأْساً دِهاقاً﴾ قال الحسن وقتادة وٱبن زيد وٱبن عباس: مُتْرعة مملوءة؛ يقال: أدهقت الكأس: أي ملأتها، وكأس دِهاق أي ممتلِئة؛ قال:

ألا فاسقِنِي صِرْفاً سقانِي الساقِي ... مِن مائِها بِكأسك الدِّهاقِ

وقال خِدَاش بن زُهَير:

أتانا عامِرٌ يبغِي قِرانَا ... فأَتْرعْنا له كأساً دِهاقَا

وقال سعيد بن جُبير وعِكرمة ومجاهد وٱبن عباس أيضاً: متتابعة، يَتبع بعضُها بعضاً؛ ومنه ادَّهقَتِ الحِجارة ٱدِّهاقاً، وهو شدّة تلازُبها ودخول بعضها في بعض؛ فالمتتابع كالمتداخل. وعن عِكرمة أيضاً وزيد بن أسلَم: صافية؛ قال الشاعر:

لأَنتِ إلى الفؤادِ أحبُّ قرباً ... مِن الصادِي إلى كأسٍ دِهاقِ

وهو جمع دَهَق[(٢)]، وهو خشبتان [يغمز][(٣)] بهما [الساق]. والمراد بالكأس الخمر، فالتقدير: خمراً ذات دهاق، أي عُصِرت وصُفِّيت؛ قاله القشيريّ. وفي الصحاح: وأَدْهَقْت الماء: أي أفرغته

(١) راجع ١٧/٢١١.

(٢) في («اللسان»: دهق): والدهق (بالتحريك): ضرب من العذاب. وهو بالفارسية: (أشكنجة). ودهقت الشيء: كسرته وقطعته. ا هـ.

(٣) التصحيح من كتب اللغة وفي الأصول: خشبتان يعصر بهما.

إفراغاً شديداً: قال أبو عمرو: والدَّهَق ـ بالتحريك: ضرب من العذاب. وهو بالفارسية أَشْكَنْجَهْ. المبرد: والمدهوق: المعذَّب بجميع العذاب الذي لا فُرجة فيه. ابن الأعرابي: دَهَقْت الشيء كسرته وقطعته؛ وكذلك دَهْدَقْته: وأنشد لحُجْر بن خالد:

نُدَهْدِق بَضْعَ اللحم للباعِ والندَى وبعضهُمُ تغلى بذمٍّ مَنَاقِعُهْ[1]

ودَهْمَقته بزيادة الميم: مثله. وقال الأصمعي: الدهمقة: لِين الطعام وطِيبهُ ورِقته، وكذلك كل شيء لينّ؛ ومنه حديث عمر: لو شئت أن يُدهْمَقَ لي لفعلت، ولكن الله عاب قوماً فقال: ﴿أذهبتم طيباتِكم في حَياتِكُمُ الدنيا واستمتعْتمْ بِها﴾.

قوله تعالى: ﴿لا يَسْمَعون فِيها﴾ أي في الجنة ﴿لَغْواً ولا كِذاباً﴾ اللغو: الباطل، وهو ما يُلْغَى من الكلام ويُطَّرَح؛ ومنه الحديث: «إذا قلت لصاحبك أنصِت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لَغَوْت» وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو؛ بخلاف أهل الدنيا. «ولا كِذّاباً»: تقدم، أي لا يُكَذِّب بعضهم بعضاً. ولا يسمعون كذباً. وقرأ الكسائي «كِذَاباً» بالتخفيف من كَذَبْت كِذَاباً أي لا يتكاذَبُون في الجنة. وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنّما خففها ها هنا لأنها ليست مقيَّدة بفعلٍ يصير مصدراً له، وشدّد قوله: ﴿وكذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً﴾ لأن كذبوا يقيد المصدر بالكذّاب. ﴿جزاءً مِن رَبِّك﴾ نصب على المصدر. لأن المعنى جزاهم بما تقدّم ذكرُه، جزَاءَه وكذلك ﴿عطاء﴾ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد. أي أعطاهم عطاء. ﴿حِساباً﴾ أي كثيراً؛ قاله قتادة؛ يقال: أَحْسَبْت فلاناً: أي كَثَّرت له العطاء حتى قاله حَسْبِي. قال[2]:

ونُقْفِي ولِيدَ الحيِّ إن كان جائِعاً ونُحْسِـ ـبُـهُ إن كـانَ ليـس بِجـائِـعِ

---

(١) يروى هكذا في «اللسان» مادة «دهق». وفي الأصول «مراجله». والمناقع: القدور الصغار، واحدها: منقع ومنقعة.

(٢) قائلته أمرأة من بني قشير. ونقفيه: أي نؤثره بالقفية؛ وهي ما يؤثر به الضيف والصبي.

وقال القُتَبِيّ: ونرى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حَسْبِي. وقال الزجاج: «حِساباً» أي ما يكفيهم. وقاله الأخفش. يقال: أَحسبني كذا: أي كَفاني. وقال الكلبيّ: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشراً. مجاهد: حساباً لما عملوا، فالحساب بمعنى العدّ. أي بقدر ما وجب له في وعد الرب، فإنه وعد للحسنة عشراً، ووعد لقوم بسبعمائة ضِعْف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مِقدار؛ كما قال تعالى: ﴿إنما يوفَّى الصابِرون أجرهم بِغيرِ حِسابٍ﴾ وقرأ أبو هاشم «عَطاء حَسَّابا» بفتح الحاء، وتشديد السين، على وزن فَعَّال أي كَفافاً؛ قال الأصمعيّ: تقول العرب: حَسَّبْت الرجل بالتشديد: إذا أكرمته؛ وأنشد قول الشاعر:

إذا أتاهُ ضيفُه يُحسِّبُه

وقرأ ٱبن عباس «حسانا»[1] بالنون.

[٣٧] ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾.

[٣٨] ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾.

[٣٩] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩﴾.

[٤٠] ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾.

قوله تعالى: ﴿ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما الرحمن﴾: قرأ ٱبن مسعود ونافع وأبو عمرو وٱبن كثير وزيد عن يعقوب، والمفضل عن عاصم: «رَبُّ» بالرفع على الاستئناف، «الرحمنُ» خبره. أو بمعنى: هو رب السموات، ويكون «الرحمن» مبتدأ ثانياً. وقرأ ٱبن عامر ويعقوب وٱبن محيصن كلاهما بالخفض، نعتاً لقوله: ﴿جزاءً مِن رَبِّكَ﴾ أي جزاء من ربك رب السموات الرحمنِ. وقرأ ٱبن عباس وعاصم وحمزة والكسائي: «رَبِّ السموات

(١) هكذا رسم الشوكاني الكلمة في تفسيره، «فتح القدير» (٥/٢٥٨) ولم يضبطها.

خفضاً على النعت. «الرحمن»[1] رفعا على الابتداء، أي هو الرحمن. وٱختاره أبو عُبيد وقال: هذا أعدلُها؛ خفض «رَبِّ» لقربه من قوله: «مِن رَبِّك» فيكون نعتاً له، ورفع «الرحمن» لبعده منه، على الاستئناف، وخبرُه ﴿لا يملِكون مِنه خِطاباً﴾ أي لا يملكون أن يسألوه إلاّ فيما أَذِن لهم فيه. وقال الكسائي: «لا يملِكون مِنه خِطاباً» بالشفاعة إلا بإذنه. وقيل: الخطاب: الكلام؛ أي لا يملكون أن يخاطبوا الربَّ سبحانه إلا بإذْنه؛ دليله: ﴿لا تَكَلَّم نفس إلا بإذْنِهِ﴾. وقيل: أراد الكفار ﴿لا يملِكُون منه خِطاباً﴾، فأمّا المؤمنون فيَشْفَعُون.

قلت: بعد أن يُؤْذن لهم؛ لقوله تعالى: ﴿من ذَا الذِي يَشْفع عِنده إلا بِإذنِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يومئَذٍ لا تنفع الشفاعة إِلا من أَذِنَ له الرحمن ورضِي له قولاً﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوم يقومُ الرُّوحُ والملائِكة صَفًّا﴾ «يومَ» نصب على الظرف؛ أي يوم لا يملِكون منه خطاباً يومَ يقوم الروح. وٱختلف في الروح على أقوال ثمانية: **الأوّل** ـ أنه مَلَك من الملائكة. قال ٱبن عباس: ما خلق الله مخلوقاً بعد العرش أعظم منه، فإذا كان يومُ القيامة قام هو وحده صفّاً، وقامت الملائكة كلهم صفّاً، فيكون عِظَمُ خَلْقه مثل صفوفهم. ونحو منه عن ٱبن مسعود؛ قال: الروح ملك أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال. وهو حِيال السماء الرابعة[2]؛ يسبحُ اللَّهَ كل يوم ٱثنتي عشرة أَلْف تسبيحة؛ يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً، فيجيء يوم القيامة وحده صفّاً، وسائر الملائكة صفاً. **الثاني** ـ أنه جبريل عليه السلام . قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير. وعن ٱبن عباس: إن عن يمين العرش نَهْراً من نور ، مثلَ السموات السبع ، والأرضين السبع ، والبحار السبع ، يَدْخل جبريل كل يوم فيه سحراً فيغتسل ، فيزداد نوراً على نوره، وجمالاً على جماله، وعظماً على عظمه، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة

---

(١) هذه القراءة ذكرها القرطبي وٱبن عطية ولم يذكرا قراءة عاصم بالجر فيهما وهي رواية حفص، وقد ذكرها أبو حيان والألوسي، فتكون القراءات عن عاصم على هذا ثلاثاً؛ رفع فيهما، وجر فيهما، وجر «رب» ورفع «الرحمن».

(٢) في نسخة: السماء السابعة.

تقع من ريشه سبعين ألفَ مَلَك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفاً البيت المعمور، والكعبة سبعون ألفاً لا يعودُون إليهما إلى يوم القيامة. وقال وهب: إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تعالى تَرعَّدَ فرائصُه؛ يخلق الله تعالى من كل رعدة مائة ألف ملَكَ، فالملائكة صفوف بين يدي الله تعالى منكسة رءوسهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلا أنت؛ وهو قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائِكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذِن له الرحمن﴾ في الكلام ﴿وقال صواباً﴾ يعني قول: «لا إله إلا أنت». **والثالث** ـ روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الرُّوح في هذه الآية جندٌ من جنود الله تعالى، ليسوا ملائكة، لهم رُءوس وأيد وأرجل، يأكلون الطعام». ثم قرأ ﴿يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صَفًّا﴾، فإن هؤلاء جُند، وهؤلاء جُند. وهذا قول أبي صالح ومجاهد. وعلى هذا هم خَلْق على صورة بني آدم، كالناس وليسوا بناس. **الرابع** ـ أنهم أشراف الملائكة؛ قاله مقاتل بن حَيّان. **الخامس** ـ أنهم حَفَظَة على الملائكة؛ قاله ابن أبي نجيح. **السادس** ـ أنهم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة. فالمعنى ذوو الروح. وقال العَوفي والقُرَظيّ: هذا مما كان يكتمه ابن عباس؛ قال: الرُّوح: خلق من خلق الله على صور بني آدم، وما نَزَلَ مَلَك من السماء إلا ومعه و احد من الرُّوح. **السابع** ـ أرواح بني آدم تقوم صَفًّا، فتقوم الملائكة صفّاً، وذلك بين النفختين، قبل أن تردّ إلى الأجساد؛ قاله عَطية. **الثامن** ـ أنه القرآن؛ قاله زيد بن أسلم، وقرأ ﴿وكذلك أوحَيْنا إليك رُوحاً مِن أمرِنا﴾. و «صفًّا»: مصدر أي يقومون صُفوفاً. والمصدر ينبىء عن الواحد والجمع. كالعدل والصوم. ويقال ليوم العيد: يوم الصف. وقال في موضع آخر: «وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً» هذا يدل على الصفوف، وهذا حينَ العرض والحساب. قال معناه القُتَبيُّ وغيره. وقيل: يقوم الروح صفاً، والملائكة صفاً، فهم صفان. وقيل: يقوم الكل صفاً واحداً. ﴿لا يتكلمون﴾ أي لا يشفَعون ﴿إلا من أذِن له الرحمن﴾ في الشفاعة ﴿وقال صواباً﴾ يعني حقًّا؛ قاله الضحاك ومجاهد. وقال أبو صالح: لا إله إلا الله. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: يَشفعون لمن قال لا إله إلا الله.

وأصل الصواب: السداد من القول والفعل، وهو من أصاب يصيب إصابة؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة. وقيل: «لا يتكلمون» يعني الملائكة والرُّوح الذين قاموا صفاً، لا يتكلمون هيبة وإجلالاً «إلا من أذِن له الرحمنُ» في الشفاعة وهم قد قالوا صواباً، وأنهم يوحِّدون الله تعالى ويسبحونه. وقال الحسن: إن الرُّوح يقول يوم القيامة: لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، ولا النار إلا بالعمل. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وقال صواباً﴾.

قوله تعالى: ﴿ذلِك اليومُ الحقُّ﴾ أي الكائن الواقع ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربهِ مآباً﴾ أي مرجعاً بالعمل الصالح؛ كأنه إذا عمل خيراً ردّه إلى الله عزّ وجلّ، وإذا عمل شراً عده منه. ويَنْظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: «والخير كله بيديك، والشر ليس إليك». وقال قتادة: «مآباً»: سبيلاً.

قوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قرِيباً﴾: يخاطب كفار قريش ومشركي العرب؛ لأنهم قالوا: لا نبعث. والعذاب عذاب الآخرة، وكل ما هو آتٍ فهو قريب، وقد قال تعالى: ﴿كأنهم يومَ يَرونَها لم يلبَثُوا إلا عشِيةً أو ضُحاها﴾ قال معناه الكلبي وغيره. وقال قتادة: عقوبة الدنيا؛ لأنها أقرب العذابين. قال مقاتل: هي قتلُ قريش ببدْر. والأظهر أنه عذاب الآخرة، وهو الموت والقيامة؛ لأن من مات فقد قامت قيامته، فإن كان من أهل الجنة رأى مَقعدَه من الجنة، وإن كان من أهل النار رأى الخِزْي والهوان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يوم ينظرُالمرء ما قدّمتْ يداهُ﴾ [بيِّن وقت ذلك العذاب؛ أي أنذرناكم عذاباً قريباً في ذلك اليوم، وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، أي يراه][1]، وقيل: ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى. والمرء ها هنا المؤمن في قول الحسن؛ أي يجد لنفسه عملاً، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملاً، فيتمنى أن يكون تراباً. ولما قال: ﴿ويقول الكافِر﴾ علم أنه أراد بالمرء المؤمن. وقيل: المرء ها هنا: أبيّ بن خلف وعُقْبة بن أبي مُعَيط. «ويقول الكافِر» أبو جهل. وقيل: هو عام في كل أحد وإنسان يَرَى في ذلك اليوم جزاء ما كَسَب. وقال مُقاتل: نزل قوله: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ في أبي سَلَمة بن عبد الأسَد المخزوميّ ﴿ويقول الكافِر يا ليتني كنت

(١) ما بين القوسين: ساقط من ز، ط، ل.

ترابا﴾: في أخيه الأسود بن عبد الأسد. وقال الثعلبيّ: سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: الكافر: ها هنا إبليس، وذلك أنه عاب آدم بأنه خُلِق من تراب، وافتخر بأنه خُلق من نار، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة والرحمة، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب، تمنى أنه يكون بمكان آدم، فـ ﴿يقول يا ليتني كنت تراباً﴾ قال: ورأيته في بعض التفاسير للقُشَيري أبي نصر. وقيل: أي يقول إبليس يا ليتني خُلِقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم. وعن ابن عمر: إذا كان يومُ القيامة مُدَّتِ الأرض مَدَّ الأَدِيم، وحُشِر الدوابُّ والبهائم والوحوش، ثم يوضعُ القِصاص بين البهائم، حتى يُقْتَص للشاة الجمَّاء من الشاة القَرْناء بنطحتها، فإذا فرغ من القِصاص بينها قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتنِي كنتُ تراباً﴾. ونحوه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، مجوداً والحمد لله. ذكر أبو جعفر النّحاس: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال حدثنا سَلَمة بن شبيب، قال حدثنا عبد الرازق، قال حدثنا مَعْمر، قال أخبرني جعفر بن بَرْقان الجَزَريّ، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، قال: إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان، ثم يقال للبهائم والطير كوني تراباً، فعند ذلك ﴿يقول الكافر: يا ليتني كنتُ تُراباً﴾. وقال قوم: ﴿يا ليتنِي كنت تراباً﴾: أي لم أبعث، كما قال: ﴿يا ليتنِي لم أُوْتَ كِتابِيه﴾. وقال أبو الزّناد: إذا قُضِي بين الناس، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة، وأهلِ النار إلى النار، قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجنّ: عودُوا تراباً، فيعودون تراباً، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم ﴿يا ليتنِي كنت تراباً﴾. وقال ليث بن أبي سليم: مؤمنو الجنّ يعودون تراباً. وقال عمر بن عبد العزيز والزهريّ والكلبيّ ومجاهد: مؤمنو الجِنِّ حول الجنة في رَبَضٍ ورِحاب وليسوا فيها. وهذا أصح، وقد مضى في سورة «الرحمن»[1] بيان هذا، وأنهم مكلّفون: يُثابون ويعاقبون، فهم كبني آدم، والله أعلم بالصواب.

---

(١) راجع ١٧/١٦٩.

سورة النازعات

مَكِّية بإجماع. وهي خمس أو ست وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١)﴾. [٢] ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢)﴾.

[٣] ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣)﴾. [٤] ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)﴾.

[٥] ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾. [٦] ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦)﴾.

[٧] ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾. [٨] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨)﴾.

[٩] ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)﴾. [١٠] ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠)﴾.

[١١] ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١)﴾.

[١٢] ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢)﴾.

[١٣] ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣)﴾.

[١٤] ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿والنازِعاتِ غرقاً﴾: أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها، على أن القيامة حقٌّ. و «النازعاتِ»: الملائكة التي تنزِع أرواحَ الكفار؛ قاله عليّ رضي الله عنه، وكذا قال ابن مسعود وٱبن عباس ومسروق ومجاهد: هي الملائكة تَنْزِع نفوس بني آدم. قال ٱبن مسعود: يريد أنفسَ الكُفار يَنْزِعها ملك الموت من أجسادهم، من تحت كل شعرة، ومن تحت الأظافير وأصول القدمين نَزْعا كالسَّفُّود يُنزَع من الصُّوف الرَّطْب، ثم يغرِقها، أي يرجعها في أجسادهم، ثم ينزِعها؛ فهذا عمله بالكفار. وقاله ٱبن عباس. وقال سعيد بن جبير: نُزِعت أرواحهم، ثم غرقت، ثم حُرِقت؛ ثم قُذِف بها في النار. وقيل: يرى الكافر نفسه في وقت النزع كأنها تغرَق. وقال السُّدِّيّ: و «النازِعاتِ» هي النفوس حين تَغْرَق في الصدور. مجاهد: هي الموت ينزع النفوس. الحسن وقتادة: هي النجوم تُنزع من أفق إلى أفق؛ أي تذهب، من قولهم: نَزَع إليه أي ذهب، أو من قولهم: نَزَعَت الخيل أي جرت. ﴿غَرْقاً﴾

أي إنها تغرقَ وتغيب وتطلعُ من أفق إلى أفق آخر. وقاله أبو عُبيدة وآبن كَيسان والأخفش. وقيل: النازعات القِسِيّ تنزع بالسّهام؛ قاله عطاء وعِكْرمة. و «غَرْقا» بمعنى إغراقاً؛ وإغراق النازع في القوس أن يبلغ غاية المدّ، حتى ينتهي إلى النصل. يقال: أغرق في القوس أي آستوفى مدّها، وذلك بأن تنتهي إلى العَقَب الذي عند النصل الملفوف عليه. والاستغراق الاستيعاب. ويقال لقشرة البيضة الداخلة: «غِرْقِىء». وقيل: هم الغُزاة الرُّماة.

قلت: هو والذي قبله سواء؛ لأنه إذا أقسم بالقِسِيّ فالمراد النازعون بها تعظيماً لها؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿والعادِياتِ ضبحا﴾ والله أعلم. وأراد بالإغراق: المبالغة في النزع وهو سائغ في جميع وجوه تأويلها. وقيل: هي الوحش تنزع[1] من الكلأ وتنفر. حكاه يحيـى بن سلام. ومعنى «غرقاً» أي إبعاداً في النزع.

قوله تعالى: ﴿والناشِطاتِ نَشْطاً﴾ قال آبن عباس: يعني الملائكة تنشِط نفس المؤمن، فتقبضها كما يُنْشَط العِقال من يد البعير: إذا حُلَّ عنه. وحكى هذا القول الفراء ثم قال: والذي سمعت من العرب أن يقولوا أُنشِطت وكأنما أُنشِط من عِقال. ورَبْطها نَشْطُها والرابط الناشط، وإذا ربطت الحبل في يد البعير فقد نَشطته، فأنت ناشط، وإذا حللته فقد أَنشطته وأنت مُنْشِط. وعن آبن عباس أيضاً: هي أنفس المؤمنين عند الموت تَنْشَط للخروج؛ وذلك أنه ما من مؤمن [يحضره الموت][2] إلا وتُعرض عليه الجنة قبل أن يموت، فيرى فيها ما أعدّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين، فهم يدعونه إليها، فنفسه إليهم نِشطَة أن تخرج فتأتيهم. وعنه أيضاً قال: يعني أنفس الكفار والمنافقين تنْشط كما ينشَط العقب، الذي يعقب به السهم. والعقَب بالتحريك: العصب الذي تعمل منه الأوتار، الواحدة عَقَبة؛ تقول منه: عَقَبَ السهم والقدح والقوس عَقْبا: إذا لوى شيئاً منه عليه. والنشط: الجذب بسرعة، ومنه الأنشوطة: عقدة يسهل آنحلالها إذا جذِبت مثل عقدة التكة. وقال أبو زيد: نشطت

---

(١) في نسخ الأصل: تنزع من الكلأ. وفي البحر: تنزع إلى... الخ.
(٢) الزيادة من تفسير الثعلبي.

الحبل أَنشِطه نَشْطاً: عقدته بأنشوطة، وأَنشطته أي حللته، وأَنشطْت الحبل أي مددته حتى ينحلّ. وقال الفراء: أُنشِط العقال أي حُلّ، ونُشِط: أي رَبط الحبل في يديه. وقال الليث: أنشطته بأُنشوطة وأُنشوطتين أي أوثقته، وأَنشطت العِقال؛ أي مددت أُنشوطته فأنحلت. قال: ويقال نشط بمعنى أَنشط، لغتان بمعنى؛ وعليه يصح قول ٱبن عباس المذكور أوّلاً. وعنه أيضاً: الناشطات الملائكة لنشاطها، تذهب وتجيء بأمر الله حيثما كان. وعنه أيضاً وعن عليّ رضي الله عنهما: هي الملائكة تنشِط أرواح الكفار، ما بين الجلد والأظفار، حتى تخرجها من أجوافهم نَشْطا بالكَرْب والغمّ، كما تَنْشِط الصوف من سَفُّود الحديد، وهي من النَّشْط بمعنى الجذب؛ يقال: نَشَطْت الدلو أَنشِطُها بالكسر، وأَنشُطها بالضم: أي نزعتها. قال الأصمعي: بئر أنشاط: أي قريبة القعر، تخرج الدلو منها بجذبة واحدة. وبئر نَشوط؛ قال: وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى تُنْشَط كثيراً. وقال مجاهد؛ هو الموت يَنْشِط نفس الإنسان. السُّدي: هي النفوس حين تنشِط من القدمين. وقيل: النازعات: أيدي الغُزاة أو أنفسهم، تنزع القِسِيّ بإغراق السهام، وهي التي تَنْشِط الأوهاق[1]. عِكرمة وعطاء: هي الأوهاق تَنْشِط السهام. وعن عطاء أيضاً وقتادة والحسن والأخفش: هي النجوم تنشِط من أفق إلى أفق: أي تذهب. وكذا في الصحاح. ﴿والناشِطاتِ نشطاً﴾ يعني النجوم من بُرْج إلى برج، كالثور الناشط من بلد إلى بلد. والهموم تنشِط بصاحبها؛ قال هِميان بن قُحافة:

أَمْسَت همومِي تنشِط المناشِطَا الشامَ بِي طوراً وطوراً واسِطَا

أبو عبيدة وعطاء أيضاً: الناشطات: هي الوحش حين تنشِطُ من بلد إلى بلد، كما أن الهموم تنشِطُ الإنسان من بلد إلى بلد؛ وأنشد قول هِميان:

أمست همومي. . . البيت

وقيل: «والنازِعاتِ» للكافرين «والناشِطاتِ» للمؤمنين، فالملائكة يجذبون رُوح المؤمن برفق، والنزع جذب بشدة، والنشط جذب بِرِفق. وقيل: هما جميعاً للكفار والآيتان بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا.

---

(١) جمع وهق بحركتين وقد يسكن: الحبل تشدّ به الإبل والخيل لئلا تند، ويقال في طرفه أنشوطة.

قوله تعالى: ﴿والسابحات سَبْحا﴾ قال عليّ رضي الله عنه: هي الملائكة تسبَح بأرواح المؤمنين. الكلبي: هي الملائكة تقبض أرواح المؤمنين، كالذي يسبح في الماء، فأحياناً ينغمس وأحياناً يرتفع، يُسلونها سَلاًّ رفيقاً بسهولة، ثم يدعونها حتى تستريح. وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله؛ كما يقال للفرس الجواد سابح: إذا أسرع في جريه. وعن مجاهد أيضاً: الملائكة تسبح في نزولها وصعودها. وعنه أيضاً: السابحات: الموت يسبح في أنفس بني آدم. وقيل: هي الخيل الغزاة؛ قال عنترة:

والخيـــلُ تعلَـــمُ حيـــن تَسْـ ـبَحُ في حِياض الموت سَبْحا

وقال آمرؤ القيس:

مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى أثَرْنَ غُباراً بالكَديد المُرَكَّلِ[1]

قتادة والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها، وكذا الشمس والقمر؛ قال الله تعالى: ﴿كل في فلك يَسْبَحون﴾. عطاء: هي السُّفن تسبح في الماء. آبن عباس: السابحات أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج.

قوله تعالى: ﴿فالسابقات سبقاً﴾ قال عليّ رضي الله عنه: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام. وقاله مسروق ومجاهد. وعن مجاهد أيضاً وأبي رَوْق: هي الملائكة سبقت آبن آدم بالخير والعمل الصالح. وقيل: تسبق بني آدم إلى العمل الصالح فتكتبه. وعن مجاهد أيضاً: الموت يسبق الإنسان. مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة. آبن مسعود؛ هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقْبضونها وقد عاينتِ السرور، شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته. ونحوه عن الربيع، قال: هي النفوس تسبق بالخروج عند الموت. وقال قتادة والحسن ومعمر: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير. عطاء: هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد. وقيل: يحتمل أن تكون

(١) مسح: بصب الجري. الوني؛ الفتور. الكديد: الموضع الغليظ. المركل: الذي يركل بالأرجل. ومعنى البيت: إن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جرياً سهلاً كما يسبح السحاب المطر.

السابقات ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار؛ قاله الماوردي. وقال الجُرجانيّ: ذكر «فالسابقات» بالفاء لأنها مشتقة من التي قبلها؛ أي واللائي يسبحن فيسبقن، تقول: قام فذهب؛ فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب، ولو قلت: قام وذهب، لم يكن القيام سبباً للذهاب.

قوله تعالى: ﴿فالمدَبِّرات أَمْراً﴾ قال القُشَيريّ: أجمعوا على أن المراد الملائكة. وقال الماوردي: فيه قولان: **أحدهما** ـ الملائكة؛ قاله الجمهور. **والقول الثاني** ـ هي الكواكب السبعة. حكاه خالد بن مَعْدان عن مُعاذ بن جبل. وفي تدبيرها الأمر وجهان: **أحدهما** ـ تدبير طلوعها وأفولها. **الثاني** ـ تدبيرها ما قضاه الله تعالى فيها من تقلّب الأحوال. وحكى هذا القول أيضاً القشيري في تفسيره، وأن الله تعالى علّق كثيراً من تدبير أمر العالم بحركات النجوم، فأضيف التدبير إليها وإن كان من الله، كما يسمى الشيء باسم ما يجاوره. وعلى أن المراد بالمدبِّرات الملائكة، فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله؛ قاله آبن عباس وقتادة وغيرهما. وهو إلى الله جلّ ثناؤه، ولكن لمّا نزلت الملائكة به سميت بذلك؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿نزل بِهِ الروحُ الأمِين﴾ وكما قال تعالى: ﴿ فإنه نَزَّله على قلبِك ﴾ يعني جبريل نزله على قلب محمد ﷺ، والله عزّ وجلّ هو الذي أنزله. وروى عطاء عن آبن عباس: ﴿فالمدبِّراتِ أَمْراً﴾: الملائكة وُكِّلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك. قال عبد الرحمن بن ساباطٍ: تدبير أمر الدنيا إلى أربعة؛ جبريل وميكائيل وملك الموت وآسمه عزرائيل وإسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقَطْر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس في البر والبحر، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل، وبينه وبين العرش مسيرة خمسمائة عام. وقيل: أي وُكِّلوا بأمور عرَّفهم الله بها. ومن أول السورة إلى هنا قسم أقسم الله به، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لنا ذلك إلا به عزّ وجلّ. وجواب القسم مضمر، كأنه قال؛ والنازِعات وكذا وكذا لَتُبعَثُنّ ولتحاسَبُن. أضمر لمعرفة السامعين

بالمعنى ؛ قاله الفراء . ويدل عليه قوله تعالى : ﴿أئِذا كنا عِظاماً نخِرة﴾ ألست ترى أنه كالجواب لقولهم: ﴿أئِذا كنا عِظاماً نَخِرةً﴾ نُبعَث؟ فاكتفى بقوله: ﴿ أئِذا كنا عِظاماً نخِرةً ﴾؟ وقال قوم : وقع القسم على قوله: ﴿إنّ فِي ذلِكَ لعِبرةً لِمنْ يخشَى ﴾ وهذا ٱختيار التِّرمذي ابن عليّ . أي فيما قصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى وفرعون ﴿ لعِبرة لِمن يخشى ﴾ ولكنّ وَقْع القسم على ما في السورة مذكوراً ظاهراً بارزاً أَحْرى وأقمن من أن يؤتى بشيء ليس بمذكور فيما قال ابن الأنباريّ : وهذا قبيح ، لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل: جواب القسم ﴿ هل أتاك حدِيث موسى ﴾ لأن المعنى قد أتاك. وقيل: الجواب ﴿يوم تَرْجُفُ الراجِفةُ ﴾ على تقدير ليَوم ترجُف، فحذف اللام. وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقديره يوم ترجُف الراجفة وتتبعها الرادفة والنازعات غرقاً. وقال السجستاني: يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير، كأنه قال: فإذا هم بالساهرة والنازعات. ٱبن الأنباريّ: وهذا خطأ؛ لأن الفاء لا يُفْتح بها الكلام، والأوّل الوجْه. وقيل : إنما وقع القسم على أن قلوب أهل النار تجفّ ، وأبصارهم تخشع، فانتصاب ﴿ يومَ ترجُف الراجفة ﴾ على هذا المعنى، ولكن لم يقع عليه. قال الزجاج: أي قلوب واجفة يوم ترجُف. وقيل: ٱنتصب بإضمار ٱذكر. و «ترجُف» أي تضطرب. والراجفة: أي المضطربة كذا قال عبد الرحمن بن زيد؛ قال: هي الأرض، والرادِفة الساعة. مجاهد: الراجفة الزلزلة ﴿تتبعها الرادِفة﴾ الصيْحة. وعنه أيضاً وٱبن عباس والحسن وقتادة: هما الصيحتان. أي النفختان. أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى ، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى . وجاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: «بينهما أربعون سنة» وقال مجاهد أيضاً: الرادفة حين تنشق السماء وتُحمل الأرضُ والجبال فتدك دكة واحدة، وذلك بعد الزلزلة. وقيل: الراجفة تَحرُّك الأرض، والرادفة زلزلة أخرى تفني الأَرَضين». فالله أعلم. وقد مضى في آخر «النمل»[1] ما فيه كفاية في النفخ في الصور. وأصل الرجفة الحركة ، قال الله تعالى : ﴿ يوم ترجفُ الأرض ﴾ وليست الرجفة ها هنا من

(١) راجع ١٣/ ٢٣٩ فما بعدها.

الحركة فقط، بل من قولهم: رجَف الرعد يرجُف رَجْفاً ورَجيفاً: أي أظهر الصوتَ والحركةَ، ومنه سميت الأراجيف، لاضطراب الأصوات بها، وإفاضة الناس فيها؛ قال:

أبِالأراجِيف يا بن اللومِ تُوعِدنِي ... وفِي الأَرَاجِيف خِلتُ اللؤمَ والخوَرَا[(١)]

وعن أُبيّ بن كعب أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ربع الليل قام ثم قال: «يا أيّها الناس أذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه». ﴿قلوب يومئِذٍ واجِفة﴾ أي خائفة وجلة؛ قاله ابن عباس وعليه عامة المفسرين. وقال السُّدِّي: زائلة عن أماكنها. نظيره ﴿إِذِ القلوب لدى الحناجِرِ﴾. وقال المؤرِّخ: قلقة مُسْتَوْفِزة، مرتكضة[(٢)] غير ساكنة. وقال المبرد: مضطربة. والمعنى متقارب، والمراد قلوب الكفار؛ يقال وجَفَ القلب يجِف وجِيفاً إذا خَفَق، كما يقال: وجَب يَجِب وَجيباً، ومنه وجيف الفرس والناقة في العدو، والإيجاف حمل الدابة على السير السريع، قال:

بُدِّلْنَ بعد جِرةٍ صَرِيفَا ... وبعد طولِ النَّفَسِ الوجِيفا

و «قلوب» رفع بالابتداء و «واجِفة» صفتها. و ﴿أبصارها خاشِعة﴾ خبرها؛ مثل قوله ﴿ولعبد مؤمِن خيرٌ مِن مشرِكٍ﴾ ومعنى «خاشِعة» منكسرة ذليلة من هول ما ترى. نظيره: ﴿خاشِعة أبصارهم ترهَقُهم ذِلّة﴾ والمعنى أبصار أصحابها، فحذف المضاف. ﴿يقولون أئِنا لمردودون في الحافِرة﴾ أي يقول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث، إذا قيل لهم إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟ وهو كقولهم: ﴿أئِنا لمبعوثون خلقاً جدِيداً﴾ يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته، أي رجع من حيث جاء؛ قاله قتادة. وأنشد ابن الأعرابي:

---

(١) قائله منازل بن ربيعة المنقري في هجو رؤبة والعجاج: والرواية المشهورة للبيت كما في كتب النحو كشرح التصريح وغيره هي:

أبالأراجيز يا بن اللؤم توعدني ... وفي الأراجيز ـ خلت ـ اللؤم والخور

والأراجيز جمع أرجوزة، وهي القصائد الجارية على بحر الرجز: وفي الأراجيز خبر مقدّم واللؤم مبتدأ مؤخر وتوسط (خلت) بين المبتدإ والخبر أبطل عملها، وهو موضع الشاهد في البيت عند النحاة. وقيل لا يمتنع النصب على أن يقدر مبتدأ أي (أما).

(٢) مرتكضة: مضطربة.

أحـافِـرةً علـى صَلَـع وشَيْـبٍ مَعَـاذ اللَّـهِ مِـن سَفَـهٍ وعـارِ

يقول: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغَزَل والصِّبا بعد أن شِبت وصَلِعت! ويقال: رجع على حافرته: أي الطريق الذي جاء منه. وقولهم في المثل: النقدُ عند الحافرة. قال يعقوب: أي عند أوّل كلمة. ويقال: ٱلتقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة. أي عند أوّل ما ٱلتقوا. وقيل: الحافرة العاجلة؛ أي أئنا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا؟ قال الشاعر:

آليـتُ لا أنسـاكُـمُ فـاْعلَمُـوا حَتَّى يُرَدَّ الناسُ في الحافِرهْ

وقيل: الحافرة: الأرض التي تُحْفَر فيها قبورُهم، فهي بمعنى المحفورة؛ كقوله تعالى: ﴿ماءٍ دافِقٍ﴾ و ﴿عِيشةٍ راضِيةٍ﴾. والمعنى أئنا لمردودون في قبورنا أَحْياء. قاله مجاهد والخليل والفرّاء. وقيل: سميت الأرض الحافرة؛ لأنها مستقرّ الحوافر، كما سميت القدم أرضاً؛ لأنها على الأرض. والمعنى أئنا لراجعون بعد الموت إلى الأرض فنمشِي على أقدامنا. وقال ٱبن زيد: الحافرة: النار، وقرأ «تِلك إِذًا كَرَّةٌ خاسِرةٌ». وقال مقاتل وزيد بن أسلم: هي ٱسم من أسماء النار. وقال ٱبن عباس: الحافِرة في كلام العرب: الدنيا. وقرأ أبو حَيْوة: «الحَفِرةِ» بغير ألف، مقصور من الحافر. وقيل: الحفِرة: الأرض المنتنة بأجساد موتاها؛ من قولهم: حَفِرت أسنانُه، إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها. يقال: في أسنانه حَفَر، وقد حَفَرت تحفِر حَفْراً، مثل كسر يكسِر كسراً إذا فسدت أصولها. وبنو أسد يقولون: في أسنانه حَفَر بالتحريك. وقد حفِرت مثال تَعِب تعباً، وهي أردأ اللغتين؛ قاله في الصحاح. ﴿أئِذا كنا عِظاماً نخِرةً﴾ أي بالية مُتَفَتِّتَةً. يقال؛ نخِرَ العظم بالكسر: أي بلِي وتفتت؛ يقال: عظام نَخِرَة. وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة، وٱختاره أبو عُبيد؛ لأن الآثار التي تذكر فيها العظام، نظرنا فيها فرأينا نخِرة لا ناخرة . وقرأ أبو عمرو وٱبنه عبد الله وٱبن عباس وٱبن مسعود وٱبن الزبير وحمزة والكسائي وأبو بكر « ناخِرة » بألف ، وٱختاره الفرّاء والطَبريّ وأبو معاذ النحويّ؛ لِوِفاق رءوس الآي. وفي الصحاح: والناخِر من العظام

التي تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولها نَخِير. ويقال: ما بها ناخر، أي ما بها أحد. حكاه يعقوب عن الباهليّ. وقال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة التي لم تنخر بعد، أي لم تبل ولا بدّ أن تنخر. وقيل: الناخر المُجَوَّفة. وقيل: هما لغتان بمعنى؛ كذلك تقول العرب: نخِر الشيء فهو نخِر وناخِر؛ كقولهم: طمِع فهو طمِع وطامِع، وحذِرٌ وحاذِر، وبخِلٌ وباخِل، وفَرِه وفارِه؛ قال الشاعر:

يظَلّ بِها الشيخُ الذِي كان بادِنا ... يَـدِب علـى عُـوجٍ لـه نَخِـراتِ

عُوج: يعني قوائم. وفي بعض التفسير: ناخرة بالألف: بالِية؛ ونخِرة: تنخر فيها الريح أي تمر فيها، على عكس الأوّل؛ قال[١]:

مِن بعدِ ما صِرتُ عِظاماً ناخِرة

وقال بعضهم: الناخرة: التي أُكِلت أطرافها وبقيت أوساطها. والنخرة: التي فسدت كلها. قال مجاهد: نخرة أي مرفوتة؛ كما قال تعالى: ﴿عِظاماً ورُفاتاً﴾ ونُخْرة الريح بالضم: شدّة هبوبها. والنُّخْرة أيضاً والنُّخَرة مثال الهُمَزة: مقدم أنف الفرس والحمار والخنزير؛ يقال؛ هشم نُخْرَته: أي أنفه. ﴿قالوا تِلك إذاً كَرَّة خاسِرة﴾ أي رَجْعة خائبة، كاذبة باطلة، أي ليست كائبه؛ قاله الحسن وغيره. الربيع بن أنس: «خاسِرة» على من كذب بها. وقيل: أي هي كرة خُسران. والمعنى أهلها خاسرون؛ كما يقال: تجارة رابحة أي يربح صاحبها. ولا شيء أخسر من كَرَّة تقتضي المصير إلى النار. وقال قتادة ومحمد بن كعب: أي لئن رجعنا أحياء بعد الموت لنخْشَرَنّ بالنار، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار. والكر: الرجوع؛ يقال: كره، وكر بنفسه، يتعدى ولا يتعدى. والكرة: المرة، والجمع الكرات. ﴿فإنما هِي زجْرة واحِدة﴾ ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال: ﴿فإنما هِي زَجْرة واحدة﴾. ورَوى الضحاك عن ابن عباس قال: نفخة واحدة ﴿فإذا هم﴾ أي الخلائق أجمعون ﴿بِالساهِرةِ﴾ أي على وجه الأرض، بعد ما كانوا في بطنها. قال الفرّاء: سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نَوم

(١) قائله الهمداني يوم القادسية.

الحيوان وسهرهم. والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض ساهِرة، بمعنى ذاتِ سَهَر؛ لأنه يُسْهَر فيها خوفاً منها، فوصفها بصفة ما فيها؛ وٱستدل ٱبن عباس والمفسرون بقول أمية بن أبي الصَّلْت:

وفيهـا لحـمُ سـاهِـرةٍ وبحـرٌ ... ومـا فـاهـوا بِـهِ لَهُـمُ مُقِيـمُ

وقال آخر يوم ذي قارٍ لفرسه:

أَقـدم مَحَـاجِ إنهـا الأَسـاوِرهْ ... ولا يَهُـولنَّـكَ رِجْـل[١] نـادِرهْ

فـإنمـا قَصْـرُكَ تُـربُ السـاهِـرهْ ... ثـم تعـودُ بعـدَهـا فـي الحـافِـرهْ

مِن بعدِ ما صِرت عِظاما ناخِرَهْ

وفي الصحاح. ويقال: الساهور: ظِل الساهِرة، وهي وجه الأرض. ومنه قوله تعالى: ﴿فإذا هُمْ بالساهِرةِ﴾، قال أبو كبير الهذليّ:

يَـرتَـدْنَ سـاهِـرةً كـأنّ جمِيمَهـا ... وعمِيمَها أَسْداف ليلٍ مُظلمِ[٢]

ويقال: الساهور: كالغِلاف[٣] للقمر يدخُل فيه إذا كُسِف، وأنشدوا قول أمية بن أبي الصَّلْت[٤]:

قَمر وساهورٌ يُسَلّ ويُغْمَدُ

وأنشدوا لآخَر في وصف ٱمرأة:

كـأنهـا عِـرقُ سـامٍ عِنـد ضـارِبِـهِ ... أَوْ شُقةٌ[٥] خرجَتْ مِن جوفِ ساهورِ

يريد شُقَّة القمر. وقيل: الساهرة: هي الأرض البيضاء. ورَوى الضحاك عن ٱبن عباس قال: أرض من فِضة لم يعص الله جلّ ثناؤه عليها قط خلقها حينئذٍ. وقيل: أرض جددها

---

(١) هذه الأبيات للهمداني يوم القادسية وقد تقدم ذكرها. محاج: ٱسم فرس الشاعر. وفي «اللسان» مادة «نخر» أقدم أخانهم. ولا تهولنك رءوس. وفي السمين: بادره. (٢) الجميم بالجيم: النبت الذي قد نبت وٱرتفع قليلاً ولم يتم كل التمام، والعميم المكتمل التام من النبت، والأسداف: جمع سدف بالتحريك، وهو ظلمة الليل. (٣) هذا كما تزعم العرب في الجاهلية. (٤) وصدر البيت:

لا نقص فيه غير أنه خبيئة

(٥) كذا في نسخ الأصل التي بأيدينا. والذي في «اللسان» مادة «سهر»: أو فلقة.

الله يوم القيامة. وقيل: الساهرة ٱسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض. وقال الثوري: الساهرة: أرض الشام. وهب بن منبه: جبل بيت المقدس. عثمان بن أبي العاتكة: إنه ٱسم مكان من الأرض بعينه، بالشام، وهو الصقع الذي بين جبل أريحاء وجبل[١] حسان يمده الله كيف يشاء. قتادة: هي جهنم أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم. وإنما قيل لها ساهرة؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذٍ. وقيل: الساهرة: بمعنى الصحراء على شفير جهنم؛ أي يوقفون بأرض القيامة، فيدوم السهر حينئذٍ. ويقال: الساهرة: الأرض البيضاء المستوية سميت، بذلك، لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة: جارية الماء، وفي ضدها: نائمة؛ قال الأشعث بن قيس:

وساهرة يُضْحِي السرابُ مُجَلِّلا ... لأقطـارِهـا قـد جئتُهـا متلثِّمـاً

أو لأن سالكها لا ينام خَوف الهَلَكة.

[١٥] ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾. [٢٤] ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾. [٢٦] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هل أتاك حدِيث موسى * إذ ناداه ربه بِالوادِ المقدسِ طُوًى﴾ أي قد جاءك وبلغك «حدِيث موسى» وهذا تسلية للنبي ﷺ أي إن فرعون

(١) ذكره الطبري أيضاً.

كان أقوى من كفار عصرك، ثم أخذناه، وكذلك هؤلاء. وقيل: «هل» بمعنى «ما» أي ما أتاك، ولكن أُخبرت به، فإن فيه عِبرةً لمن يخشَى. وقد مضى من خبر موسى وفرعونَ في غير موضع ما فيه كفاية[١]. وفي «طُوَى» ثلاث قراءات: قرأ ٱبن محيصن وٱبن عامر والكوفيون «طُوى» منوناً وٱختاره أبو عبيد لخفة الاسم. الباقون بغير تنوين؛ لأنه معدول مثل عُمر وقُثَم؛ قال الفرّاء: طُوَى: وادٍ بين المدينة ومصر. قال: وهو معدول عن طاوٍ، كما عدل عمر عن عامر. وقرأ الحسن وعِكرمة «طِوَى» بكسر الطاء، ورُوي عن أبي عمْرو، على معنى المُقَدَّس مرة بعد مرة؛ قاله الزَّجاج؛ وأنشد:

أَعَاذِلَ إِنّ اللوم في غيرِ كنهِهِ ... عليَّ طِوَى مِن غَيِّكِ المتردِّدِ[٢]

أي هو لوم مكرر عليّ. وقيل: ضم الطاء وكسرها لغتان، وقد مضى في «طه»[٣] القول فيه. ﴿ٱذهب إلى فِرعونَ﴾ أي ناداه ربه، فحذف، لأن النداء قول: فكأنه؛ قال له ربه «ٱذهب إلى فِرعون». ﴿إنه طَغَى﴾ أي جاوز القدر في العصيان. ورُوي عن الحسن قال: كان فرعون عِلْجا من هَمْدان. وعن مجاهد قال: كان من أهل إِصطَخر. وعن الحسن أيضاً قال: من أهل أَصْبهان، يقال له ذو ظفر، طوله أربعة أشبار. ﴿فقلْ هل لك إلى أَنْ تزكَّى﴾ أي تسلِم فتطهرَ من الذنوب. وروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: هل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله. ﴿وأَهْديك إلى ربك﴾ أي وأُرشدك إلى طاعة ربك ﴿فتخشَى﴾ أي تخافه وتتقيه. وقرأ نافع وٱبن كثير «تَزَّكَّى» بتشديد الزاي، على إدغام التاء في الزاي لأن أصلها تتزكى. الباقون: «تَزَكَّى» بتخفيف الزاي على معنى طرح التاء. وقال أبو عمرو: «تَزَّكَّى» بالتشديد[٤] [تَتَصَدَّق بـ] ـالصدقة ، و « تَزَكّى » يكون زكياً مؤمناً . وإنما دعا فرعون ليكون زكياً مؤمناً. قال: فلهذا ٱخترنا التخفيف. وقال صخر بن جُوَيْرية:

---

(١) راجع ٧/٢٥٦ فما بعدها، و١١/ ٢٠٠ فما بعدها، و ١٣/ ٢٥٠ فما بعدها.

(٢) قائله عدي بن زيد.

(٣) راجع ١١/ ١٧٥.

(٤) الزيادة من الطبري، وهي لازمة.

لما بعث الله موسى إلى فرعون قال له: ﴿ٱذهب إِلى فِرعون﴾ إلى قوله: ﴿وأَهْدِيَكَ إلى ربك فتخشَى﴾ ولن يفعل؛ فقال: يا رب، وكيف أذهب إليه وقدعلمتَ أنه لا يفعل؟ فأوحى الله إليه أن ٱمضِ إلى ما أمرتك به، فإن في السماء ٱثني عشر ألف ملَك يطلبون علم القَدر، فلم يبلغوه وَلا يدركوه. ﴿فأراهُ الآيةَ الكُبْرَى﴾ أي العلامة العُظْمَى وهي المعجزة. وقيل: العصا. وقيل: اليد البيضاء تَبْرُقُ كالشمس. وروى الضحاك عن ٱبن عباس: الآية الكبرى قال العصا. الحسن: يده وعصاه. وقيل: فَلْق البحر. وقيل: الآية: إشارة إلى جميع آياته ومعجزاته. ﴿فكذبَ﴾ أي كذب نبيّ الله موسى ﴿وعَصَى﴾ أي عصى ربه عزّوجلّ. ﴿ثم أَدْبَر يسَعى﴾ أي ولَّى مدْبراً معرِضاً عن الإيمان «يسعَى» أي يعمل بالفساد في الأرض. وقيل: يعمل في نكاية موسى. وقيل: «أدبر يسعَى» هارباً من الحية. ﴿فحشَرَ﴾ أي جمع أصحابه ليمنعوه منها. وقيل: جمع جنوده للقتال والمحاربة، والسَّحَرة للمعارضة. وقيل: حشر الناس للحضور. ﴿فنادى﴾ أي قال لهم بصوت عالٍ ﴿أنا ربُكُم الأعلَى﴾ أي لا رب لكم فوقي. ويروَى: إن إبليس تصور لفرعون في صورة الإنس بمصر في الحمام، فأنكره فرعون، فقال له إبليس: ويْحَك! أما تعرفني؟ قال: لا. قال: وكيف وأنت خلقتني؟ ألست القائل أنا ربُكم الأعلَى. ذكره الثعلبيّ في كتاب العرائس. وقال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها، فقال أنا رب أصنامكم. وقيل: أراد القادة والسادةَ، هو ربهم، وأولئك هم أرباب السَّفِلة. وقيل؛ في الكلام تقديم وتأخير؛ فنادى فحشر؛ لأن النداء يكون قبل الحشر. ﴿فأخذه الله نكال الآخِرَةِ والأولى﴾ أي نكال قوله: ﴿ما علِمت لكم مِن إِله غيرِي﴾ وقوله بعد: «أنا ربكم الأعلَى» قاله ٱبن عباس ومجاهد وعِكرمة. وكان بين الكلمتين أربعون سنة؛ قاله ٱبن عباس. والمعنى؛ أمهله في الأولى، ثم أخذه في الآخرة، فعذبه بكلمتيه. وقيل: نكالُ الأولى: هو أن أغرقه، ونكال الآخرة: العذابُ في الآخرة. وقاله قتادة وغيره. وقال مجاهد: هو عذاب أوّل عمره وآخره. وقيل: الآخرة قوله: «أنا ربكم الأعلَى» والأولى تكذيبه لموسى. عن

و «نكالَ» منصوب على المصدر المؤكّد في قول الزَّجاج؛ لأن معنى أخذه الله: نكّل الله به، فأخرج [نكالَ][١] مكانَ مصدر من معناه، لا من لفظه. وقيل: نصب بنزع حرف الصفة، أي فأخذه الله بنكال الآخرة، فلما نزع الخافض نُصِب. وقال الفرّاء: أي أخذه الله أخذاً نكالاً، أي للنكال. والنكال: اسم لما جعل نكالاً للغير أي عقوبة له حتى يعتبر به. يقال: نكّل فلان بفلان: إذا أثخنه عقوبة. والكلمة من الامتناع، ومنه النكولُ عن اليمين، والنِّكْل القيد. وقد مضى في سورة «المزمل»[٢] والحمد لله. ﴿إِن فِي ذَٰلِكَ لعِبرةً﴾ أي اعتباراً وعظة. ﴿لمن يخشى﴾ أي يخاف الله عزّ وجلّ.

[٢٧] ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

قولهُ تعالَى: ﴿ءَأنتمْ أشَدُّ خَلْقاً﴾: يريد أهل مكة، أي أخلقكم بعد الموت أشدّ في تقديركم ﴿أَم السماءُ﴾ فمن قَدَر على السماء قَدَر على الإعادة؛ كقوله تعالى: ﴿لخلْق السمواتِ والأرضِ أكبر مِن خلقِ الناسِ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْس الذِي خلق السموات والأرض بقادِرٍ على أنْ يخلق مِثلَهم﴾، فمعنى الكلام التقريع والتوبيخ. ثم وصف السماء فقال: ﴿بناها﴾ أي رفعها فوقكم كالبناء. ﴿رفع سَمْكها﴾ أي أعلى سقْفها في الهواء؛ يقال: سَمَكت الشيءَ أي رفعته في الهواء، وسَمَك الشيءُ سُمُوكا: ارتفع. وقال الفرّاء: كل شيء حَمَل شيئاً من البناء وغيره فهو سَمْك. وبناء مَسْمُوك وسَنام سامِك تامِك أي عالٍ، والمسموكات[٣]: السَّموات. ويقال: اسْمُك في الدَّيْم، أي اصعد في الدرجة.

---

(١) زيادة تقتضيها العبارة. (٢) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء. (٣) الذي في اللغة المسمكات كمكرمات وورد كذلك في الخبر. وصحح التاج أن المسموكات لغة لا لحن، وبها ورد الخبر عن طريق آخر.

قوله تعالى: ﴿فسَوَّاها﴾ أي خلقها خلقاً مستوياً، لا تفاوت فيه، ولا شُقوق، ولا فُطور. ﴿وأَغطَشَ لَيلَها﴾ أي جعله مظلماً؛ غَطِشَ الليلُ وأغطشهُ الله؛ كقولك: ظَلِم [الليلُ][1] وأظلمه الله. ويقال أيضاً: أغطشَ الليلُ بنفسه، وأغطشه الله؛ كما يقال: أظلمَ الليلُ، وأظلمه الله. والغَطَش والغَبَش: الظلمة. ورجل أغطَش: أي أعمى، أو شبيه به، وقد غَطِش، والمرأة غَطْشاء؛ ويقال: ليلة غَطْشاء، وليلٌ أغطش، وفلاة غَطْشَى لا يُهْتَدَى لها؛ قال الأعشى:

ويَهْمـاءَ بـالليـلِ غَطشَـى الفَـلا ... ةِ يـؤنِسنِـي صـوتُ فَيـادِهـا[2]

وقال الأعشى أيضاً:

عَقَـرْتُ لـهُ مَـوْهِنـاً نـاقتِـي ... وغـامِـرُهُـمْ مـدلهِـمٌّ غَطِـشْ

يعني بغامرهم ليلهم، لأنه غمرهم بسواده. وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس، والشمس مضاف إلى السماء؛ ويقال: نجوم الليل، لأن ظهورها بالليل. ﴿وأخرج ضُحاها﴾ أي أبرز نهارَها وضوءها وشمسها. وأضاف الضُّحا إلى السماء كما أضاف إليها الليل؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها. ﴿والأرضَ بعد ذلك دَحاها﴾ أي بسطها. وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء. وقد مضى القول فيه في أول «البقرة»[3] عند قوله تعالى: ﴿هو الذِي خلق لكُمْ ما فِي الأَرضِ جمِيعاً ثم ٱستوى إِلى السماءِ﴾ مستوفًى. والعرب تقول: دَحَوْت الشيءَ أدحوه دحواً: إذا بسطته. ويقال: لعش النعامة أُدحِيّ؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض. وقال أمية بن أبي الصلت:

وبـثَّ الخلـقَ فيهـا إِذ دَحـاهـا ... فهُـمْ قُطَّـانُهـا حتّـى التنـادِي[4]

وأنشد المبرّد:

دحـاهـا فلمـا رآهـا ٱستـوت ... على الماءِ أرسى عليها الجِبالاَ

---

(١) هذه الزيادة من «اللسان» عن الفراء، قال: ظلم الليل بالكسر وأظلم بمعنى.

(٢) الفياد بفتح الفاء وضمها: ذكر البوم.

(٣) راجع ١/ ٢٥٥.

(٤) مضى هذا البيت في ١٥/ ٣١٠ بلفظ: سكانها. والمعنى واحد.

وقيل: دحاها سوّاها؛ ومنه قول زيد بن عمرو:

وأَسلمتُ وجهي لمن أَسلمتْ له الأَرضُ تحمِل صَخْراً ثِقالا
دحاها فلما ٱستوت شَدَّها بأيْدٍ وأرسَى عليها الجِبالا

وعن ٱبن عباس: خلق الله الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان، قبل أن يخلق الدنيا بألف عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت. وذكر بعض أهل العلم أنّ «بعد» في موضع «مع» كأنه قال: والأرض مع ذلك دحاها؛ كما قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بعد ذلِك زَنِيم﴾. ومنه قولهم: أنت أحمق وأنت بعد هذا سَيِّءُ الخلق؛ قال الشاعر:

فقلت لها عَنِّي إِليكِ فإنّني حَرَامٌ وإِنـي بعد ذاك لَبِيبُ

أي مع ذلك لبيب. وقيل: بعد: بمعنى قبل؛ كقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا فِي الزبورِ مِن بعد الذكرِ﴾ أي من قبل الفرقان؛ قال أبو خِراش الهذليّ:

حَمدتُ إِلهِي بعد عروة إِذ نجا خِراشٌ وبعض الشر أهون مِن بعضِ

وزعموا أن خِراشا نجا قبل عروة. وقيل: «دحاها»: حرثَها وشقها. قاله ٱبن زيد. وقيل: دحاها مهّدها للأقوات. والمعنى متقارب. وقراءة العامة «والأرضَ» بالنصب، أي دحا الأرض. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون «والأرض» بالرفع، على الابتداء؛ لرجوع الهاء. ويقال: دحا يدحو دَحْواً ودَحَى يَدْحَى دحياً؛ كقولهم: طغَى يطغَى ويطغُو، وطغِيَ يطغى، ومحا يمحو ويمحي، ولَحَى العودَ يلحَى ويلحو، فمن قال: يدحو قال دحوت ومن قال يدحي قال دحيْت. ﴿ أَخرجَ مِنها ﴾ أي أخرج من الأرض ﴿ ماءها ﴾ أي العيون المتفجّرة بالماء. ﴿ ومرعاها ﴾ أي النبات الذي يُرْعَى. وقال القُتَبي: دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء. ﴿والجِبال أرساها﴾ قراءةُ العامة «والجبالَ» بالنصْب، أي وأرسَى الجبال «أرساها» يعني: أثبتها فيها أوتاداً لها. وقرأ

الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم «والجِبالُ» بالرفع على الابتداء. ويقال: هلا أدخل حرف العطف على «أخرج» فيقال: إنه حال بإضمار قد؛ كقوله تعالى: ﴿حصِرت صدورهم﴾. ﴿متاعاً لكم﴾ أي منفعة لكم. ﴿ولأنعامِكم﴾ من الإبل والبقر والغنم. و «متاعاً» نصب على المصدر من غير اللفظ؛ لأن معنى ﴿أخرج مِنها ماءها ومرعاها﴾ أمتع بذلك. وقيل: نصب بإسقاط حرف الصفة تقديره لتتمتعوا به متاعاً.

[٣٤] ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[٣٦] ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فإذا جاءتِ الطامَّة الكبرى﴾ أي الداهية العظمى، وهي النفخة الثانية، التي يكون معها البعث؛ قاله ابن عباس في رواية الضحاك عنه، وهو قول الحسن. وعن ابن عباس أيضاً والضحاك: أنها القيامة؛ سميت بذلك لأنها تطِمُّ على كل شيء، فتعم ما سواها لعظم هولها؛ أي تقلبه. وفي أمثالهم:

جرى الوادِي فطَمَّ على القَرِيِّ[1]

المبرد: الطامّة عند العرب الداهية التي لا تستطاع، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم: طم الفرس طميماً إذا استفرغ جهده في الجري، وطم الماء إذا ملأ النهر كله. غيره: هي مأخوذة من طمّ السيلُ الرّكِية[2] أي دفنها، والطمّ: الدفن والعلو. وقال القاسم بن الوليد الهمْداني؛ الطامة الكبرى حين يُساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار. وهو معنى قول مجاهد: وقال سفيان: هي الساعة التي يُسْلَم فيها أهل النار إلى الزبانية. أي الداهية التي طَمَّت وعظمت؛ قال:

إن بعض الحبِّ يُعْمِي ويصِمُّ وكـذاك البغـضُ أدهَـى وأطَـمّ

(١) القريّ مجرى الماء في الروضة والجمع أقرية وأقراء وقريان؛ ويضرب المثل عند تجاوز الشيء حده.

(٢) الركية: البئر؛ أي جرى سيل الوادي.

﴿يومَ يَتذكَّر الإنسانُ ما سعَى﴾ أي ما عمل من خير أو شر. ﴿وبُرِّزَت الجَحِيمُ﴾ أي ظهرت. ﴿لمن يرى﴾ قال ابن عباس: يكشف عنها فيراها تتلظى كل ذي بصرَ. وقيل: المراد الكافر لأنه الذي يرى النار بما فيها من أصناف العذاب. وقيل: يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة ويصلَى الكافر بالنار. وجواب «فإذا جاءتِ الطامَّةُ» محذوف أي إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة. وقرأ مالك بن دينار: «وَبَرَزَتِ الجحِيمُ». عِكرمة: وغيره: «لِمن ترى» بالتاء، أي لمن تراه الجحيم، أو لمن تراه أنت يا محمد. والخطاب له عليه السلام، والمراد به الناس.

[٣٧] ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧﴾.

[٣٨] ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ٣٨﴾.

[٣٩] ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ٣٩﴾.

[٤٠] ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ٤٠﴾.

[٤١] ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ٤١﴾.

قوله تعالى: ﴿فأما من طَغَى * وآثرَ الحياةَ الدنيا﴾ أي تجاوز الحد في العِصيان. قيل: نزلت في النضر وابنه الحارث، وهي عامة في كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة. وروي عن يحيى بن أبي كثير قال: من اتخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طَغى. وروَى جُوَيبر عن الضحّاك قال: قال حذيفة: أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يَرَوْن على ما يَعلَمون[1]. ويروى أنه وجد في الكتب: إن الله جلّ ثناؤه قال: «لا يؤثِرُ عبدٌ لي دنياه على آخرته، إلا بثثت عليه همومه وضيعته[2]، ثم لا أبالي في أيِّها هلك». ﴿فإن الجحِيمَ هِي المأوَى﴾ أي مأواه. والألف واللام بدل من الهاء. ﴿وأما من خاف مقَام ربِّه﴾ أي حَذِر مقامه بين يدي ربه. وقال الربيع: مقامه يوم الحساب. وكان قتادة يقول: إن للّهِ عزّ وجلّ مَقاماً قد خافه المؤمنون. وقال مجاهد: هو خوفه في الدنيا من الله عزّ وجلّ عند مواقعة الذنب

---

(١) في ط: ما يعملون. (٢) كذا في أ، ح، ز، ل. وفي بعض الأصول: وصنيعته.

فيقلع، نظيره: ﴿ولِمن خاف مَقامَ ربهِ جنتانِ﴾. ﴿وَنَهَى النفسَ عنِ الهوى﴾ أي زجرها عن المعاصي والمحارم. وقال سهل: ترك الهوى مِفتاح الجنة؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿وأما من خاف مقام ربهِ ونهى النفسَ عنِ الهوى﴾ قال عبد الله بن مسعود: أنتم في زمان يقود الحقُّ الهوى، وسيأتي زمان يقود الهَوَى الحقَّ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان. ﴿فإن الجنة هِي المأوَى﴾ أي المنزل. والآيتان نزلتا في مصْعَب بن عُمير وأخيه عامر بن عمير؛ فرَوى الضحاك عن ابن عباس قال: أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أُسِر يوم بدر، فأخذته الأنصار فقالوا: من أنت؟ قال: أنا أخو مُصْعَب بن عُمير، فلم يشدُّوه في الوَثاق، وأكرموه وبيتوه عندهم، فلما أصبحوا حدّثوا مصعَب بن عُمَير حديثه؛ فقال: ما هو لي بأخٍ، شدّوا أسيركم، فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً. فأوثقوه حتى بعثت أمّه في فِدائه. ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾ فمصْعَب بن عمير، وقى رسول الله ﷺ بنفسه يوم أُحُد حين تفرّق الناس عنه، حتى نفذت المشاقص في جوفه. وهي السهام، فلما رآه رسول الله ﷺ متشحِّطاً في دمه قال: «عندَ الله أحتسبك» وقال لأصحابه: «لقد رأيته وعليه بُردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعليه من ذَهب». وقيل: إن مصعب بن عمير قتل أخاه عامِراً يوم بدر. وعن ابن عباس أيضاً قال؛ نزلت هذه الآية في رجلين: أبي جهل بن هشام المخزوميّ ومصعب بن عمير العبدريّ. وقال السُّدِّي: نزلت هذه الآية ﴿وأما من خاف مقام ربهِ﴾ في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وذلك أن أبا بكر كان له غلام يأتيه بطعام، وكان يسأله من أين أتيت بهذا، فأتاه يوماً بطعام فلم يسأله وأكله؛ فقال له غلامه: لِم لا تسألني اليوم؟ فقال: نسيت، فمن أين لك هذا الطعام. فقال: تكهنت لقوم في الجاهلية فأعطَوْنيه. فتقايأه من ساعته وقال: يا رب ما بقي في العروق فأنت حبَسته فنزلت: ﴿وأما من خاف مقام ربهِ﴾. وقال الكلبيّ: نزلت في من هَمّ بمعصية وقدر عليها في خَلْوة ثم تركها من خوف الله. ونحوه عن ابن عباس. يعني من خاف عند المعصية مَقامه بين يدَي الله، فانتهى عنها. والله أعلم.

[٤٢] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾.

[٤٣] ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾.

[٤٤] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾.

[٤٥] ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾.

[٤٦] ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يسألونكَ عنِ الساعةِ أيّانَ مُرْسَاها﴾ قال ٱبن عباس: سأل مشركو مكة رسول الله ﷺ متى تكون الساعة ٱستهزاء، فأنزل الله عزّ وجلّ الآية. وقال عُروة بن الزبير في قوله تعالى: ﴿فِيمَ أنتَ مِن ذِكْرَاها﴾؟ لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة، حتى نزلت هذه الآية ﴿إلى رَبِّكَ مُنتهاها﴾. ومعنى «مُرْساها» أي قيامُها. قال الفرّاء: رُسُوُّها قيامها[١] كرسوّ السفينةِ. وقال أبو عبيدة: أي منتهاها، ومرسَى السفينة حيث تنتهي. وهو قول ٱبن عباس. الربيع بن أنس: متى زمانها. والمعنى متقارب. وقد مضى في «الأعراف»[٢] بيان ذلك. وعن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة إلا بغَضْبة يغضَبُها ربك». ﴿فِيم أنت مِن ذِكراها﴾ أي في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها؟ وليس لك السؤال عنها. وهذا معنى ما رواه الزُّهْرِيّ عن عُروة بن الزُّبير قال: لم يزل النبيُّ ﷺ يسأل عن الساعة حتى نزلت ﴿فِيم أنتَ مِن ذِكراها؟ إلى ربك منتهاها﴾ أي منتهى علمها؛ فكأنه عليه السلام لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك، فقيل له: لا تسأل، فلست في شيء من ذلك. ويجوز أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له؛ أي فيم أنت من ذلك حتى يسألوك بيانَه، ولست ممن يَعلَمه. رُوِي معناه عن ٱبن عباس. والذكْرَى بمعنى الذكر. ﴿إلى ربك مُنتهاها﴾ أي منتهى علمها، فلا يُوجَد عند غيره عِلم الساعة؛ وهو كقوله تعالى: ﴿قل إنما عِلمها عِند ربي﴾ وقوله تعالى: ﴿إن الله عِنده عِلم الساعةِ﴾. ﴿إنما أنت منذِر من يخشاها﴾:

---

(١) قال الفراء: كقولك قام العدل، وقام الحق، أي ظهر وثبت.

(٢) راجع ٨/ ٣٣٥ فما بعدها.

أي مخوِّف؛ وخَصَّ الإنذار بمن يَخْشى، لأنهم المنتفعون به، وإن كان منذراً لكل مكلف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿إنما تنذِر مِن ٱتبع الذكر وخشِي الرحمن بِالغيب﴾.

وقراءة العامة «منذِر» بالإضافة غير منون؛ طلب التخفيف، وإلا فأصله التنوين؛ لأنه للمستقبل وإنما لا ينون في الماضي. قال الفراء: يجوز التنوين وتركه؛ كقوله تعالى: ﴿بالِغُ أمْرِه﴾، و ﴿بالِغٌ أَمرَه﴾ و ﴿مُوهِنُ كيدِ الكافِرين﴾ و ﴿موهِنٌ كيدَ الكافِرين﴾ والتنوين هو الأصل، وبه قرأ أبو جعفر وشَيبة والأعرج وٱبن مُحيص وحُميد وعياش عن أبي عمرو «منذِرٌ» منوناً، وتكون في موضع نصب، والمعنى نصب، إنما ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة. وقال أبو علي: يجوز أن تكون الإضافة للماضي، نحو ضارب زيدٍ أمس؛ لأنه قد فَعَل الإنذار، الآية ردّ على من قال: أحوال الآخرة غير محسوسةٍ، وإنما هي راحة الرُّوح أو تألمها من غير حِسّ. ﴿كَأَنَّهُمْ يومَ يَرَوْنها﴾ يعني الكفار يَرَونَ الساعة ﴿لم يلبثوا﴾ أي في دنياهم، ﴿إلا عَشِية﴾ أي قدر عشية ﴿أو ضحاها﴾ أي أو قدر الضُّحا الذي يلي تلك العشية، والمراد تقليل مدة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لم يلبثوا إلا ساعةً مِن نهارٍ﴾. ورَوَى الضحاك عن ٱبن عباس: كأنهم يوم يَرَوْنَها لم يلبثوا إلا يوماً واحداً. وقيل: «لم يلبثوا» في قبورهم ﴿إلا عشِية أو ضحاها﴾، وذلك أنهم ٱستقصروا مدّة لَبْثِهم في القبور لمَا عاينوا من الهول. وقال الفرّاء: يقول القائل: وهل للعشية ضُحاً؟ وإنما الضحا لصدر النَهار، ولكن أضيف الضحا إلى العشية، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب؛ يقولون: آتيك الغداةَ أو عشيتَها، وآتيك العشيةَ أو غداتها، فتكون العشية في معنى آخر النهار، والغداة في معنى أوّل النهار؛ قال: وأنشدني بعض بني عُقَيل:

نحنُ صَبَحْنا عامِرا في دارِها ... جُرْداً تَعَادَى طَرَفَي نهارِها
عشِيَةِ الهِلالِ أو سِرارِها

أراد: عشيةِ الهلالِ، أو سِرار العشية، فهو أشدّ من آتيك الغداة أو عَشِيَّها.

سورة عَبَس

مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾.

[٢] ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾.

[٤] ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿عَبَس﴾ أي كلح بوجهه؛ يقال: عبس وبَسَر. وقد تقدّمَ. ﴿وتولَّى﴾ أي أعرض بوجهه ﴿أن جاءَهُ﴾ «أنْ» في موضع نصب لأنه مفعول له، المعنى لأن جاءه الأعمى، أي الذي لا يبصر بعينيه. فروى أهل التفسير أجمع أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يَقْطَع عبدُ الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية. قال مالك: إن هشام بن عُروة حدّثه عن عروة، أنه قال: نزلتْ ﴿عبس وتولى﴾ في ٱبن أمّ مكتوم؛ جاء إلى النبي ﷺ فجعل يقول: يا محمد ٱستدنني[١]، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي ﷺ يُعرِض عنه ويُقْبل على الآخر، ويقول: «يا فلان، هل ترى بما أقولُ بأساً»؟ فيقول: [لا والدُّمَى[٢] ما أرى بما تقول بأساً][٣]؛ فأنزل الله «عبس وتولى». وفي الترمذي مسنداً قال؛ حدّثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأُموي، حدّثني أبي، قال هذا ما عرضنا على هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة، قالت: نزلت «عبس وتولى» في ٱبن أمّ مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ

---

(١) الرواية هنا وفي ٱبن العربي يا محمد، والمشهور في التفسير يا رسول الله علمني مما علمك الله. وفي رواية: يا رسول الله أرشدني: كما سيأتي للمصنف.

(٢) الدمى: جمع دمية وهي الصورة، يريد بها الأصنام.

(٣) ما بين المربعين ساقط من ب.

فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعْرض عنه، ويُقْبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً» فيقول: لا؛ ففي هذا نزلت؛ قال: هذا حديث غريب.

الثانية ـ الآية عتاب من الله لنبيه ﷺ في إعراضه وتوليه عن عبد الله بن أم مكتوم. ويقال: عمرو بن أم مكتوم، وٱسم أمّ مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا: هو ٱبن قيس بن زائدة بن الأصمّ، وهو ٱبن خال خديجة رضي الله عنها. وكان قد تشاغل عنه برجل من عظماء المشركين، يقال كان الوليد بن المغيرة. ٱبن العربي: قاله المالكية من علمائنا، وهو يكنى أبا عبد شمس. وقال قتادة: هو أمية بن خلص وعنه: أبيّ بن خلف. وقال مجاهد: كانوا ثلاثة عتبة وشيبة ٱبنا ربيعة وأبيّ بن خلف. وقال عطاء عتبة بن ربيعة. سفيان الثوري: كان النبي ﷺ مع عمه العباس. الزمخشري: كان عنده صناديد قريش: عتبة وشيبة ٱبنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خَلَف، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رَجاء أن يُسْلم بإسلامهم غيرهم. قال ٱبن العربيّ: أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وٱبن أمّ مكتوم كان بالمدينة، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر، ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر عنده مفرداً، ولا مع أحد.

الثالثة ـ أقبل ٱبن أمّ مكتوم والنبي ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوِي طمعه في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ٱبن أمّ مكتوم وهو أعمى فقال؛ يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنما أتباعه العُميان والسَّفلة

والعبيد؛ فعبَس وأعرض عنه؛ فنزلت الآية. قال الثَّوريّ: فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أمّ مكتوم يبسط له رداءه ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي». ويقول: «هل من حاجة»؟ واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما. قال أنس: فرأيته يوم القادسية راكباً وعليه درع ومعه راية سوداء.

الرابعة ـ قال علماؤنا: ما فعله ابن أمّ مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالماً بأن النبي ﷺ مشغول بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصُّفَّة؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيراً أصلح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم، وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى: ﴿ما كان لِنبيّ أن يكون له أسرى﴾.. الآية على ما تقدّم[1]. وقيل: إنما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل، ثقة بما كان في قلب ابن أمّ مكتوم من الإيمان؛ كما قال: «إني لأصل الرجل وغيره أحب إليّ منه، مخافة أن يكُبه الله في النار على وجهه».

الخامسة ـ قال ابن زيد: إنما عبس النبي ﷺ لابن أمّ مكتوم وأعرض عنه؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه، فدفعه ابن أمّ مكتوم، وأبى إلا أن يكلم النبي ﷺ حتى يعلمه، فكان في هذا نوعُ جفاء منه. ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه ﷺ: ﴿عبَس وتولَّى﴾ بلفظ الإخبار عن الغائب، تعظيماً[2] له ولم يقل: عبَستَ وتوليتَ. ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له فقال: ﴿وما يُدْرِيكَ﴾ أي يعلمك ﴿لَعَلَّه﴾ يعني ابن أمّ مكتوم ﴿يَزَّكَّى﴾ بما استدعَى منك تعليمه إياه من القرآن والدين، بأن يزداد طهارة في دينه، وزوال ظلمة الجهل عنه. وقيل: الضمير في «لعله» للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذَّكر، فتقربه الذكرى إلى قبول الحق

---

(١) راجع ٨/٤٥ فما بعدها.

(٢) في أ، ح: تعليماً.

وما يُدْريك أن ما طمعت فيه كائن. وقرأ الحسن «آأن[١] جاءه الأعمى» بالمدّ على الاستفهام فـ «ـأن» متعلقة بفعل محذوف دل عليه «عبس وتولى» التقدير: آأن جاءه أعرض عنه وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على «وتولّى»، ولا يوقف عليه على قراءة الخبر، وهي قراءة العامة.

السادسة ـ نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربهم بالغَداة والعَشِيّ﴾ وكذلك قوله في سورة الكهف: ﴿ولا تَعْدُ عَيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ وما كان مثله، والله أعلم. ﴿أَوْ يَذَّكَّر﴾ يتعظ بما تقول ﴿فتنفَعه الذِّكرى﴾ أي العظة. وقراءة العامة «فتنفعُه» بضم العين، عطفاً على «يَزَّكَّى». وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق وعيسى «فتنفَعه» نصباً. وهي قراءة السُّلمِيّ وزِرّ بن حُبَيش، على جواب لعل، لأنه غير موجَب؛ كقوله تعالى: ﴿لعلّي أبلغ الأسبابَ﴾ ثم قال: «فأَطَّلع».

[٥] ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾.

[٦] ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾.

[٧] ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾.

[٩] ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أما مَنِ ٱستغنَى﴾ أي كان ذا ثروة وغِنًى ﴿فأنتَ له تَصَدَّى﴾ أي تَعَرَّضُ له، وتُصْغِي لكلامه. والتصدِّي: الإصغاء؛ قال الراعي:

تَصَدَّى لِوَضَّاحٍ كأَنَّ جَبينه ... سراجُ الدُّجَى يَحْنِي إليه الأساورُ[٢]

وأصله تتصدَّد من الصُّدّ، وهو ما ٱستقبلك، وصار قِبالتك؛ يقال؛ داري صدَدُ داره أي قِبالتها، نُصِب على الظرف. وقيل: من الصَّدَى وهو العطش. أي تتعرض له كما يتعرّض العطشان للماء، والمصَاداة: المعارضة. وقراءة العامة «تَصَدَّى» بالتخفيف، على طرح التاء

(١) قال الزمخشري وقرىء «آأن» بهمزتين وألف بينهما.

(٢) الإسوار (بكسر الهمزة وضمها) قائد الفرس، وقيل: هو الجيد الرمي بالسهام، وقيل: هو الجيد الثبات على ظهر الفرس، والجمع أساورة وأساور.

الثانية تخفيفاً. وقرأ نافع وابن مُحيصن بالتشديد على الإدغام. ﴿وما عَليكَ ألاَّ يَزَّكَّى﴾ أي لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن، إنما أنت رسول، ما عليك إلا البلاغ.

قوله تعالى: ﴿وأما من جاءك يسعَى﴾ يطلب العلم لله ﴿وهُوَ يَخْشَى﴾ أي يخاف الله. ﴿فأنتَ عنه تَلَهَّى﴾ أي تُعرض عنه بوجهك وتُشْغَل بغيره. وأصله تتلهى؛ يقال: لَهِيتُ عن الشيء ألْهَى: أي تشاغلت عنه. والتلهي: التغافل. ولَهِيتُ عنه وتَليتُ: بمعنى.

[١١] ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾.

[١٤] ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾.

[١٥] ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾.

[١٦] ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿كلاَّ إنها تذكِرةٌ﴾ «كلاَّ» كلمة ردع وزجر؛ أي ما الأمرُ كما تفعل مع الفريقين؛ أي لا تفعل بعدها مثلها: من إقبالك على الغنِيّ، وإعراضك عن المؤمن الفقير. والذي جرى من النبي ﷺ كان تركَ الأولَى كما تقدّم، ولو حُمِل على صغيرة لم يبعد؛ قاله القشيري. والوقف على «كَلّا» على هذا الوجه: جائز. ويجوز أن تقف على «تَلَهَّى» ثم تبتدىء «كَلّا» على معنى حَقّا. ﴿إنها﴾ أي السورة أو آيات القرآن ﴿ تذكِرة ﴾ أي موعظة وتبصرة للخلق ﴿ فمن شاءَ ذكره ﴾ أي اتعظ بالقرآن. قال الجُرجاني: «إنها» أي القرآن، والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة، أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذكّره لجاز؛ كما قال تعالى في موضع آخر: «كلاَّ إنه تذكِرة». ويدل على أنه أراد القرآن قوله : « فمن شاءَ ذكَره » أي كان حافظاً له غير ناس؛ وذكّر الضمير ، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ . وروى الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فمن شاء ذكره﴾ قال من شاء اللّهُ تبارك وتعالى ألهمه. ثم أخبر عن جلالته فقال : ﴿ فِي صحفٍ ﴾ جمع صحيفة ﴿ مُكَرّمةٍ ﴾ أي عند الله ؛ قاله السُّدِّي. الطبريّ : « مُكَرَّمةٍ » في الدين لما فيها من العلم والحِكَم. وقيل: «مُكَرمةٍ» لأنها نزل بها كرام الحفظة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ. وقيل: «مكرمة»

لأنها نزلت من كريم؛ لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه. وقيل: ا لمراد كُتُب الأنبياء؛ دليله: ﴿إِن هذا لفِي الصحفِ الأولى: صحفِ إبراهِيم وموسى﴾. ﴿مرفوعةٍ﴾ رفيعة القدر عند الله. وقيل: مرفوعة عنده تبارك وتعالى. وقيل: مرفوعة في السماء السابعة، قاله يحيى بن سلام. الطبريّ: مرفوعة الذكر والقدر. وقيل: مرفوعة عن الشُّبَه والتناقض. ﴿مُطَهّرَةٍ﴾ قال الحسن: من كل دنس. وقيل: مصانة[1] عن أن ينالها الكفار. وهو معنى قول السُّدّيّ. وعن الحسن أيضاً: مطهّرة من أن تنزل على المشركين. وقيل: أي القرآن أثبت للملائكة في صحف يقرءونها فهي مكرمة مرفوعة مطهرة. ﴿بِأيدِي سَفَرَةٍ﴾ أي الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية. ورَوى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: هي مطهرة تجعل التطهير لمن حملها ﴿بِأيدِي سَفَرةٍ﴾ قال: كَتَبةٍ. وقاله مجاهد أيضاً. وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار، التي هي الكتب، واحدهم: سافر؛ كقولك: كاتب وكَتَبة. ويقال: سَفَرْتُ أي كتبتُ، والكتاب: هو السفر، وجمعه أسفار. قال الزجاج: وإنّما قيل للكتاب سِفْر، بكسر السين، وللكاتب سافر؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه. يقال: أسفر الصبح: إذا أضاء، وسَفَرتِ المرأة: إذا كشفت النقاب عن وجهها. قال: ومنه سَفَرْت بين القومِ أَسْفِر سفارة: أصلحت بينهم. وقاله الفراء، وأنشد:

فمـا أَدَعُ السِّفـارةَ بيـنَ قـومِـي ... ولا أَمشِـي بغِـشٍّ إن مَشَيْـتُ

والسفير: الرسول والمصلح بين القوم، والجمع : سفراء، مثل فقيه وفقهاء. ويقال للورّاقين سُفَراءُ، بلغة العِبرانية. وقال قتادة : السَّفَرة هنا: هم القُرّاء، لأنهم يقرءون الأسفار. وعنه أيضاً كقول ٱبن عباس . وقال وهب بن مُنبّه: ﴿بِأيدِي سَفَرةٍ. كِرامٍ بَرَرةٍ ﴾ هم أصحاب النبي ﷺ . قال ٱبن العربيّ : لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ سفرةً ، كِراماً بَرَرَة ، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية، ولا قاربـوا المرادِين بهـا ، بل هي لفظـة مخصوصة بالملائكـة عند الإطلاق ، ولا يشاركُهم فيها سواهم ، ولا يدخل معهم في مُتناولها غيرهم . ورُوي

(١) كذا في الأصول، وهو مخالف لما في كتب اللغة. والصواب: (مصونة). انظر «تاج العروس».

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: [مَثَل][(١)] الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له، مع السَّفَرة الكرام البررة؛ ومثَل الذي يقرؤه وهو يتعاهده، وهو عليه شديد، فله أجران» متفق عليه، واللفظ للبخاريّ. ﴿كِرامٍ﴾ أي كرام على ربهم؛ قاله الكلبيّ. الحسن: كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسهم عنها. وروى الضحاك عن ابن عباس في «كِرامٍ» قال: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته، أو تبرز لغائطه. وقيل: أي يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم. ﴿بَرَرَةٍ﴾ جمع بارّ مثل كافر وكفرة، وساحر وسحرة، وفاجر وفجرة؛ يقال: بر وبارّ إذا كان أهلاً للصدق، ومنه برَّ فلان في يمينه: أي صدق، وفلان يَبَرّ خالقه ويتبرره: أي يطيعه؛ فمعنى «بررةٍ» مطيعون لله، صادقون لله في أعمالِهم. وقد مضى في سورة «الواقعة» قوله تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم فِي كِتابٍ مكنونٍ. لا يمسه إلا المطهرون﴾[(٢)] أنهم الكرام البَرَرَة في هذه السورة.

[١٧] ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾.

[١٨] ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾.

[١٩] ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾.

[٢٠] ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾.

[٢١] ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾.

[٢٢] ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾.

[٢٣] ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿قتِل الإنسان ما أكفره﴾؟ «قتِل» أي لعِن. وقيل: عُذِّب. والإنسان الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن «قُتِل الإنسان» فإنما عُني به الكافر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت في عُتْبة بن أبي لَهَب، وكان قد آمن، فلما نزلت «والنجم» ارتدّ، وقال: آمنت بالقرآن كلّه إلا النجم، فأنزل الله جلّ ثناؤه فيه ﴿قتِل الإنسان﴾ أي لُعن عُتبة حيث كفر بالقرآن، ودعا عليه رسول الله ﷺ

---

(١) الزيادة من «صحيح البخاري». (٢) راجع ١٧/ ٥٢٢.

فقال: «اللَّهُمْ سلِّطْ عليه كلبك أسد الغاضِرة»[1] فخرج من فوره بتجارة إلى الشام، فلما ٱنتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي ﷺ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو أصبح حياً، فجعلوه في وسط الرُّفقة، وجعلوا المتاع حوله، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد، فلما دنا من الرحال وثب، فإذا هو فوقه فمزقه، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال: ما قال محمد شيئاً قَطُّ إلا كان. وروى أبو صالح عن ٱبن عباس «ما أكفره»: أيُّ شيء أكفره؟ وقيل: «ما» تعجب؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتله الله ما أحسنه! وأخزاه الله ما أظلمه؛ والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا. وقيل: ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضاً؛ قال ٱبن جريج: أي ما أشدّ كفره! وقيل: «ما» ٱستفهام أي أيّ شيء دعاه إلى الكفر؛ فهو ٱستفهام توبيخ. و«ما» تحتمل التعجب، وتحتمل معنى أيّ، فتكون ٱستفهاماً. ﴿مِن أيِّ شيءٍ خَلَقَهُ﴾ أي من أيّ شيء خلق الله هذا الكافر فيتكبر؟ أي ٱعجبوا لخلقه. ﴿مِن نطفةٍ﴾ أي من ماء يسيرٍ مَهِين جَماد ﴿خَلَقَهُ﴾ فلَم يغلط في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين. ﴿فقدَّره﴾ في بطن أمه. كذا روى الضحاك عن ابن عباس: أي قدّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه، وحسناً ودميماً، وقصيراً وطويلاً، وشقياً وسعيداً. وقيل: «فقدّره» أي فسواه كما قال: ﴿أكفرت بِالذِي خلقك مِن ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سَوَّاك رجلاً﴾. وقال: ﴿الذِي خلقك فسواك﴾. وقيل: «فقدَّره» أطواراً أي من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تم خَلْقه. ﴿ثم السبِيل يَسَّره﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء وقتادة والسدي ومقاتل: يسَّره للخروج من بطن أمه. مجاهد: يسَّره لطريق الخير والشر؛ أي بيَّن له ذلك. دليله: ﴿إِنا هديناه السبِيلَ﴾ و﴿هديناه النجدَينِ﴾. وقاله الحسن وعطاء وابن عباس أيضاً في رواية أبي صالح عنه. وعن مجاهد أيضاً قال: سبيل

---

(١) كذا لفظ الحديث في الأصول ورواية أبي حيان له: «اللهم ٱبعث عليه كلبك يأكله»، ثم قال: فلما ٱنتهى إلى الغاضرة.. الخ.

الشقاء والسعادة. ابن زيد: سبيل الإسلام. وقال أبو بكر بن طاهر: يَسَّر على كل أحد ما خلقه له، وقدَّره عليه؛ دليله قوله عليه السلام: «اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لماخُلِق له». ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي جعل له قبراً يوارَى فيه إكراماً، ولم يجعله مما يُلقَى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي[1]؛ قاله الفرّاء. وقال أبو عبيدة: «أقبره»: جعل له قبراً، وأمر أن يُقْبر. قال أبو عبيدة: ولما قَتَلَ عمرُ بن هُبيرة صالحَ بن عبد الرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أَقبِرنا صالحاً؛ فقال: دونكموه. وقال: «أقبره» ولم يقل قَبَره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، قال الأعشى:

لو أَسْندتْ مَيْتا إلى نحرِها ... عاشَ ولم يُنْقَلْ إلى قابِرِ

يقال: قبرت الميت: إذا دفنته، وأقبره الله: أي صيره بحيث يُقْبر، وجعل له قبراً؛ تقول العرب: بترت ذَنَب البعير، وأبتره الله، وعضبت قَرْن الثور، وأعضبه الله، وطردت فلاناً، والله أطرده، أي صيره طريداً. ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي أحياه بعد موته. وقراءة العامة «أنشرهُ» بالألف. وروى أبو حَيْوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة «شاء نشره» بغير ألف، لغتان فصيحتان بمعنى؛ يقال: أنشر الله الميت ونَشَره؛ قال الأعشى:

حتى يقولَ الناس مما رأوا ... يا عَجَبَا للميتِ الناشِرِ

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَمَّا يقضِ ما أَمَرَهُ﴾ قال مجاهد وقتادة: «لَمّا يَقْضِ»: لا يقضي أحد ما أُمِرَ به. وكان ابن عباس يقول: ﴿لما يقضِ ما أمره﴾ لم يفِ بالميثاق الذي أُخِذَ عليه في صلب آدم. ثم قيل: «كَلَّا» ردع وزجر، أي ليس الأمر: كمَا يقول الكافر؛ فإن الكافر إذا أُخبر بالنُّشور قال: ﴿ولئِن رُجِعت إلى ربي إن لِي عِندَه للحُسْنَى﴾ ربما يقول قد قضيت ما أُمِرت به. فقال: كلاّ لمْ يقضِ شيئاً بل هو كافر بي وبرسولي. وقال الحسن: أي حَقّاً لم يقضِ: أي لم يَعمل بما أُمر به. و «ما» في قوله: «لَمّا» عماد للكلام؛ كقوله تعالى: ﴿فبِما رحمةٍ مِن اللّهِ﴾ وقوله: ﴿عما قلِيلٍ ليصبِحُنّ نادِمينَ﴾

---

(١) العوافي: طلاب الرزق من الإنس والدواب والطير؛ والمراد هنا: الوحوش والبهائم.

وقال الإمام ٱبن فُورَك: أي: كَلاّ لَمّا يقضِ الله لهذا الكافر ما أَمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقضِ له. ٱبن الأنباريّ: الوَقف على «كَلاّ» قبيح، والوقف على «أَمره» و «نشره» جيد؛ فـ «كلاَّ» على هذا بمعنى حَقًّا.

[٢٤] ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾. [٣٢] ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ﴾ لما ذكر جلّ ثناؤه ٱبتداء خلق الإنسان، ذكر ما يَسَّر من رزقه؛ أي فلينظر كيف خَلَق الله طعامه. وهذا النظر نظر القلب بالفكر؛ أي ليتدبّر كيف خَلَق الله طعامَه الذي هو قِوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، ليستعد بها للمعاد. ورُوِي عن الحسن ومجاهد قالا: ﴿فَلينْظرِ الإنسان إلى طعامِهِ﴾ أي إلى مُدْخله ومُخْرجه. وروى ٱبن أبي خَيْثمة عن الضحاك بن سفيان الكلابيّ قال: قال لي النبي ﷺ: «يا ضحاكُ ما طعامك» قلت: يا رسول الله! اللَّحم واللبن؛ قال: «ثم يصير إلى ماذا» قلت إلى ما قد علمته؛ قال: «فإنّ الله ضرب ما يخرج من ٱبن آدم مثلاً للدنيا». وقال أبيّ بن كعب: قال النبي ﷺ: «إن مَطْعَمَ ٱبن آدم جُعِل مثلاً للدنيا وإن قَزَحه[1] ومَلَّحه فٱنظر إلى ما يصير». وقال أبو الوليد: سألت ٱبن عَمر عن الرجل يدخل الخَلاء فينظر ما يخرج منه؛ قال: يأتيه الملك فيقول ٱنظر ما بَخِلت به إلى ما صار؟.

---

(١) قزحه: أي تبله. من القزح، وهو التابل الذي يطرح في القدر، كالكمون والكزبرة ونحو ذلك. والمعنى: إن المطعم وإن تكلف الإنسان التنوق في صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يكره ويستقذر، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار» «النهاية».

قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبنا الماءَ صبًّا﴾ قراءة العامة «إنا» بالكسر، على الاستئناف. وقرأ الكوفيون ورُوَيْس عن يعقوب «أَنا» بفتح الهمزة، فـ«أنا» في موضع خفض على الترجمة عن الطعام، فهو بدل منه؛ كأنه قال: «فلينظرِ الإنسان إلى طعامِهِ» إلى «أنا صببنا»، فلا يحسُن الوقف على «طعامِهِ» من هذه القراءة. وكذلك إن رفعت «أنا» بإضمار هو أنا صببنا؛ لأنها في حال رفعها مترجِمة عن الطعام. وقيل: المعنى: لأنا صببنا الماء، فأخرجنا به الطعام، أي كذلك كان. وقرأ الحسين[1] بن عليّ «أنّى» ممال، بمعنى كيف؟ فمن أخذ بهذه القراءة قال: الوقف على «طعامه» تام. ويقال: معنى «أنّى» أين، إلا أنّ فيها كناية عن الوجوه؛ وتأويلها: من أي وجه صَببنا الماء؛ قال الكميت:

أنّى ومِنْ أينَ آبكَ[2] الطَّرَبُ مِن حيثُ لا صَبْوةٌ ولا رِيبُ

«صببنا الماء صباً»: يعني الغيث والأمطار. ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾: أي بالنبات ﴿فأنبتنا فِيها حَبًّا﴾ أي قمحاً وشعيراً وسُلْتاً[3] وسائر ما يُحْصَد ويدَّخر ﴿وعِنبًا وقضباً﴾-وهو القَتّ والعَلَف؛ عن الحسن: سمي بذلك لأنه يُقْضَب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة. قال القُتَبيّ وثعلب: وأهل مكة يسمون القَتَّ القَضْب. وقال ابن عباس: هو الرّطب لأنه يُقْضَب من النخل: ولأنه ذكر العِنب قبله. وعنه أيضاً: أنه الفِصفِصة وهو القَتّ الرطب. وقال الخليل القضب الفِصْفِصة الرطبة. وقيل: بالسين ، فإذا يبست فهو قَتٌّ ، قال: والقضْب: اسم يقع على ما يُقْضب من أغصان الشجرة، ليتخذ منها سِهام أو قِسِيّ. ويقال: قَضْبا، يعني جميع ما يقضب، مثل القَتِّ والكُرّاث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصْلها . وفي الصحاح : والقَضْبة والقَضْب الرَّطْبة، وهي الإسفسْت بالفارسية، والموضع الذي يَنْبُت فيه مَقْضَبة. ﴿وزيتوناً﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿ونخلاً﴾ يعني النخيل ﴿وحدائق﴾ أي

---

(١) في ب، ز: قرأ بعض القراء.

(٢) آبك: أتاك. الريب: صروف الدهر.

(٣) السلت (بالضم): ضرب من الشعير.

بساتين واحدها حديقة. قال الكلبي: وكل شيء أُحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يُحَط عليه فليس بحديقة. ﴿غُلْبا﴾ عظاماً شجرها؛ يقال: شجرة غَلْباء، ويقال للأسد: الأغلب؛ لأنه مُصْمَت العنق، لا يلتفت إلا جميعاً؛ قال العجاج:

ما زِلتُ يوم البَيْن أَلوِي صَلَبِي والرأسَ حتى صِرتُ مِثلَ الأغلِب

ورجل أغلب بيّن الغَلَب إذا كان غليظ الرقبة. والأصل في الوصف بالغلَب: الرقاب فاستعير؛ قال قال عمرو بن مَعدِي كرِب:

يَمشِي بها غُلْب الرقابِ كأَنهم بُزْل كُسِين مِن الكُحَيْلِ جِلالا(١)

وحديقة غلباء: ملتفة وحدائق غُلْب. واغلَولَب العشب: بلغ والتف البعض بالبعض. قال ابن عباس: الغُلْب: جمع أغلب وغلباء وهي الغِلاظ. وعنه أيضاً الطِّوال. قتادة وابن زيد: الغُلْب: النخل الكرام. وعن ابن زيد أيضاً وعِكرمة: عظام الأوساط والجذوع. مجاهد: ملتفة. ﴿وفاكِهة﴾ أي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخَوْخ وغيرهما ﴿وأَبًّا﴾ هو ما تأكله البهائم من العُشب؛ قال ابن عباس والحسن: الأبُّ: كل ما أنبتت الأرض، مما لا يأكله الناس، ما يأكله الآدميون هو الحَصيد؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي ﷺ:

لَه دَعْوة ميْمونة ريحُها الصَّبا بهـا يُنبِتُ الله الحِصيـدة والأبَّـا

وقيل: إنما سمي أبًّا؛ لأنه يُؤَبُّ أي يُؤَمّ ويُنْتَجع. والأب والأم: أَخَوان؛ قال:

جِـذمنـا قيـسٌ ونجـدٌ دارنـا ولنـا الأبُّ بِـهِ والمَكْـرَع(٢)

وقال الضحاك: والأب: كل شيء ينبت على وجه الأرض. وكذا قال أبو رَزِين: هو النبات. يدلّ عليه قول ابن عباس قال: الأبُّ: ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام.

---

(١) الكحيل: نوع من القطران تطلى به الإبل للجرب ولا يستعمل إلا مصغراً. وجل الدابة: الذي تلبسه لتصان به، والجمع جلال وأجلال.

(٢) الجذم (بكسر الجيم): الأصل. والمكرع: مفعل من الكرع، أراد به الماء الصالح للشرب.

وعن ٱبن عباس أيضاً وٱبن أبي طلحة: الأبّ: الثمار الرَّطْبة. وقال الضحاك: هو التين خاصة. وهو محكي عن ٱبن عباس أيضاً؛ قال الشاعر:

فمـا لَهُـمُ مَـرْتَـعٌ لِلسَّـوا[1] ... مِ والأَبُّ عنـدَهـم يُقْـدَرُ

الكلبيّ: هو كل نبات سوى الفاكهة. وقيل: الفاكهة: رَطْب الثمار، والأب يابسها. وقال إبراهيم التيميّ: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب فقال: أيُّ سماء تُظلني، وأيُّ أرض تُقِلُّني إذا قلت: في كتاب الله ما لا أعلم. وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعَمْر اللّهِ التكلُّف، وما عليك يا بن أم عُمَر ألاّ تدري ما الأب؟ ثم قال: ٱتبعوا ما بُيِّن لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه. ورُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: «خُلِقتم من سبْع، ورزِقتم من سبع، فاسجدوا لله على سبْع». وإنما أراد بقوله: «خلقتم من سبع» يعني ﴿مِن نطفةٍ * ثم مِن عَلقةٍ * ثم مِن مُضْغةٍ﴾. الآية، والرزق من سبْع، وهو قوله تعالى: ﴿فأنبتنا فِيها حَبًّا وعنباً﴾ إلى قوله: «وفاكِهة»، ثم قال: «وأبًّا» وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم، وأنه مما تختص به البهائم. والله أعلم. ﴿متَاعاً لكُمْ﴾ نصب على المصدر المؤكّد، لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات. وهذا ضرب مثلٍ ضربه الله تعالى لبعث الموتَى من قبورهم؛ كنبات الزرع بعد دُثُوره، كما تقدم بيانه في غير موضع. ويتضمن ٱمتناناً عليهم بما أنعم به، وقد مضى في غير موضع أيضاً.

[٣٣] ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾. [٣٤] ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

[٣٥] ﴿ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ ﴾. [٣٦] ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[٣٧] ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾. [٣٨] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.

[٣٩] ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾. [٤٠] ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

[٤١] ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾. [٤٢] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

(١) السوام والسائمة: المال الراعي من الإبل والغنم وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿فإذا جاءتِ الصاخَّةُ﴾ لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق مما أمتَنَّ به عليهم. والصاخّة: الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية، تَصُخ الأسماع: أي تُصِمُّها فلا تسمع إلا ما يُدْعَى به للأحياء. وذكر ناس من المفسرين قالوا: تصِيخ لها الأسماع، من قولك: أصاخ إلى كذا: أي أستمع إليه، ومنه الحديث: «ما من دابة إلاّ وهي مُصيخة يومَ الجمعة شَفَقاً من الساعة إلاّ الجنَّ والإنس». وقال الشاعر:

يُصِيخُ لِلنَّبْأَةِ أَسْماعَهُ　　　إصاخةَ المُنْشِدِ لِلمنْشِدِ

قال بعض العلماء: وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء، فأما اللغة فمقتضاها القول الأوّل، قال الخليل: الصاخَّة: صيحة تَصُخ الآذان صَخًّا أي تُصِمُّها بشدة وقعتها. وأصل الكلمة في اللغة: الصَّكُّ الشديد. وقيل: هي مأخوذة من صَخَّه بالحجر: إذا صَكَّه، قال الراجز:

يا جارتي هل لكِ أن تجالِدِي　　　جلادة كالصَّك بالجَلامِدِ

ومن هذا الباب قول العرب: صَخَّتْهمُ الصّاخة وباتتهم البائتة، وهي الداهية. الطبريّ: وأحسبه من صَخّ فلان فلاناً: إذا أصماه. قال ابن العربيّ[1]: الصاخّة التي تُورِث الصَّمَم، وإنها لمُسمِعة، وهذا من بديع الفصاحة، حتى لقد قال بعض حَديثي الأسنان حديثي الأزمان:

أَصَمَّ بِكَ الناعِي وإِنْ كان أَسْمَعا

وقال آخر:

أَصَمَّنِي سِرُّهم أيامَ فُرقتهم　　　فهل سمِعتم بِسِرٍّ يُورِث الصَّمَما

لعمر اللّهِ إنّ صيحة القيامة لمسمِعة تُصِم عن الدنيا، وتُسمِعُ أمور الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يومَ يَفِرُّ المرءُ مِن أخِيهِ﴾ أي يهرب، أي تجيء الصاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه؛ أي من موالاة أخيه ومكالمته؛ لأنه لا يتفرغ لذلك، لاشتغاله بنفسه؛ كما قال بعده: ﴿لِكل ٱمرِىءٍ مِنهمْ يومئِذٍ شأنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي يشغله عن غيره. وقيل: إنما يفر حذراً من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التَّبِعات. وقيل: لئلا يَرَوا ما هو

(١) لم نجد كلام ابن العربي هذا في النسخة المطبوعة بمطبعة السعادة من كتابه (أحكام القرآن).

فيه من الشدة. وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً؛ كما قال: ﴿يوم لا يغنِي مولًى عن مولًى شيئاً﴾. وقال عبد الله بن طاهر الأبهري: يفرّ منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم، إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما ٱعتمد شيئاً سوى ربه تعالى. ﴿وصاحِبتِهِ﴾ أي زوجته. ﴿وبنِيهِ﴾ أي أولاده.

وذكر الضحاك عن ٱبن عباس قال: يفرّ قابيلُ من أخيه هابيلَ، ويفر النبيُّ ﷺ من أمه، وإبراهيم عليه السلام من أبيه، ونوح عليه السلام من ٱبنه، ولوط من ٱمرأته، وآدم من سَوأة بنيه. وقال الحسن: أوّل من يفرّ يوم القيامة من أبيه: إبراهيم، وأوّل من يفرّ من ٱبنه نوح، وأوّل من يفرّ من ٱمرأته لوط. قال: فيَرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ. ﴿لِكل ٱمرِىء مِنهم يومئذٍ شأن يغنِيهِ﴾. في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحشَر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلاً» قلت، يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض». خرّجه التِّرمذي عن ٱبن عباس: أن النبي ﷺ قال: «يُحشرون حفاة عُراة غُرْلاً» فقالت ٱمرأة: أينظر بعضنا، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «يا فلانة» «لكل ٱمرِىء مِنهم يومئذٍ شأن يغنِيهِ. قال: حديث حسن صحيح. وقراءة العامة بالغين المعجمة؛ أي حالٌ يشغَله عن الأقرباء. وقرأ ٱبن مُحيصن وحُميد «يَعْنِيهِ» بفتح الياء، وعين غير معجمة؛ أي يعنيه أمره. وقال القُتَبي: يعنيه: يصرفه ويصُدّه عن قرابته؛ ومنه يقال: ٱعْنِ عني وجهك: أي ٱصرفه وٱعنِ عن السفيه؛ قال خُفاف:

سَيَعْنِيك حرب بنِي مالِكٍ ... عن الفُحْشِ والجهلِ في المَحفِل

قوله تعالى: ﴿وجوه يومئِذٍ مُسْفِرة﴾: أي مُشرقة مضيئة، قد علمت مالها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين. ﴿ضاحِكة﴾ أي مسرورة فَرِحة. ﴿مُسْتبشِرة﴾: أي بما

آتاها الله من الكرامة. وقال عطاء الخُراساني: «مُسْفِرة» من طول ما اغبرت في سبيل الله جلّ ثناؤه. ذكره أبو نَعِيم. الضحاك: من آثار الوضوء. ابن عباس: من قيام الليل؛ لما رُوي في الحديث: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» يقال: أسفر الصبح إذا أضاء. ﴿ووجوهٌ يومَئِذٍ عليها غَبَرة﴾ أي غبار ودخان ﴿تَرْهَقُها﴾ أي تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي كسوف وسواد. كذا قال ابن عباس. وعنه أيضاً: ذِلة وشِدّة. والقتَر في كلام العرب: الغبار، جمع القَتَرة، عن أبي عُبيد؛ وأنشد الفرزدق:

مُتَـوَّجٌ بِـرِداء الملـكِ يَتْبعـه   مَوجٌ ترى فوقه الراياتِ والقَتَرا

وفي الخبر: إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حُوِّل ذلك التراب في وجوه الكفار. وقال زيد بن أسلم: القَتَرة: ما ارتفعت إلى السماء، والغَبَرة: ما انحطت إلى الأرض، والغبار والغَبَرة: واحد. ﴿أولئِكَ هم الكَفَرة﴾ جمع كافر ﴿الفَجَرة﴾ جمع فاجر، وهو الكاذب المفتري على الله تعالى. وقيل: الفاسق؛ [يقال]: فجر فجوراً: أي فسق، وفجر: أي كذب. وأصله: الميل، والفاجر: المائل. وقد مضى بيانه والكلام فيه. والحمد لله وحده.

سورة التكوير

مكية في قول الجميع. وهي تسع وعشرون آية

وفي الترمذيّ: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة [كأنه رَأْيُ عين] فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت». قال: هذا حديث حسن [غريب][1].

(١) الزيادة من صحيح الترمذي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾. [٢] ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾.
[٣] ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾. [٤] ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾.
[٥] ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾. [٦] ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾.
[٧] ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾. [٨] ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾.
[٩] ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾. [١٠] ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾.
[١١] ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾. [١٢] ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾.
[١٣] ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾. [١٤] ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إذا الشمسُ كُورتْ﴾ قال ٱبن عباس: تكويرها: إدخالها في العرش. والحسن: ذهاب ضوئها. وقاله قتادة ومجاهد: وروي عن ٱبن عباس أيضاً. سعيد بن جُبير: عُوِّرَتْ. أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تلف فتمحى. وقال الربيع بن خيثم: «كورت» رُمِي بها؛ ومنه: كوّرته فتكوّر، أي سقط.

قلت: وأصل التكوير: الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها أي لاثها وجمعها فهي تُكَوَّر ويمحى ضوءها، ثم يُرمَى بها في البحر. والله أعلم. وعن أبي صالح: كوّرت: نكّستْ. ﴿وإذا النجوم ٱنكدرت﴾ أي تهافتت وتناثرت. وقال أبو عبيدة: ٱنصبَّت كما تنصَبّ العُقاب إذا ٱنكسرت. قال العجّاج يصف صقراً[١]:

أَبصـرَ خِـربـان فضـاء فـانكـدر تقضّـيَ البـازِي إذا البـازِي كسـر

---

(١) هكذا البيت في نسخ الأصل التي بأيدينا والذي في ديوان العجاج رواية الأصمعي نسخة الشنقيطي: قال يمدح عمرو بن عبيد الله بن معمر: قد جبر الدين الإله فجبر. إلى أن قال:

دانـي جنـاحيـه مـن الطـور فمـر تقضـي البـازي إذا البـازي كسـر
أبصـر خـربـان فضـاء فـانكـدر شـاكي الكلاليب إذا أهوى أطفر

الطور: الجبل، وعني هنا الشام، يقول: انقض ابن معمر انقضاضة من الشام، انقضاض البازي ضم جناحيه. وخربان: جمع خرب، وهو ذكر الحبارى، والكلاليب المخالب، واطفر: أصله اظتفر، فأبدلت التاء طاء، فأدغمت في الظاء.

وروَى أبو صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبَقى في السماء يومئذٍ نجم إلا سقط في الأرض، حتى يفزَع أهل الأرض السابعة مما لَقِيت وأصاب العليا»، يعني الأرض. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: تساقطت؛ وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات، فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة؛ لأنه مات من كان يمسكها. ويحتمل أن يكون انكدارها طَمْس آثارها. وسميت النجوم نجوماً لظهورها في السماء بضوئها. وعن ابن عباس أيضاً: انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها[1] عن أماكنها. والمعنى متقارب. ﴿وإِذا الجِبالُ سُيِّرتْ﴾ يعني قُلِعت من الأرض، وسيرت في الهواء؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿ويوم نسيرُ الجِبال وترى الأرض بارِزة﴾. وقيل: سيرُها تحوّلها عن منزلة الحجارة، فتكون كثيباً مَهِيلاً، أي رملاً سائلاً، وتكون كالعِهن، وتكون هباءً منثوراً، وتكون سَراباً، مثل السرابُ الذي ليس بشيء. وعادت الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أَمتاً. وقد تقدم[2] في غير موضع والحمد لله. ﴿وإذا العِشار عُطِّلتْ﴾ أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها؛ الواحدة عُشَراء، أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعد ما تضع أيضاً. ومن عادة العرب أن يسمُّوا الشيء باسمه المتقدّم وإن كان قد جاوز ذلك؛ يقول الرجل لفرسه وقد قَرِح: هاتوا مُهْرى، وقربوا مُهْرى، يسميه بمتقدّم اسمه؛ قال عنترة:

لا تذكرِي مُهْرِي وما أطعمتُه ... فيكونَ جِلدُكِ مثلَ جِلدِ الأجرب

وقال أيضاً:

وحَمَلْتُ مُهرِي وسْطَها فمضاها[3]

وإنما خص العِشار بالذكر؛ لأنها أعز ما تكون على العرب، وليس يُعَطلها أهلها إلا حال القيامة. وهذا على وجه المثل؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عُشَرَاءَ، ولكن أراد به المثل؛ أن هول

(١) في أ، ح، و: لزلزالها. (٢) راجع ١١/ ٢٤٥. (٣) صدره:
وضربت قرني كبشها فتجدلا

يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عُشَراءُ لعطَّلها واشتغل بنفسه، وقيل: إنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضاً، ورأوا الوُحوش والدوابّ محشورة، وفيها عِشارهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبئوا بها، ولم يهمَّهم أمرُها. وخُوطبت العرب بأمر العِشار؛ لأن مالها وعيشها أكثره من الإبل. وروَى الضحاك عن ٱبن عباس: عُطِّلت: عَطَّلها أهلها، لاشتغالهم بأنفسهم. وقال الأعشى:

هو الواهِبُ المائةَ المصطفا ... ةَ إما مَخاضاً وإما عِشارَا

وقال آخر:

ترى المرءَ مهجوراً إذا قلَّ مالهُ ... وبيتُ الغِنَى يُهْدَى له ويُزارُ

وما ينفعُ الزوّارَ مالُ مَزُورِهِم ... إذا سَرَحَتْ شَوْلٌ[1] له وعِشارُ

يقال: ناقة عُشَراء، وناقتان عُشراوان، ونوق عِشارٌ وعُشراوات، يبدلون من همزة التأنيث واواً. وقد عَشَّرت الناقة تعشيرا: أي صارت عُشَراء. وقيل: العِشار: السحاب يُعَطَّل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل. وقيل: الديار تُعَطَّل فلا تُسكن. وقيل: الأرض التي يُعَشَّر زرْعها تعطل فلا تزرع. والأوّل أشهر، وعليه من الناس الأكثر. ﴿وإذا الوحوشُ حُشِرتْ﴾ أي جمعتْ والحشر: الجمع. عن الحسن وقتادة وغيرهما. وقال ٱبن عباس: حَشْرها: موتها. رواه عنه عِكرمة. وحَشْر كل شيء: الموت غيرَ الجن والإنس، فإنهما يُوافيان يوم القيامة. وعن ٱبن عباس أيضاً قال: يُحْشَر كل شيء حتى الذُّباب. قال ابن عباس: تحشر الوحوش غداً: أي تجمع حتى يُقتصَّ لبعضها من بعض، فيقتصّ للجَمّاء من القَرْناء، ثم يقال لها كوني تراباً فتموت. وهذا أصح مما رواه عنه عِكرمة، وقد بيناه في كتاب «التذكرة» مستوفى، ومضى في سورة «الأنعام»[2] بعضُه. أي إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم. وقيل؛ عُنِي بهذا أنها مع نُفْرتها اليوم من الناس وتنددها

---

(١) في ط: بزل.
(٢) راجع ٦/ ٤٢١.

في الصحارَى، تنضم غداً إلى الناس من أهوال ذلك اليوم. قال معناه أبيُّ بن كعب.

﴿وإذا البِحار سُجِّرتْ﴾ أي ملئت من الماء؛ والعرب تقول: سَجَرت الحوضَ أَسَجُره سَجْراً: إذا ملأته، وهو مسجور، والمسجور والساجر في اللغة: الملآن. وروى الربيع بن خيثم: سُجِّرت: فاضت ومُلئت. وقاله الكلبيّ ومقاتل والحسن والضحاك. قال آبن أبي زَمْنين: سُجِّرت: حقيقته مُلِئت، فيفِيض بعضها إلى بعض، فتصير شيئاً واحداً. وهو معنى قول الحسن. وقيل: أرسِل عَذْبها على مالحها، ومالحها على عذبها، حتى امتلأت. عن الضحاك ومجاهد: أي فُجرت فصارت بحراً واحداً. القشيريّ: وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذي ذكره في قوله تعالى: ﴿بينَهما برزخٌ لا يبغيانِ﴾، فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار، فعمت الأرض كلها، وصارت البحار بحراً واحداً. وقيل: صارت بحراً واحداً من الحميم لأهل النار. وعن الحسن أيضاً وقتادة وآبن حيان: تيبس فلا يبقى من مائها قطرة. القُشَيْريّ: وهو من سَجَرْت التنور أَسْجُره سَجْراً: إذا أحميته، وإذا سُلّط عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة، وتُسَيَّر الجبال حينئذٍ، وتصير البحار والأرض كلها بساطاً واحداً، بأن يُمْلأ مكان البحار بتراب الجبال. وقال النحاس: وقد تكون الأقوال متفقة؛ يكون تيبس من الماء بعد أن يفيض، بعضها إلى بعض، فتقلَب ناراً.

قلت: ثم تُسَيَّر الجبال حينئذٍ، كما ذكر القشيري، والله أعلم. وقال آبن زيد وشَمِر وعطية وسفيان ووهب وأُبيّ وعليّ بن أبي طالب وآبن عباس في رواية الضحاك عنه؛ أوقدت فصارت ناراً. قال آبن عباس: يُكَوِّر الله الشمس والقمر والنجوم في البحر، ثم يبعث الله عليها ريحاً دَبُوراً، فتنفخُه حتى يصير ناراً. وكذا في بعض الحديث: «يأمر الله جلّ ثناؤه الشمس والقمر والنجوم فينتثرون في البحر، ثم يبعث الله جلّ ثناؤه الدَّبور فيسجِّرها ناراً، فتلك نار الله الكبرى، التي يعذب بها الكفار». قال القشيْري: قيل في تفسير قول آبن عباس «سُجِّرتْ» أوقدت، يحتمل أن تكون جهنم في قُعور من البحار، فهي الآن غير مسْجورة لِقوام الدنيا، فإذا آنقضت الدنيا سُجِّرت، فصارت كلها ناراً يدخلها الله أهلها. ويحتمل أن تكون تحت البحر نار، ثم يوقد الله البحر كله فيصير ناراً. وفي الخبَر: البحر نار في نار.

وقال معاوية بن سعيد: بحر الروم وسْط الأرض، أسفله آبار مُطْبقة بنُحاس يُسَجَّر ناراً يوم القيامة. وقيل: تكون الشمس في البحر، فيكون البحر ناراً بحر الشمس. ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل يوم القيامة ويكون من أشراطها، ويجوز أن يكون يوم القيامة، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة.

قلت: رُوِي عن عبد الله بن عمرو: لا يتوضأ بماء البحر لأنه طَبَق جَهَنم. وقال أبيّ بن كعب: ست آيات من قَبْل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودُهِشوا، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحرّكت واضطربت واحترقت، فصارت هباءً منثوراً، ففزعت الإنس إلى الجنّ والجنّ إلى الإنس، واختلطت الدوابُّ والوحوش والهوامُّ والطير، وماج بعضها في بعض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وإذا الوحُوش حُشِرت﴾ ثم قالت الجنّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجَّج، فبينما هم كذلك تصدَّعتِ الأرض صَدْعة واحدة إلى الأرض السابعة السُّفلَى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم. وقيل: معنى «سُجِّرت»: هو حُمْرة مائها، حتى تصير كالدم؛ مأخوذ من قولهم: عين سَجْراء: أي حمراء. وقرأ ابن كثير «سُجِرَت» وأبو عمرو أيضاً، إخباراً عن حالها مرة واحدة. وقرأ الباقون بالتشديد إخباراً عن حالها في تكرير ذلك منها مرة بعد أخرى.

قوله تعالى: ﴿ وإذا النفوسُ زُوِّجت ﴾ قال النعمان بن بشير: قال النبي ﷺ: « وإذا النفوس زُوّجت » قال: « يُقْرَن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله ». وقال عمر بن الخطاب: يُقْرَن الفاجر مع الفاجر، ويقرن الصالح مع الصالح. وقال ابن عباس: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة، السابقون زوج ـ يعني صنفاً ـ وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج. وعنه أيضاً قال: زُوّجت نفوس المؤمنين بالحُور العين، وقُرن الكافر

(١) يوم: ساقطة من ب، ز، ط.

بالشياطين، وكذلك المنافقون. وعنه أيضاً: قُرِن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار، فيضم المَبرِّز في الطاعة إلى مثله، والمتوسط إلى مثله، وأهل المعصية إلى مثله؛ فالتزويج أن يُقرن الشيء بمثله؛ والمعنى: وإذا النفوس قُرنت إلى أشكالها في الجنة والنار. وقيل: يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من مَلِك وسلطان، كما قال تعالى: ﴿احشُروا الذِين ظلموا وأزواجَهم﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد: جُعلوا أزواجاً على أشباه أعمالهم ليس بتزويج، أصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج، والسابقون زوج؛ وقد قال جلّ ثناؤه: ﴿احشُروا الذِين ظلموا وأَزواجهم﴾ أي أشكالهم. وقال عِكرمة: ﴿وإِذا النفوس زُوِّجت﴾ قرنت الأرواح بالأجساد؛ أي ردت إليها. وقال الحسن: ألحق كل امرىء بشيعته: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يُلْحَق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقيل: يُقْرَن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان، على جهة البغض والعداوة، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين. وقيل: قُرِنت النفوس بأعمالها، فصارت لاختصاصها به كالتزويج.

قوله تعالى: ﴿وإِذا الموءودةُ سُئِلت * بِأي ذنبٍ قُتِلتْ﴾ الموءودة المقتولة؛ وهي الجارية تدفن وهي حية، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب، فيؤودها أي يثقلها حتى تموت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يَؤُوده حفظهما﴾ أي لا يثقله؛ وقال متمم بن نُويرة:

ومَـوءودة مَقبـورة فِـي مَفَـازةٍ ... بـآمتِهـا مَوْسـودة لـم تُمَهّـد[1]

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين؛ إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به. الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق، وإما خوفاً من السبْي والاسترقاق. وقد مضى

(١) كذا روى البيت ونسب إلى متمم بن نويرة في الأصول، ونسبه «اللسان» و «شرح القاموس» مادة (عوز) إلى حسان رضي الله عنه وروى فيهما:

ومـوءودة مقـرورة فـي معـاوز ... بـآمتهـا مـرمـوسـة لـم تـوسـد

والآمة: ما يعلق بسرة المولود إذا سقط من بطن أمه. والمعاوز: خرق يلف بها الصبي.

في سورة «النحل»(١) هذا المعنى، عند قوله تعالى: ﴿أم يدُسُّه في الترابِ﴾ مستوفًى. وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا، ويمنعون منه، حتى أفتخر به الفرزدق، فقال:

ومِنّا(٢) الَّذي منعَ الوائِداتِ فأحيا الوئيد فلم يُوأَدِ

يعني جدّه صعصعة كان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة. وقال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردّتِ التراب عليها، وإن ولدت غلاماً حبسته، ومنه قول الراجز:

سَمَّيتها إذ وُلِدتْ تموتُ والقبرُ صِهرٌ ضامِنٌ زِمِّيتُ

الزِّميت الوقور، والزميت مثال الفِسيق أوقر من الزِّمِيتِ، وفلان أزمت الناس أي أوقرهم، وما أشد تَزَمته؛ عن الفراء. وقال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاتبهم الله على ذلك، وتوعدهم بقوله: ﴿وإذا الموءودة سئِلت﴾ قال عمر في قوله تعالى: ﴿وإذا الموءودة سُئِلت﴾ قال: جاء قيس بن عاصم إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني وأدت ثمان بنات كنّ لي في الجاهلية، قال: «فأعتقِ عن كل واحدة منهن رقبة» قال: يا رسول الله إني صاحب إبل، قال: «فأهْدِ عن كل واحدة منهنّ بَدَنة إن شئت». وقوله تعالى: ﴿سُئِلت﴾ سؤال الموءودة سُؤال توبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضُرِب: لم ضُرِبت؟ وما ذنبك؟ قال الحسن: أراد الله أن يُوبِّخ قاتلها؛ لأنها قُتِلت بغير ذنب. وقال ابن أسلم: بأي ذنب ضُرِبت، وكانوا يضربونها. وذكر بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿سئِلت﴾ قال: طُلِبت: كأنه يريد كما يُطلب بدم القتيل. قال: وهو كقوله: «وكان عهد اللّهِ مسئولاً» أي مطلوباً. فكأنها طُلِبت منهم، فقيل أين أولادكم؟! وقرأ الضحاك وأبو الضُّحا عن جابر بن زيد وأبي صالح «وإذا الموءودة سَألت» فتتعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأيِّ ذنب

---

(١) راجع ١٠/١١٧.

(٢) ويروى: وجدّي الذي منع الوائدات.. الخ.

قتلتني؟! فلا يكون له عذر؛ قاله ابن عباس وكان يقرأ «وإذا الموءودة سَأَلَتْ» وكذلك هو في مصحف أُبيّ. وروى عِكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقاً ولدُها بثدييها، ملطخاً بدمائه، فيقول يا ربّ، هذه أمي، وهذه قتلتني» والقول الأوّل عليه الجمهور، وهو مثل قوله تعالى لعيسى: ﴿أأنت قلت للناسِ﴾، على جهة التوبيخ والتبكيت لهم، فكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوائدها، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها؛ لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب، فبأيّ ذنب كان ذلك، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها، كان أعظم في البلية وظهور الحجة على قاتلها. والله أعلم. وقرىء «قُتِّلت» بالتشديد، وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يُعَذَّبون، وعلى أن التعذيب لا يُستَحقّ إلا بذنب.

قوله تعالى: ﴿وإذا الصُّحُف نُشِرت﴾ أي فُتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كَتَبَت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تُطْوَى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مالِ هذا الكتاب لا يغادِرُ صغِيرةً ولا كبِيرةً إِلا أَحصاها﴾. وروَى مَرْثَد بن وَدَاعة قال: إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده ﴿فِي جنةٍ عالِيةٍ﴾ إلى قوله: ﴿الأيامِ الخالِيةِ﴾ وتقع صحيفة الكافر في يده ﴿فِي سَمُومٍ وحَمِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿ولا كريم﴾. ورُوِي عن أمّ سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يُحشَر الناس يوم القيامة حُفاة عُراة» فقلت: يا رسول الله! فكيف بالنساء؟ قال: «شُغِل الناس يا أمَّ سَلَمة». قلت: وما شَغَلَهم؟ قال: «نشر الصحف فيها مثاقيل الذرّ ومثاقيل الخردل». وقد مضى في سورة «سُبْحان»[1] قول أبي الثوّار العدَوِيّ: هما نَشْرَتان وطَيّة، أما ما حييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة، فأملِ فيها ما شئت، فإذا مِت طوِيت، حتى إذا بُعثت نشِرت ﴿اقرأ كِتابك كفى بِنفسِك اليوم عليك حسِيباً﴾. وقال مقاتل: إذا مات المرء طُوِيت صحيفة عمله، فإذا كان يوم القيامة نُشِرت. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: إليك يساق

(١) راجع ١٠/ ٢٣٠.

الأمر يابن آدم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو «نُشِرَتْ» مخففة، على نشرت مرة واحدة، لقيام الحجة. الباقون بالتشديد، على تكرار النشر، للمبالغة في تقريع العاصي، وتبشير المطيع. وقيل: لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه.

قوله تعالى: ﴿وإذا السماء كُشِطَتْ﴾: الكشط: قَلْع عن شدّة التزاق؛ فالسماء تُكْشَط كما يُكْشَط الجلد عن الكبش وغيره، والقَشْط: لغة فيه. وفي قراءة عبد الله «وإذا السماء قُشِطَت» وكَشَطْتُ البعير كشطاً: نزعت جلده، ولا يقال سَلَخته؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كَشَطْته أو جَلَّدته، وانكشط: أي ذهب؛ فالسماء تُنْزَع من مكانها كما ينزع الغِطاء عن الشيء. وقيل: تُطْوَى كما قال تعالى: ﴿يوم نطوِي السماء كطيّ السِّجِلّ لِلكِتابِ﴾، فكأن المعنى: قلِعت فطويت. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وإذا الجحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي أوقدت فأُضْرِمت للكفار وزيدَ في إحمائها. يقال: سَعَّرْتُ النار وأسعرتها. وقراءة العامة بالتخفيف من السعير. وقرأ نَافع وابن ذَكوانَ ورُوَيْس بالتشديد؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة. قال قتادة: سَعَّرها غضب الله وخطايا بني آدم. وفي الترمذِيّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أُوقد على النار ألفَ سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألفَ سنةٍ حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألفَ سنة حتى اسودَّت، فهي سوداء مُظلمة» ورُوِي موقوفاً.

قوله تعالى: ﴿وإذا الجنة أزلِفتْ﴾ أي دَنَتْ وقُرِّبت من المتقين. قال الحسن: إنهم يُقَرَّبون منها؛ لا أنها تزول عن موضعها. وكان عبد الرحمن بن زيد يقول: زُينت[1]: أزْلِفَتْ؟ والزلفى في كلام العرب: القُربة: قال الله تعالى: ﴿وأُزلِفت الجنة لِلمتقِين﴾، وتزلف فلان تقرب.

قوله تعالى: ﴿علِمتْ نفس ما أحضرتْ﴾ يعني ما عملت من خير وشر. وهذا جواب ﴿إذا الشمس كُورَتْ﴾ وما بعدها. قال عمر رضي الله عنه لهذا أُجري الحديث. ورُوِيَ

(١) في ز: أدنيت

عن ابن عباس وعمر رضي الله عنهما أنهما قرآها، فلما بلغا ﴿عَلِمت نفس ما أحْضَرت﴾ قالا لهذا أجريت القصة؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء، علمت نفس ما أحضرت من عملها. وفي الصحيحين عن عديّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّمه [وينظر[1] أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم] بين يديه، فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل» وقال الحسن: «إذا الشمس كورت» قسم وقع على قوله: ﴿عَلِمت نفس ما أحضرت﴾ كما يقال: إذا نَفَرَ زيد نفر عمرو. والقول الأوّل أصح. وقال ابن زيد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾ إلى قوله: ﴿وإذا الجنة أُزلِفت﴾ اثنتا عشرة خصلة: ستة في الدنيا، وستة في الآخرة؛ وقد بينا الستة الأولى بقول أبيّ بن كعب.

[١٥] ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ﴾.

[١٦] ﴿ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾.

[١٧] ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ ﴾.

[١٨] ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾.

[١٩] ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ﴾.

[٢٠] ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ ﴾.

[٢١] ﴿ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ ﴾.

[٢٢] ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فلا أُقسِم﴾ أي أقسم، و «لا» زائدة، كما تقدّم. ﴿بِالخُنَّسِ الجوارِ الكُنَّسِ﴾ هي الكواكب الخمسة الدَّراريّ: زُحَل والمُشترِي وعُطارِد والمرِيخُ والزُّهرَة، فيما ذكر أهل التفسير. والله أعلم. وهو مَرويّ عن عليّ كرّم الله وجهه. وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان: **أحدهما** ـ لأنها تَستقبل الشمس؛ قاله بكر بن عبد الله المُزَني. **الثاني** ـ لأنها تقطع المجرّة؛ قاله ابن عباس. وقال الحسن وقتادة: هي النجوم التي تخنس

(١) الزيادة من صحيح مسلم.

بالنهار وإذا غربت، وقاله عليّ رضي الله عنه، قال: هي النجوم تخنِس بالنهار، وتظهر بالليل ؛ وتكنِس في وقت غروبها ؛ أي تتأخر عن البَصر لخفائها، فلا تُرَى. وفي الصحاح : و « الخُنَّس »: الكواكب كلها . لأنها تخنِس في المغيب، أو لأنها تخنِس نهاراً . ويقال : هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة . وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿ فلا أُقسم بالخُنس * الجوار الكُنَّس ﴾: إنها النجوم الخمسة؛ زُحل والمشترِي والمرِّيخ والزُّهَرة وعُطارد؛ لأنها تَخنِس في مجراها، وتَكْنِس، أي تستتر كما تكنِس الظباء في المغار، وهو الكناس. ويقال: سميت خُنَّسا لتأخرها، لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم، يقال: خَنَس عنه يَخْنُس بالضم خنوساً : تأخر ، وأخنسه غيره : إذا خلَّفه ومضى عنه . والخَنَس تأخر الأنف عن الوجه مع ٱرتفاع قليل في الأرنبة، والرجل أخنس، والمرأة خنساء، والبقر كلها خُنْس. وقد روي عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿فلا أُقسِم بِالخُنَّس﴾ هي بقر الوحش. روى هُشَيم عن زكريا عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شُرَحبيل قال: قال لي عبد الله بن مسعود: إنكم قوم عرب فما الخنس؟ قلت: هي بقر الوحش؛ قال: وأنا أرى ذلك. وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله. وروي عن ٱبن عباس: إنما أقسم الله ببقر الوحش. وروى عنه عِكرمة قال: «الخُنَّس»: البقر و «الكنَّس»: هي الظباء، فهي خُنَّس إذا رأين الإنسان خَنَسْنَ وٱنقبضن وتأخرن ودخلن كِناسهنّ. القشيريّ: وقيل على هذا «الخُنَّس» من الخَنَس في الأنف، وهو تأخُر الأرنبة وقصر القَصَبة، وأنوف البقر والظباء خنس. والأصح الحمل على النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك.

قلت: لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه الحكمة في ذلك. وقد جاء عن ٱبن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والنخعي أنها بقر الوحش. وعن ٱبن عباس وسعيد بن جُبير أنها الظباء. وعن الحجاج بن منذر قال: سألت جابر بن زيد عن الجواري الكُنَّس، فقال: الظباء والبقر، فلا يبعد أن يكون المراد

النجوم. وقد قيل: إنها الملائكة؛ حكاه الماورديّ. والكُنَّس الغُيَّب؛ مأخوذة من الكِناس، وهو كِناس الوحش الذي يختفي فيه. قال أَوس بن حَجَر:

أَلـم تـرَ أنَّ اللّـهَ أنـزلَ مُـزْنَـهُ وعُفْرُ الظباءِ في الكِناسِ تَقَمَّعُ[١]

وقال طَرَفة:

كـأَنْ كِنـاسَـيْ ضـالـةٍ يَكْنُفـانِهـا وأَطْرَ قِسِيٍّ تحتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ[٢]

وقيل: الكُنوس أن تأوي إلى مكانسها. وهي المواضع التي تأوِي إليها الوحش والظباء. قال الأعشى:

فلمَّـا أتينـا الحـي أَتْلَـعَ آنـسٌ كما أَتلعَتْ تحتَ المكانِس رَبْرَبُ

يقال: تَلَعَ النهار ٱرتفع وأتلعتِ الظبية من كِناسها: أي سَمَت بجيدها. وقال ٱمرؤُ القيس:

تَعَشَّى قليلاً ثم أَنحى ظُلُوفه يثِير التراب عن مَبِيتٍ ومَكْنِسِ

والكُنَّس: جمع كانِس وكانِسة، وكذا الخُنَّس جمع خانِس وخانِسة. والجواري: جمع جارية من جرى يجري. ﴿والليلِ إذا عَسْعَسَ﴾ قال الفراء: أجمع المفسرون على أن معنى عسعسَ أدبَر: حكاه الجوهريّ. وقال بعض أصحابنا: إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض. المهدويّ: ﴿والليلِ إذا عَسْعَسَ﴾ أدبر بظلامه؛ عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما. وروي عنهما أيضاً وعن الحسن وغيره: أَقبل بظلامه. زيد بن أسلم: «عسعسَ» ذهب. الفرّاء: العرب تقول عسعس وسَعْسع إذا لم يبق منه إلا اليسير. الخليل وغيره: عسعس الليل إذا أقبل أو أدبر. المبرد: هو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد، وهو ٱبتداء الظلام في أوّله، وإدباره في آخره؛ وقال علقمة بن قرط:

حتـى إذا الصبـحُ لهـا تنفّسـا وٱنجـابَ عنهـا ليلُهـا وعَسْعَسَـا

---

(١) تقمع: تحرك رؤوسها من القمعة؛ وهي ذباب أزرق يدخل في أنوف الدواب أو يقع عليها فيلسعها.

(٢) قال: «كناسي» لأن الحيوان يستكن بالغداة في ظلها وبالعشي في فيئها. والضال: السدر البري، الواحدة ضالة. والأطر: العطف. والمؤيد: المقوي. يقول الشاعر: كأن كناسي ضالة يكنفان هذه الناقة، لسعة ما بين مرفقيها وزورها.

(٣) تعشى: دخل في العشاء، وهو أول الليل. ظلوفه: حوافره.

وقال رُؤْبة:

يـا هنـدُ مـا أسـرعَ مـا تَسَعْسَعَـا من بَعْدِ ما كان فَتًى سَرَعْرَعَا[١]

وهذه حجة الفراء. وقال أمرؤ[٢] القيس:

عَسْعَسَ حتّـى لـو يشـاءُ أَدَّنـا كـانَ لنـا مِـن نـارِهِ مَقْبِـسُ

فهذا يدل على الدنوّ. وقال الحسن ومجاهد: عَسْعَسَ: أظلم؛ قال الشاعر:

حتـى إذا مـا ليلُهـن عسعسَـا ركِبن مِن حد الظلامِ حِندِسَا

الماورديّ: وأصل العسّ الامتلاء؛ ومنه قيل للقدح الكبير عُسّ امتلائه بما فيه، فأطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه؛ وأطلق على إدباره لانتهاء امتلائه على ظلامه؛ لاستكمال امتلائه به. وأما قول أمرىء القيس:

أَلمَّا على الربعِ القديم بِعسْعَسَا[٣]

فموضع بالبادية. وعسعس أيضاً أسم رجل؛ قال الرجز:

وعَسْعَسَ نِعْمَ الفتى تبياه

أي تعتمده. ويقال للذئب العَسْعس والعَسْعاس والعَسَّاس؛ لأنه يَعُسُّ بالليل ويطلب. ويقال للقنافذ العَسَاعس لكثرة ترددها بالليل. قال أبو عمرو: والتعسعس الشم، وأنشد:

كمنخر الذِّئبِ إذا تَعَسْعَسَا

والتعسعس أيضاً: طلب الصيد [بالليل][٤].

---

(١) تسعسعا: أدبر وفنى، والسرعرع: الشاب الناعم.

(٢) كذا في الأصول كلها ولم نجده في ديوانه. وفي «اللسان»: كان له من ضوئه مقبس. ثم قال: أنشده أبو البلاد النحوي وقال: وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع. وأدناه أصله: إذ دنا، فأدغم.

(٣) تمامه:

كأني أنادي أو أكلم أخرسا

(٤) الزيادة من الصحاح.

قوله تعالى: ﴿والصبحِ إذا تنفَّس﴾ أي أمتدّ حتى يصير نهاراً واضحاً: يقال للنهار إذا زاد: تنفس. وكذلك الموج إذا نضح الماء. ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف. وقيل: «إذا تنفس» أي انشق وانفلق؛ ومنه تنفست القوس[1] أي تصدعت. ﴿إنه لقول رسولٍ كريم﴾ هذا جواب القسم. والرسول الكريم جبريل؛ قاله الحسن وقتادة والضحاك. والمعنى «إنه لقول رسولٍ» عن الله «كريم» على الله. وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام، ثم عداه عنه بقوله: ﴿تنزيل مِن رب العالمِين﴾ ليعلم أهل التحقيق في التصديق، أن الكلام لله عزّ وجلّ. وقيل: هو محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ذِي قوةٍ﴾: من جعله جبريل فقوّته ظاهرة؛ فروى الضحاك عن ابن عباس قال: من قوّته قلعه مدائن قوم لُوط بقوادم جناحه. ﴿عِند ذِي العرش﴾ أي عند الله جلّ ثناؤه ﴿مكِينٍ﴾ أي ذي منزلة ومكانة؛ فرُوي عن أبي صالح قال: يدخل سبعين سُرادِقاً بغير إذن. ﴿مطاعٍ ثم﴾: أي في السموات؛ قال ابن عباس: من طاعة الملائكة جبريل، أنه لما أَسْرِي برسول الله ﷺ قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان: افتح له، ففتح، فدخل ورأى ما فيها، وقال لمالك خازن النار: افتح له جهنم حتى ينظر إليها، فأطاعه وفتح له. ﴿أمِينٍ﴾ أي مؤتمن على الوحي الذي يجيء به. ومن قال: إن المراد محمد ﷺ فالمعنى «ذِي قوةٍ» على تبليغ الرسالة «مُطاعٍ» أي يطيعه من أطاع الله جلّ وعزّ. ﴿وما صاحِبكم بِمجنونٍ﴾ يعني محمداً ﷺ ليس بمجنون حتى يتهم في قوله. وهو من جواب القَسَم. وقيل: أراد النبي ﷺ أن يرى جبريل في الصورة التي يكون بها عند ربه جلّ وعزّ فقال؛ ما ذاك إليّ؛ فأذن له الرب جلّ ثناؤه، فأتاه وقد سدّ الأفق، فلما نظر إليه النبي ﷺ خرّ مغشياً عليه، فقال المشركون: إنه مجنون، فنزلت: ﴿إنه لَقول رسولٍ كريم﴾ ﴿وما صاحِبكم بِمجنون﴾ وإنما رأى جبريل على صورته فهابه، وورد عليه ما لم تحتمل بِنيته، فخرّ مغشياً عليه.

---

(١) في نسخ الأصل «تنفست القوس والنفوس: أي تصدعت. واللغة لا ذكر فيها لكلمة النفوس، ولعلها زيادة من الناسخ.

[٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾ . [٢٤] ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾ .

[٢٥] ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾ . [٢٦] ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾ .

[٢٧] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧﴾ .

[٢٨] ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ .

[٢٩] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿ولقد رآه بِالأفقِ المبِينِ﴾ أي رأى جبريل في صورته، له ستمائة جَناح. ﴿بِالأُفقِ المُبِينِ﴾ أي بمطلع الشمس من قِبل المَشْرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مُبين. أي من جهته تُرَى الأشياء. وقيل: الأفق المبين: أقطار السماء ونواحيها؛ قال الشاعر:

أَخَـذْنَـا بِـآفـاقِ السمـاءِ عليكُـمُ   لنا قَمـراهـا والنجـومُ الطوالِـعُ

الماورديّ: فعلى هذا، فيه ثلاثة أقاويل: **أحدها**: أنه رآه في أفق السماء الشرقيّ؛ قاله سفيان. **الثاني**: في أفق السماء الغربيّ، حكاه ٱبن شجرة. **الثالث**: أنه رآه نحو أجياد، وهو مَشْرق مكة؛ قاله مجاهد. وحكى الثعلبيّ عن ٱبن عباس. قال النبي ﷺ لجبريل: «إني أحبّ أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء» قال: لن تقدر على ذلك. قال: «بلى» قال: فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال: «بالأبطح» قال: لا يسعُني. قال: «فبمِنًى» قال: لا يسعني. قال: «فبعرفات» قال: ذلك بالحرى أن يسعني. فواعده فخرج النبي ﷺ للوقت، فإذا هو قد أقبل بخَشْخَشةٍ وكَلْكلةٍ من جبال عَرَفات، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب؛ ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ خرّ مغشياً عليه، فتحول جبريل في صورته، وضمه إلى صدره. وقال: يا محمد لا تخف؛ فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش على كاهله، وإنه ليتضاءل أحياناً من خشية الله، حتى يصير مثل الوَصَع[١] ـ يعني العصفور ـ حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته. وقيل: إن محمداً

---

(١) في («اللسان»: وصع) الوصع: هو العصفور الصغير.

عليه السلام رأى ربه عزّ وجلّ بالأفق المبين. وهو معنى قول ابن مسعود. وقد مضى القول في هذا في «والنجم»[1] مستوفًى، فتأمله هناك. وفي «المبين» قولان: **أحدهما**: أنه صفة الأفق؛ قاله الربيع. **الثاني**: أنه صفة لمن رآه؛ قاله مجاهد. ﴿وما هو على الغيب بِظنِينٍ﴾: بالظاء، قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائيّ، أي بمتَّهم، والظنة التُّهمَة؛ قال الشاعر:

أما وكِتاب اللّهِ لا عن شناءةٍ　　　هُجِرتُ ولكِنّ الظنِينَ ظَنِينُ

وآختاره أبو عُبيد؛ لأنهم لم يُبَخِّلوه ولكن كذبوه؛ ولأن الأكثر من كلام العرب: ما هو بكذا، ولا يقولون: ما هو على كذا، إنما يقولون: ما أنت على هذا بمتَّهم. وقرأ الباقون «بِضَنِينٍ» بالضاد: أي ببخيل من ضَنِنْت بالشيء أضنّ ضِنًّا [فهو] ضنين. فروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: لا يضنّ عليكم بما يعلم، بل يُعَلِّم الخَلْقَ كلام الله وأحكامه. وقال الشاعر:

أَجود بِمكنونِ الحديثِ وإنني　　　بِسِرِّكِ عمن سالنِي لضَنِينُ

والغَيْب: القرآن وخبر السماء. ثم هذا صفة محمد عليه السلام. وقيل: صفة جبريل عليه السلام. وقيل: بظَنين: بضعيف. حكاه الفراء والمبرد؛ يقال: رجل ظَنِين: أي ضعيف. وبئر ظَنونٌ: إذا كانت قليلة الماء؛ قال الأعشى:

ما جُعِل الجُدُّ[2] الظَّنونُ الذي　　　جُنِّب صَوْبَ اللجِبِ الماطِرِ
مِثْلَ الفُراتِيِّ إذا ما طما　　　يقذِف بالبُوصِيِّ والماهِرِ

والظَّنون: الدين الذي لا يدري أيقضيه آخذه أم لا؟ ومنه حديث عليّ عليه السلام في الرجل يكون له الدين الظنون، قال: يزكيه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقاً. والظَّنون: الرجل السَّيء الخلق؛ فهو لفظ مشترك. ﴿وما هو﴾ يعني القرآن ﴿بِقولِ شيطانٍ رجِيمٍ﴾ أي مرجوم ملعون، كما قالت قريش. قال عطاء: يريد بالشيطان الأبيض الذي كان

(١) راجع ١٧/ ٩٤ وقول ابن مسعود هناك هو: أن محمداً ﷺ رأى جبريل والذي قال بأنه رأى ربه، هو ابن عباس رضي الله عنهما. (٢) الجد: البئر تكون في موضع كثير الكلأ. الفراتي: المنسوب إلى الفرات. والبوصي: ضرب من سفن البحر، والملاح أيضاً. والماهر: السابح.

يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل يريد أن يفتنه. ﴿فأين تذهبون﴾ قال قتادة: فإلى أين تعدِلون عن هذا القول وعن طاعته. كذا روَى مَعْمر عن قتادة؛ أي أين تذهبون عن كتابي وطاعتي. وقال الزجاج: فأيّ طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بيّنت لكم. ويقال: أين تذهب؟ وإلى أين تذهب؟ وحكى الفراء عن العرب: ذهبت الشامَ وخرجت العراقَ وانطلقت السوقَ: أي إليها. قال: سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة؛ وأنشدني بعض بني عُقَيل:

تصيح بنا حنِيفةُ إذْ رأتنا وأيَّ الأرضِ تذهبُ بالصياحِ

يريد إلى أي أرض تذهب، فحذف إلى. وقال الجنيد: معنى الآية مقرون بآية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وإن مِن شيءٍ إلا عِندنا خزائِنه﴾ المعنى: أيَّ طريق تسلكون أبينَ من الطريق الذي بينه الله لكم. وهذا معنى قول الزجاح. ﴿إِن هو﴾ يعني القرآن ﴿إلا ذِكْرٌ لِلعالمين﴾ أي مَوْعظة وزَجْر. و «إنْ» بمعنى «ما». وقيل: ما محمد إلا ذِكر. ﴿لِمن شاء مِنكم أن يستقيم﴾ أي يتبع الحق ويقيم عليه. وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى: لما نزلت: ﴿لِمن شاء مِنكم أن يستقِيم﴾ قال أبو جهل: الأمر إلينا، إن شئنا آستقمنا، وإن شئنا لم نستقم ـ وهذا هو القَدَر، وهو رأس القَدَرية ـ فنزلت: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمِين﴾، فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق الله، ولا شرا إلا بخذلانه. وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها. وقال وهب بن مُنبه: قرأتُ في سبعة[1] وثمانين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء: من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر. وفي التنزيل: ﴿ولو أننا نزلنا إليهِمُ الملائِكة وكلمهمُ الموتَى وحشَرنا عليهِم كل شيءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيؤمِنوا إلا أن يشاء الله﴾. وقال تعالى: ﴿وما كان لِنفسٍ أن تؤمِن إلا بِإذنِ اللّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنك لا تهدِي من أحببت ولكِن الله يَهدِي من يشاء﴾ والآي في هذا كثير، وكذلك الأخبار، وأن الله سبحانه هدى بالإسلام، وأضل بالكفر، كما تقدم في غير موضع. ختمت السورة والحمد لله.

---

(١) في تفسير الثعلبي: بضعة وثمانين.

سورة الانفطار

مكية عند الجميع، وهي تسعَ عَشْرةَ آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾.

[٥] ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ أي تشققت بأمر الله؛ لنزول الملائكة؛ كقوله: ﴿ويوم تشقَّق السماء بِالغمامِ ونُزِّل الملائِكة تنزِيلاً﴾. وقيل: تفطَّرت لهيبة الله تعالى. والفَطْر: الشَّقُّ؛ يقال: فطرته فانفطر، ومنه فَطَر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر، وتفطَّر الشيء: شقَّق، وسيفُ فُطار أي فيهُ شقوق؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقِيقةِ وهو كمِعِي سِلاحِي لا أَفَلَّ ولا فُطَارا[١]

وقد تقدّم في غير موضع[٢]. ﴿وإذا الكواكِبُ انتثرتْ﴾ أي تساقطت؛ نثرتُ الشيء أنثره نثراً، فانتثر، والاسم النِّثار. والنُّثار بالضم: ما تناثر من الشيء، ودُرّ مُنثَّر، شدد للكثرة. ﴿وإذا البِحار فُجِّرتْ﴾ أي فجر بعضها في بعض، فصارت بحراً واحداً، على ما تقدّم. قال الحسن: فُجِّرت: ذهب ماؤها ويبِست؛ وذلك أنها أوّلاً راكدة مجتمعة، فإذا فُجِّرت تفرّقت، فذهب ماؤها. وهذه الأشياء بين يدي الساعة، على ما تقدّم في ﴿إذا الشمس كورت﴾. ﴿وإذا القبور بُعثِرت﴾ أي قُلِبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء؛ يقال: بعثرت المتاع: قلبته ظهراً لبطن، وبعثرت الحوض وبحثرته: إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه. وقال قوم منهم الفرّاء: «بعثِرت»: أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة. وذلك من أشراط الساعة: أن تخرج الأرض

(١) العقيقة: شعاع البرق الذي يبدو كالسيف. والكمع: الضجيع. (٢) راجع ١٦/ ٤.

ذهبها وفضتها. ﴿علمتْ نفسٌ ما قدَّمتْ وأخَّرتْ﴾ مثل: ﴿ينبأُ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأَخر﴾، وتقدّم. وهذا جواب ﴿إذا السماء انفطرت﴾ لأنه قَسَم في قول الحسن وقع على قوله تعالى: ﴿عَلِمتْ نفسٌ﴾ يقول: إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك. وقيل: أي إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة، فحوسبت كل نفس بما عملت، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها. وقيل: هو خبر، وليس بقسم، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

[٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾.

[٧] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾.

[٨] ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

[٩] ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان﴾ خاطب بهذا منكري البعث. وقال ابن عباس: الإنسان هنا: الوليد بن المغيرة. وقال عكرمة: أبيّ بن خلف. وقيل: نزلت في أبي الأشدّ بن كَلدَة الجُمَحِيّ. عن ابن عباس أيضاً: «ما غرك بربك الكريم» أي ما الذي غرك حتى كفرت؟ «بربك الكريم» أي المتجاوز عنك. قال قتادة: غره شيطانه المسلَّط عليه. الحسن: غره شيطانه الخبيث. وقيل: حمقه وجهله. رواه الحسن عن عمر رضي الله عنه. وروى غالب الحنفي قال: لما قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ يا أيها الإنسانُ ما غرك بربك الكريم ﴾ قال: «غره الجهل» وقال صالح بن مسمار: بلغنا أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾؟ فقال: «غره جهلُه». وقال عمر رضي الله عنه: كما قال الله تعالى: ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾. وقيل: غره عفو الله، إذ لم يعاقبه في أوّل مرة. قال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفُضَيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى

يوم القيامة بين يديه، فقال لك: «ما غرك بربك الكريم»؟ ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول غرّني سُتُورك المرخاة، لأن الكريم هو الستَّار. نظمه ٱبن السَّماك فقال:

يا كاتمَ الذنب أما تستحي والّلهُ في الخُلْوة ثانيكَا
غَرَّكَ من ربك إمهالُهُ وسَتْرُه طولَ مَساويكَا

وقال ذو النون المصريّ: كم من مغرور تحت السَّتْر وهو لا يشعر.

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهري:

يا من غلا في العُجْب والتيهِ وغره طولُ تماديهِ
أَمْلَى لك الله فبارزته ولم تخف غِبّ مَعاصيهِ

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه صاحب غلام له مرات فلم يُلَبِّه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال: مالك لم تُجبني؟ فقال. لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك. فاستحسن جوابه فأعتقه. وناس يقولون: ما غرك: ما خَدَعك وسَوَّل لك، حتى أضعت ما وجب عليك؟ وقال ٱبن مسعود: ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة، فيقول له: يأبن آدم ماذا غرك بي؟ يا بن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ ﴿الذي خلقك﴾ أي قدَّر خلقَك من نطفة ﴿فسواك﴾ في بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك ﴿فعدَّلك﴾ أي جعلك معتدلاً سَوِيّ الخَلْق؛ كما يقال؛ هذا شيء معدّل. وهذه قراءة العامة، وهي ٱختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ قال الفراء: وأبو عبيد: يدل عليه قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويم﴾. وقرأ الكوفيون: عاصم وحمزة والكسائي: «فعدَلك» مخففاً أي: أمالك وصرفك إلى أيّ صورة شاء، إما حسناً وإما قبيحاً، وإما طويلاً وإما قصيراً. وقال [موسى بن عليّ بن أبي رَباح اللَّخمي عن أبيه عن جده][1] قال: قال لي النبي ﷺ: «إن النطفة

---

(١) الزيادة من «تفسير الثعلبي» و «الطبري» و «الدر المنثور». والحديث كما رواه الثعلبي بعد السند: قال: قال رسول الله ﷺ لجده «ما ولد لك»؟ قال: يا رسول الله وما عسى أن يولد لي، إما غلاماً أو جارية. قال: «فمن يشبه» قال: فمن يشبه، أمه أو أباه؛ فقال النبي ﷺ. «لا تقل هكذا إن النطفة.. الحديث».

إذا ٱستقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم». أما قرأت هذه الآية ﴿فِي أي صورةٍ ما شاء ركبك﴾: «فيما بينك وبين آدم» [وقال عكرمة وأبو صالح: «في أي صورةٍ ما شاء ركبك»]: إن شاء في صورة إنسان، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير. وقال مكحول: إن شاء ذكراً، وإن شاء أنثى. قال مجاهد: «فِي أي صورةٍ» أي في أي شبه من أبٍ أو أم أو عم أو خالٍ أو غيرهم. و «في» متعلقة بـ «ركبك»، ولا تتعلق بـ «عدَلك»، على قراءة من خفف؛ لأنك تقول عَدَلْت إلى كذا، ولا تقول عَدَلت في كذا؛ ولذلك منع الفراء التخفيف؛ لأنه قدّر «في» متعلقة بـ «عدَلك»، و «ما» يجوز أن تكون صلة مؤكدة؛ أي في أي صورة شاء ركبك. ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة قِرد أو حمار أو خنزير، فـ «ما» بمعنى الشرط والجزاء؛ أي في صورة ما شاء يركبك ركبك.

قوله تعالى: ﴿كلا بل تكذبون بِالدِين﴾ يجوز أن تكون «كَلاَّ» بمعنى حقًّا» و «ألاَ» فيبتدأ بها. ويجوز أن تكون بمعنى «لا»، على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله محقُّون. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ما غَرَّكَ بِربك الكرِيم﴾ وكذلك يقول الفراء: يصير المعنى: ليس كما غُررت به. وقيل: أي ليس الأمر كما تقولون، من أنه لا بعث. وقيل: هو بمعنى الردع والزجر. أي لا تغتروا بحلم الله وكرمه، فتتركوا التفكر في آياته. ٱبن الأنباريّ: الوقف الجيّد على «الدينِ»، وعلى «ركبك»، والوقف على «كَلاّ» قبيح. ﴿بل تكذبون﴾ يا أهل مكة ﴿بِالدينِ﴾ أي بالحساب، و «بل» لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره. وإنكارهم للبعث كان معلوماً، وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة.

[١٠] ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافِظِين﴾ أي رُقباء من الملائكة ﴿كِراماً﴾ أي عليّ؛ كقوله: ﴿كِرام بَرَرَةٍ﴾. وهنا ثلاث مسائل:

الأولى - رُوِي عن رسول الله ﷺ «أكرمُوا الكرامَ الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الخِرَاءة[١] أو الجماع، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم [حائط][٢] أو بغيره، أو ليستره أخوه». ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه قال: «لا يزال المَلَكُ مولياً عن العبد ما دام بادِيَ العورة» ورُوِي «إن العبد إذا دخل الحمام بغير مئزر لعنه ملكاه».

الثانية - واختلف الناس في الكُفّار هل عليهم حفَظَة أم لا؟ فقال بعضهم: لا؛ لأن أمرهم ظاهر، وعملهم واحد؛ قال الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ المجرِمون بِسِيماهم﴾. وقيل: بل عليهم حفظة؛ لقوله تعالى: ﴿كلا بل تُكَذبون بِالدينِ * وإن عليكم لحافِظِين * كِراماً كاتِبين * يعلمون ما تفعلون﴾. وقال: ﴿وأما من أوتِي كِتابه بِشمالِهِ﴾ وقال: ﴿وأما من أوتِي كِتابه وراء ظهرِهِ﴾، فأخبر أن الكفار يكون لهم كُتّاب، ويكون عليهم حفَظَة. فإن قيل: الذي على يمينه أيَّ شيء يكتب ولا حسنة له؟ قيل له: الذي يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه، ويكون شاهداً على ذلك وإن لم يكتب. والله أعلم.

الثالثة - سئل سفيان: كيف تعلم الملائكة أن العبدَ قد هم بحسنة أو سيئة؟ قال: إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح النَّتْن. وقد مضى في «ق»[٣] عند قوله: ﴿ما يلفِظ من قولٍ إلا لديهِ رقِيب عتِيد﴾ زيادة بيان لمعنى هذه الآية. وقد كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع، لمفارقة الملك العبد عند ذلك. وقد مضى في آخر «آلِ عِمران»[٤] القول في هذا. وعن الحسن: يعلمون لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم. وقيل: يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدّثتم به أنفسكم. والله أعلم.

---

(١) في أ، ب، ح، ط، ل: الخزاية، ورواية «روح المعاني» (٩/٣١٧): لا يفارقونكم إلا عند إحدى الغائط، والجنابة، والغسل.

(٢) الزيادة من «الدر المنثور» وفيه. سبب ورود الحديث أنه عليه السلام رأى رجلاً يغتسل بفلاة من الأرض. . . . الخ.

(٣) راجع ١٧/ ١١.

(٤) راجع ٤/ ٣١٠ فما بعدها.

[١٣] ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾. [١٤] ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

[١٧] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إنَّ الأبرار لفِي نِعيم * وإِن الفجار لفِي جحيم﴾ تقسيم مثل قوله: ﴿فريق فِي الجنةِ، وفرِيق فِي السعِيرِ﴾. وقال: ﴿يومئذٍ يَصَّدَّعون * فأما الذِين آمنوا﴾ الآيتين. ﴿يَصْلَونها﴾ أي يصيبهم لهبُها وحَرّها ﴿يومَ الدينِ﴾ أي يوم الجزاء والحساب، وكرر ذكره تعظيماً لشأنه؛ نحو قوله تعالى: ﴿القارِعة ما القارِعة؟ وما أدراك ما القارِعة﴾ وقال ٱبن عباس فيما روي عنه: كل شيء من القرآن من قوله: «وما أدراك»؟ فقد أدراه، وكل شيء من قوله: «وما يُدْرِيك» فقد طُوِي عنه. ﴿يوم لا تملِك نفسٌ﴾ قرأ ٱبن كثير وأبو عمرو «يومُ» بالرفع على البدل من «يومُ الدينِ» أو ردا على اليوم الأوّل، فيكون صفة ونعتاً لـ «يوم الدينِ». ويجوز أن يرفع بإضمار هو. الباقون بالنصب على أنه في موضع رفع إلاّ أنه، نصب؛ لأنه مضاف غير متمكن؛ كما تقول: أعجبني يوم يقومُ زيد. وأنشد المبرد:

مِن أَيِّ يومَيَّ مِنَ الموتِ أَفِرّ   أيـومَ لـم يقْـدَرَ أم يـومَ قُـدِرْ

فاليومان الثانيان مخفوضان بالإضافة، عن الترجمة عن اليومين الأوّلين، إلا أنهما نصبا في اللفظ؛ لأنهما أضيفا إلى غير محضٍ. وهذا ٱختيار الفراء والزجّاج. وقال قوم: اليوم الثاني منصوب على المحل، كأنه قال في يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً. وقيل: بمعنى: إن هذه الأشياء تكون يومَ، أو على معنى يُدانون يومَ؛ لأن الدِّين يدل عليه، أو بإضمار ٱذكر. ﴿والأَمر يومئذٍ لِلّهِ﴾ لا ينازعه فيه أحد؛ كما قال: ﴿لِمنِ الملك اليومَ؟ لِلّهِ الواحِدِ القهارِ * اليوم تجزى كل نفس بِما كسبت لا ظلم اليوم﴾. تمت السورة والحمد لله.

سورة المطففين

مكية في قول أبن مسعود والضحاك ومقاتل. ومدنية في قول الحسن وعكرمة. وهي ست وثلاثون آية

قال مقاتل: وهي أوّل سورة نزلت بالمدينة. وقال أبن عبّاس وقتادة: مدنية إلا ثمان آيات من قوله: ﴿إِن الذِين أجرموا﴾ إلى آخرها، مكي. وقال الكلبيّ وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

[٢] ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ روَى النَّسائي عن أبن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى: ﴿ويلٌ لِلمطففِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك. قال الفراء: فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا. وعن أبن عباس أيضاً قال: هي: أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم؛ كانوا إذا أشتَروا أستوْفَوا بكيل راجح، فإذا باعوا بَخَسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة أنتهوا، فهم أوفى الناس كيلاِ إلى يومهم هذا. وقال قوم: نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة، وأسمه عمرو؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما، ويعطي بالآخر: قاله أبو هريرة رضي الله عنه.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ويلٌ﴾ أي شدة عذاب في الآخرة. وقال أبن عباس؛ إنه وادٍ في جهنم يسيل فيه صَديد أهل النار، فهو قوله تعالى: ﴿ويل لِلمطَفِّفِين﴾ أي الذين يَنْقصون مكاييلهم وموازينهم. ورُوِي عن أبن عمر قال: المطفِّف: الرجل يستأجر المكيال

وهو يعلم أنه يَحِيف في كيله فوزره عليه. وقال آخرون: التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث. وفي الموطّأ قال مالك: ويقال لكل شيء وفاءٌ وتطفيف. وروي عن سالم بن أبي الجعْد قال: الصلاة بمكيال، فمن أوفَى له ومن طَفَّف فقد علمتم ما قال الله عزّ وجلّ في ذلك: «ويل لِلمطففِين».

الثالثة ـ قال أهل اللغة: المطفِّف مأخوذ من الطَّفِيف، وهو القليل، والمطفِّف هو المقِلّ حق صاحبه بنقصانه عن الحق، في كيل أو وزن. وقال الزجاج: إنما قيل للفاعل من هذا مطفِّف؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف، وإنما أخذ من طَفّ الشيءِ وهو جانبه. وطِفاف المَكُّوك وطَفافه بالكسر والفتح: ما ملا أصباره، وكذلك طَفُّ المَكُّوكِ وطَفَفُه؛ وفي الحديث: «كلكم بنو آدم طَفُّ الصاعِ لم تملئوه». وهو أن يقرب أن يمتلىء فلا يفعل؛ والمعنى بعضُكم من بعض قريب، فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى. والطُّفاف والطُّفافة بالضم: ما فوق المكيالِ. وإناء طُفاف: إذا بلغ الملء طفافه؛ تقول منه: أطفَفْت. والتطفيف: نقص المِكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره، أي جوانبه؛ يقال؛ أدهقت الكأس إلى أصبارها أي إلى رأسها. وقول ٱبن عمر حين ذكر النبي ﷺ سَبْق الخيل: كنت فارساً يومئذٍ فسبقت الناس حتى طَفَّف بي الفَرَس مسجدَ بني زُرَيق، حتى كاد يساوي المسجد. يعني: وثب بي.

الرابعة ـ المطفِّف: هو الذي يُخْسر في الكيل والوزن، ولا يوفي حَسْب ما بيناه؛ وروى ٱبن القاسم عن مالك: أنه قرأ «ويل للمطفِّفِينَ» فقال: لا تُطَفِّفْ ولا تَخْلُب[1]، ولكن أرسلْ وصُبّ عليه صَبّاً، حتى إذا ٱستوفى[2] أرسل يدك ولا تُمْسِك. وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطُّفاف، وقال: إن البَركة في رأسه. قال: وبلغني أن كيل فرعون كان مسحاً بالحديد.

(١) كذا في الأصول: أي لا تغش وفي ابن العربي (ولا تجلب).

(٢) في أ، ح، ز، ط، ل، وابن العربي: «استوى».

قوله تعالى: ﴿الذِينَ إذا ٱكتالوا على الناسِ يستوفُون﴾ قال الفَراء: أي من الناس؛ يقال: ٱكتلت منك: أي ٱستوفيت منك، ويقال ٱكتلت ما عليك: أي أخذت ما عليك. وقال الزَّجاج: أي إذا ٱكتالوا من الناس ٱستوفَوا عليهم الكيل؛ والمعنى: الذين إذا ٱستوفوا أخذوا الزيادة، وإذا أوفَوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم. الطبري: «على» بمعنى عند.

قوله تعالى: ﴿وإذا كالوهُم أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرون﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾: أي كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام، فتعدى الفعل فَنَصب؛ ومثله نصحتك ونصحت لك، وأمرتك به وأمرتكه؛ قاله الأخفش والفراء. قال الفراء: وسمعت أعرابية تقول إذا صَدَر الناسُ أتينا التاجر فيكيلنا المُدّ والمُدّين إلى الموسم المقبل. وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس. قال الزجاج: لا يجوز الوقف على «كالُوا» و «وزنوا» حتى تصل به «هُمْ» قال: ومن الناس من يجعلها توكيداً، ويجيز الوقف على «كالُوا» و «وزَنوا» والأوّل الاختيار؛ لأنها حرف واحد. هو قول الكسائيّ. قال أبو عبيد: وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين، ويقف على «كالوا» و «وزنوا» ويبتدىء «هُمْ يخسرون» قال: وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضاً. قال أبو عبيد: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين: **إحداهما**: الخطّ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا «كالوا» و «وزنوا» بالألف، والأخرى: أنه يقال؛ كِلْتك ووزنتُك بمعنى كلت لك، ووزنت لك، وهوكلام عربي؛ كما يقال: صِدْتُك وصِدْت لك، وكسبتُك وكسبْتُ لَك، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك. قوله: «يُخْسِرون»: أي يَنْقُصون؛ والعرب تقول: أخسرت الميزان وخَسَرته. و «هم» في موضع نصب، على قراءة العامة، راجع إلى الناس، تقديره «وإذا كالوا» الناس «أو وزنوهم يُخْسِرون» وفيه وجهان: **أحدهما**: أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذف الجار، وأوصل الفعل، كما قال:

ولقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤاً وعساقِلاً ولقد نهيتُك عن بنات ٱلأوبرِ

أراد: جنيت لك، والوجه الآخر: أن يكون على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مُقامه، والمضاف هو المكيل والموزون. وعن ٱبن عباس رضي الله عنه: إنكم معاشر الأعاجم وَلِيتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم: المِكيالَ والمِيزان. وخَصَّ الأعاجم، لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعاً، وكانا مُفرقين في الحَرَمين؛ كان أهل مكة يزِنون، وأهل المدينة يكيلون. وعلى القراءة الثانية «هُمْ» في موضع رفع بالابتداء؛ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فهم يخسرون. ولا يصح؛ لأنه تكون الأُولى مُلغاة، ليس لها خبر، وإنما كانت تستقيم لو كان بعدها: وإذا كالوهم يَنْقُصون، أو وزنوا هم يُخْسرون.

الثانية ـ قال ٱبن عباس قال النبي ﷺ: «خمس بخمسٍ: ما نقض قوم العهد إلا سَلَّط الله عليهم عدوّهم، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون، وما طَفَّفوا الكيل إلا مُنعوا النَّبات، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حَبَس الله عنهم المَطَر» خرجه أبو بكر البزار بمعناه، ومالك بن أنس أيضاً من حديث ٱبن عمر. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وقال مالك بن دينار: دَخَلْت على جارٍ لي قد نزل به الموت، فجعل يقول؛ جَبَلين من نار! جبلين من نار! فقلت: ما تقول؟ أتهجر[1]؟ قال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان، أكيل بأحدهما، وأكتال بالآخر؛ فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر، حتى كَسَرتهما، فقال: يا أبا يحيى، كلما ضربت أحدهما بالآخر ٱزداد عِظَماً، فمات من وجَعه. وقال عكرمة: أشهدُ على كل كَيال أو وزّان أنه في النار. قيل له: فإن ٱبنك كيال أو وزان. فقال: أشهد أنه في النار. قال الأصمعيّ: وسمعت أعرابية تقول: لا تَلْتَمِس المروءة ممن مروءته في رءوس المكاييل، ولا ألسنة الموازين. ورُوي ذلك عن عليّ رضي الله عنه. وقال عبدُ خير: مر عليّ رضي الله عنه على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح، فأكفأ الميزان، ثم قال؛ أقم الوزن بالقسط؛ ثم أرجح بعد ذلك ما شئت. كأنه أمره بالتسوية أوّلاً ليعتادها، ويُفصل الواجبَ من النفل. وقال نافع: كان ٱبن عمر يمر بالبائع فيقول: ٱتقِ الله وأوف الكيل

(١) هجر في نومه ومرضه يهجر هجراً: هذى.

والوزن بالقسط، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العَرَق ليلْجِمُهم إلى أنصاف آذانهم. وقد رُوِي أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبي ﷺ إلى خيبر وٱستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة، فقال أبو هريرة: فوجدناه في صلاة الصبح فقرأ في الركعة الأولى «كهيعص» وقرأ في الركعة الثانية «ويل لِلمطففِين» قال أبو هريرة: فأقول في صلاتي: ويْل لأبي فلان، كان له مكيالان إذا ٱكتال ٱكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص.

[٤] ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤﴾.

[٥] ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥﴾.

[٦] ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ألا يظن أولئِك﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم، في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يُخْطرون التطفيف ببالهم، ولا يُخَمِّنون تخميناً ﴿إنهم مبعوثون﴾ فمسئولون عما يفعلون. والظن هنا بمعنى اليقين؛ أي ألا يُوقن أولئك، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن. وقيل: الظن بمعنى التردد، أي إن كانوا لا يستيقنون بالبعث، فهلا ظنُّوه، حتى يتدبروا ويبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوط ﴿لِيومٍ عظِيمٍ﴾ شأنه وهو يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لِربّ العالمِين﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ العامل في «يومَ» فعل مضمر، دل عليه «مبعوثون». والمعنى يبعثون ﴿يومَ يقوم الناس لرب العالمين﴾. ويجوز أن يكون بدلاً من يوم في «لِيومٍ عظِيم»، وهو مبني. وقيل؛ هو في موضع خفض؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن. وقيل: هو منصوب على الظرف أي في يوم، ويقال: أقم إلى يومَ يخرج فلان، فتنصب يوم، فإن أضافوا إلى الاسم فحينئذٍ يخفضون ويقولون: أقم إلى يومِ خروج فلان. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، التقدير: إنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم.

الثانية ـ وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابياً قال له: قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطففين؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزْن. وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وكلمةِ الظن، ووصفِ اليوم بالعظيم، وقيامِ الناس فيه لله خاضعين، ووصفِ ذاته برب العالمين، بيان بليغ لِعظم الذنب، وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان في مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط، والعمل على التسوية والعدل، في كل أخذٍ وإعطاءٍ، بل في كل قول وعمل.

الثالثة ـ قرأ ٱبن عمر: «ويل لِلمطففِين» حتى بلغ ﴿يومَ يقومُ الناسُ لِرب العالمِين﴾ فبكى حتى سَقَط، وٱمتنع من قراءة ما بعده، ثم قال؛ سمعت النبي ﷺ يقول «يومَ يقوم الناس لرب العالمين، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فمنهم من يبلغ العَرَق كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ حِقْويه، ومنهم من يبلغ صدره، ومنهم من يبلغ أذنيه، حتى إن أحدهم ليغيب في رَشْحه كما يغيب الضِّفدع»[١]. وروَى ناس عن ٱبن عباس قال: يقومون مقدار ثلثمائة سنة. قال: ويهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة، ورُوي عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «يقومون ألف عام في الظُّلة». ورَوَى مالك عن نافع عن ٱبن عمر عن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين، حتى إن أحدهم ليقوم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». وعنه أيضاً عن النبي ﷺ: «يقوم مائة سنة». وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ لبشير الغِفاريّ: «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لرب العالمين، لا يأتيهم فيه خبر، ولا يؤمر فيه بأمر» قال بشير: المستعان الله.

قلت: قد ذكرناه مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدريّ عن النبي ﷺ: «إنه لَيُخَّفف عن المؤمن، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة المكتوبة يصلّيها في الدنيا» في «سأل سائل»[٢]. وعن ٱبن عباس: يَهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة. وقيل:

(١) أي في الماء.
(٢) راجع ١٨/ ٢٨٢.

إن ذلك المقام على المؤمن كزوال الشمس؛ والدليل على هذا من الكتاب قوله الحق: ﴿ألا إن أولياء اللّهِ لا خوف عليهِم ولا هم يحزنون﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿الذِين آمنوا وكانوا يتقون﴾ جعلنا الله منهم بفضله وكرمه وجوده. ومنه آمين. وقيل: المراد بالناس جبريل عليه السلام يقوم لرب العالمين: قاله ٱبن جُبير. وفيه بُعد؛ لما ذكرنا من الأخبار في ذلك، وهي صحيحة ثابتة، وحسبُك بما في صحيح مسلم والبخاريّ والترمذيّ من حديث ٱبن عمر عن النبي ﷺ «يوم يقوم الناس لِرب العالمِين» قال: «يقوم أحدهم في رشْحه إلى نصف أذنيه». ثم قيل: هذا القيام يوم يقومون من قبورهم. وقيل: في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا. وقال يزيد الرشك: يقومون بين يديه للقضاء.

الرابعة ـ القيام لله رب العالمين سبحانه حَقير بالإضافة إلى عظمته وحقه، فأما قيام الناس بعضهم لبعض فٱختلفَ فيه الناس؛ فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه. وقد رُوي أن النبي ﷺ قام إلى جعفر بن أبي طالب وٱعتنقه، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تِيب عليه. وقول النبي ﷺ للأنصار حين طلع عليه سعد بن مُعاذ: «قوموا إلى سيِّدكم». وقال أيضاً: «من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتوبأ مقعده من النار». وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته، فإن ٱنتظَر ذلك وٱعتقده لنفسه، فهو ممنوع، وإن كان على طريق البشاشة والوُصلة فإنه جائز، وخاصة عند الأسباب، كالقدوم من السفر ونحوه. وقد مضى في آخر سورة «يوسف»[1] شيء من هذا.

[٧] ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ ﴾.

[٨] ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ ﴾.

[٩] ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ ﴾.

[١٠] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

[١١] ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ ﴾.

[١٢] ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

[١٣] ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

(١) راجع ٩/ ٢٦٥ فما بعدها.

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِن كتاب الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ قال قوم من أهل العلم بالعربية: «كَلاَّ»: رَدْع وتنبيه؛ أي ليس الأمر على ما هم عليه من تطفيف الكيل والميزان، أو تكذيب بالآخرة، فليرتدعوا عن ذلك. فهي كلمة رَدْع وزَجْر، ثم ٱستأنف فقال: ﴿إِن كِتاب الفُجَّارِ﴾. وقال الحسن: «كَلاَّ» بمعنى حَقًّا. ورَوَى ناس عن ٱبن عباس «كَلاَّ» قال: ألا تصدقون؛ فعلى هذا: الوقفُ ﴿لِرب العالمِين﴾. وفي تفسير مقاتل: إن أعمال الفجار. وروى ناس عن ٱبن عباس قال: إن أرواح الفجار وأعمالهم ﴿لفِي سِجينٍ﴾. وروى ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد قال: سِجِّين صخرة تحت الأرض السابعة، تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها. ونحوه عن ٱبن عباس وقتادة وسعيد بن جُبير ومقاتل وكعب؛ قال كعب: تحتها أرواح الكفار تحت خدّ إبليس. وعن كعب أيضاً قال: سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة، مكتوب فيها ٱسم كل شيطان، تلقى أنفس الكفار عندها. وقال سعيد بن جبير: سجين تحت خد إبليس. يحيى بن سلام: حجر أسود تحت الأرض، يكتب فيه أرواح الكفار. وقال عطاء الخُراساني: هي الأرض السابعة السفلى، وفيها إبليس وذرّيته. وعن ٱبن عباس قال: إن الكافر يحضُره الموت، وتحضره رسل الله، فلا يستطيعون لبغض الله له وبغضهم إياه، أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه، ورفعوه إلى ملائكة العذاب، فأروه ما شاء الله أن يُرُوه من الشر، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة، وهي سِجِّين، وهي آخر سلطان إبليس، فأثبتوا فيها كتابه. وعن كعب الأحبار في هذه الآية قال: إن رُوح الفاجر إذا قبضت يُصْعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، ثم يُهْبط بها إلى الأرض، فتأبى الأرض أن تقبلَها، فتدخل في سبع أرضين، حتى يُنْتَهَى بها إلى سِجِّين، وهو خد إبليس، فيخرج لها من سجين من تحت خدّ إبليس رَقّ، فيرقم فيوضع تحت خد إبليس. وقال الحسن: سِجِّين في الأرض السابعة. وقيل: هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التي ظنوا أنها تنفعهم. قال مجاهد: المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شيء. وقال:

سجين صخرة في الأرض السابعة. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «سجين جُب في جهنم وهو مفتوح» وقال في الفلق: «إنه جُبّ مغطى». وقال أنس: هي دَرَكة في الأرض السفلى. وقال أنس قال النبي ﷺ: سجين أسفلَ الأرض السابعة». وقال عِكرمة: «سِجين»: خسار وضلال؛ كقولهم لمن سقط قدره: قد زلق بالحضيض. وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج: ﴿لفِي سِجينٍ﴾ لفي حبس وضيق شديد، فِعِّيل من السَّجْن؛ كما يقول: فِسِّيق وشِرِّيب؛ قال ابن مقبل:

ورُفقةٍ يضرِبون البَيْضَ ضاحِية ضَرْباً تواصتْ به الأبطالُ سِجّينا[1]

والمعنى: كتابهم في حبس؛ جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم، أو لأنه يَحلُ من الإعراض عنه والإبعاد له مَحَلّ الزجر والهوان. وقيل: أصله سِجِّيل، فأبدلت اللام نوناً. وقد تقدّم ذلك. وقال زيد بن أسلم: سِجِّين في الأرض السافلة، وسِجيل في السماء الدنيا. القُشيريّ: سجِّين: موضع في السافلين، يدفن فيه كتاب هؤلاء، فلا يظهر بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون. وهذا دليل على خبث أعمالهم، وتحقير الله إياها؛ ولهذا قال في كتاب الأبرار: ﴿يشهده المقربون﴾. ﴿وما أدراك ما سِجِّينٌ﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك. ثم فسره له فقال: ﴿كِتاب مرقومٌ﴾ أي مكتوب كالرقْم في الثوب، لا يُنْسَى ولا يُمْحى. وقال قتادة: مرقوم أي مكتوب، رقم لهم بشر: لا يُزاد فيهم أحدَ ولا يَنْقُص منهم أحد. وقال الضحاك: مرقوم: مختوم، بلغة حمير؛ وأصل الرقم: الكتابة؛ قال:

سأَرقم في الماءِ القَراحِ[3] إليكُمُ على بُعدكِم إن كان للماءِ راقِمُ

وليس في قوله: «وما أدراك ما سِجِّين؟» ما يدل على أن لفظ سجين ليس عربياً؛ كما لا يدل في قوله: ﴿القارِعة ما القارِعة. وما أدراك ما القارِعة﴾ بل هو تعظيم لأمر سجين. وقد مضى في مقدّمة الكتاب ـ والحمد لله ـ أنه ليس في القرآن غير عربيّ. ﴿ويلٌ يومئِذٍ لِلمكذِّبِينَ﴾

---

(١) الذي في التاج نقلاً عن الجوهري:

ورجلة يضربون الهام عن عرض

(٢) راجع ١/ ٦٨.

(٢) القراح بوزن سحاب: الماء الذي لا ثقل فيه.

أي شدةٌ وعذاب يوم القيامة للمكذبين. ثم بيَّن تعالى أمرهم فقال: ﴿الذينَ يُكَذِّبون بيومِ الدِّين﴾ أي بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد. ﴿وما يُكَذِّب به إلا كلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي فاجر جائر عن الحق، معتد على الخلق في معاملته إياهم، وعلى نفسه، وهو أثيم في ترك أمر الله. وقيل هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهل ونظرائهما؛ لقوله تعالى: ﴿إذا تُتْلَى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأولينَ﴾ وقراءة العامة «تُتْلَى» بتاءين، وقراءة أبي حَيْوة وأبي سِماك وأشهب العُقَيلي والسُّلَمي: «إذا يُتْلَى» بالياء. وأساطير الأولين: أحاديثهم وأباطيلهم التي كتبوها وزخرفوها. واحدها أُسْطورة وإِسطارة، وقد تقدّم.

[١٤] ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾.

[١٥] ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾.

[١٦] ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦﴾.

[١٧] ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رانَ على قُلُوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبونَ﴾: «كَلّا»: ردْع وزجْر، أي ليس هو أساطيرَ الأوَّلينَ. وقال الحسن: معناها حقاً ﴿رَانَ على قُلُوبهمْ﴾. وقيل: في الترمذيّ: عن أبي هُريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَت في قلبه نُكْتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب، صُقِل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلُوَ على قلبه، وهو (الرَّانُ) الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلّا بلْ رَان على قُلُوبهمْ ما كانوا يَكْسِبون﴾». قال: هذا حديث حسن صحيح. وكذا قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب. قال مجاهد: هو الرجل يُذْنب الذنب، فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، حتى تُغَشّي الذنوب قلبه. قال مجاهد؛ هي مثل الآية التي في سورة البقرة: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾. . . الآية. ونحوه عن الفراء؛ قال: يقول كثرت المعاصي منهم والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرَّيْنُ عليها. ورُوي عن مجاهد أيضاً قال: القلب مثل الكهف ورفع كفه، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض، وضم إصبعه، فإذا أذنب الذنب انقبض، وضم

(١) راجع ٢/ ١١.

أخرى، حتى ضم أصابعه كلها، حتى يُطْبَع على قلبه. قال: وكانوا يرون أنّ ذلك هو الرَّيْن، ثم قرأ ﴿كَلاّ بلْ رانَ على قلوبِهِمْ ما كانوا يَكْسِبون﴾. ومثله عن حذيفة رضي الله عنه سواء. وقال بكر بن عبد الله: إن العبد إذا أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانياً صار كذلك، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنْخُل، أو كالغِربال، لا يعي خيراً، ولا يثبُت فيه صلاح، وقد بيَّنا في «البقرة»[1] القولَ في هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله ﷺ، فلا معنى لإعادتها. وقد روى عبد الغني بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ٱبن عباس، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ٱبن عباس شيئاً الله أعلم بصحته؛ قال: هو الران الذي يكون على الفخذين والساق والقدم، وهو الذي يُلْبس في الحرب. قال: وقال آخرون: الران: الخاطر الذي يخطر بقلب الرجل. وهذا مما لا يُضْمن عُهْدة صحتِه. فالله أعلم. فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا. وكذلك أهلُ اللغة عليه؛ يقال: رَانَ على قلبه ذنبهُ يَرِينُ رَيْناً ورُيوناً أي غلب. قال أبو عُبيدة في قوله: ﴿كَلاَّ بلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانوا يكسِبُونَ﴾ أي غلب؛ وقال أبو عُبيد: كل ما غلبك [وعَلاَكَ][2] فقد ران بك، ورانك، وران عليك؛ وقال الشاعر:

وكَمْ رانَ مِن ذنبٍ على قلبِ فاجِرٍ ... فتابَ مِن الذنبِ الذي رَانَ وٱنجلَى

ورانتْ الخمر على عقله: أي غلبته، وران عليه النُّعاسُ: إذا غطّاه؛ ومنه قول عمر في الأُسَيفع ـ أُسَيْفِع جُهَيْنة ـ: فأصبح قد رِينَ[3] به. أي غلبته الديون، وكان يَدَّانُ؛ ومنه قول أبي زُبَيد يصف رجلاً شرب حتى غلبه الشراب سُكْراً، فقال:

ثم لما رآه رانتْ بِهِ الخمـ ... ـرُ وأَنْ لا تَرِينَه بِاتقاءِ[4]

فقوله: رانت به الخمر، أي غلبت على عقله وقلبه. وقال الأمويّ: قد أران القوم فهم مُرِينون: إذا هلكت مواشيهم وهُزِلت. وهذا من الأمر الذي أتاهم مما يغلبهم، فلا يستطيعون ٱحتماله. قال أبو زَيد يقال: قد رِينَ بالرجل رَيْناً: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه، ولا قبل له

---

(١) راجع ١/١٨٨ فما بعدها. (٢) [وعلاك]: زيادة من («اللسان»: ران)، تتميماً لكلام أبي عبيد. (٣) في النهاية لابن الأثير: أي أحاط الدين بماله.

(٤) البيت في («اللسان»: ران) منسوباً لأبي زبيد، يصف سكراناً غلبت عليه الخمر.

وقال أبو مُعاذ النحويّ: الرَّين: أنْ يسودّ القلب من الذنوب، والطَّبَع أن يُطْبَع على القلب، وهذا أشد من الرَّين، والإقفال أشد من الطَّبَع. الزَّجّاج: الرَّيْن: هو كالصدأ يُغَشِّي القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين، يقال؛ غِين على قلبه: غُطِّي. والغَين: شجر ملتف، الواحدة غيناء، أي خضراء، كثير الورق، ملتفة الأغصان. وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب. وذكر الثعلبيّ عن ٱبن عباس: ﴿ران على قلوبِهم﴾: أي غطَّى عليها. وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله. وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وأبو بكر والمفضل «ران» بالإمالة؛ لأن فاء الفعل الراء، وعينه الألف منقلبة من ياء، فحسنت الإمالة لذلك. ومن فتح فعلى الأصل؛ لأن باب فاء الفعل في (فَعَلَ) الفتح، مثل كال وباع ونحوه. وٱختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ووقف حفص «بَلْ» ثم يبتدىء «رَانَ» وقفا يُبَيِّن اللام، لا للسكت.

قوله تعالى: ﴿كلا إنهم﴾ أي حقاً «إنهم» يعني الكفار ﴿عن ربِهم يومئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿لمحجوبون﴾. وقيل: «كلَّا» ردع وزجر، أي ليس كما يقولون، بل ﴿إنهم عن ربِهم يومئذٍ لمحجوبون﴾. قال الزجاج: في هذه الآية دليل على أن الله عزّ وجلّ يُرَى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، ولا خُصَّت منزلة الكفار بأنهم يحجبون. وقال جلّ ثناؤه: ﴿وجوه يومئذٍ ناضِرة، إلى ربها ناظِرة﴾ فأعلم الله جلّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه، وأعلم أن الكفار محبوبون عنه، وقال مالك بن أنس في هذه الآية: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه. وقال الشافعي: لما حجب قوماً بالسخط، دل على أن قوماً يرونه بالرضا. ثم قال: أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا. وقال الحسين بن الفضل: لما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ لمحجوبون ﴾: أي عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. وعلى الأول الجمهور، وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه. ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحِيم ﴾ أي

---

(١) الرين: هو الختم، أي الطبع على القلب كما في «اللسان» مادة «رين».

ملازموها، ومحترقون فيها غير خارجين منها، ﴿كلما نضِجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ و ﴿كلما خبت زِدناهم سعِيراً﴾. ويقال: الجحيم الباب الرابع من النار. ﴿ثم يقال﴾ لهم أي تقول لهم خزنة جهنم ﴿هذا الذِي كنتم بِهِ تكذبون﴾ رسل الله في الدنيا.

[١٨] ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾.

[١٩] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩﴾.

[٢٠] ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠﴾.

[٢١] ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿كلا إن كتاب الأبرارِ لفي عِلِيين﴾ «كَلَّا» بمعنى حقاً، والوقف على «تكذبون». وقيل أي ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا، بل كتابهم في سجين، وكتاب المؤمنين في علِيين. وقال مقاتل: كَلّا، أي لا يؤمنون بالعذاب الذي يَصْلَونه. ثم آستأنف فقال: ﴿إن كتاب الأبرارِ﴾ مرفوع في عليين على قدر مرتبتهم. قال آبن عباس: أي في الجنة. وعنه أيضاً قال: أعمالهم في كتاب الله في السماء. وقال الضحاك ومجاهد وقتادة: يعني السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين. ورَوَى آبن الأجلح عن الضحاك قال: هي سِدْرة المنتهى، ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها، فيقولون: ربِّ! عبدك فلان، وهو أعلم به منهم، فيأتيه كتاب من الله عزّ وجلّ مختوم بأمانه من العذاب. فذلك قوله تعالى: ﴿كلا إن كتاب الأبرارِ﴾. وعن كعب الأحبار قال: إن روح المؤمن إذا قبضت صُعد بها إلى السماء، وفُتحت لها أبواب السماء، وتلقَّتها الملائكة بالبشرَى، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لهم من تحت العرش، رَقّ فيرقم ويختم فيه النجاة من الحساب يوم القيامة ويشهده المقرَّبون. وقال قتادة أيضاً: «فِي عِلِيِّين» هي فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى. وقال البَرَاء بن عازِب قال النبي ﷺ: «عِلِّيون في السماء السابعة تحت العرش». وعن آبن عباس أيضاً؛ هو لوح من زبرجدة خضراء معلق بالعرش، أعمالهم مكتوبة فيه. وقال الفراء: عِليون آرتفاع بعد آرتفاع. وقيل: عليون أعلى الأمكنة. وقيل: معناه علوّ في علوّ مضاعف، كأنه لا غاية له؛ ولذلك جمع بالواو والنون. وهو معنى قول الطبريّ. قال الفراء: هو آسم موضوع على صفة الجمع، ولا واحد له من

لفظه؛ كقولك: عشرون وثلاثون، والعرب إذا جمعت جمعاً ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية، قالوا في المذكر والمؤنث بالنون. وهي معنى قول الطبري. وقال الزجاج: إعراب هذا الاسم كإعراب الجمع، كما تقول هذه قِنَّسْرون، ورأيت قنّسرين. وقال يونس النحوي واحدها: عِلِيّ وعِلِية. وقال أبو الفتح: عِلِيين: جمع عِلِيّ، وهو فِعِّيل من العلوّ. وكان سبيله أن يقول عِلِّية كما قالوا للغرفة عِلِّية؛ لأنها من العلو، فلما حذف التاء من عِلية عوضوا منها الجمع بالواو والنون، كما قالوا في أرضين. وقيل: إن عليين صفة للملائكة، فإنهم الملأ الأعلى؛ كما يقال: فلان في بني فلان؛ أي هو في جملتهم وعندهم. والذي في الخبر من حديث ٱبن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عِليين لينظرون إلى الجنة من كذا، فإذا أشرف رجل من أهل عِليين أشرقت الجنة لضياء وجهه، فيقولون: ما هذا النور؟ فيقال أشرف رجل من أهل عِليين الأبرار أهل الطاعة والصدق». وفي خبر آخر: «إن أهل الجنة ليرون أهل عِليين كما يُرى الكوكب الدُّرِّيُّ في أفق السماء» يدل على أن عِليين ٱسم الموضع المرتفع. وروى ناس عن ابن عباس في قوله «عِليين» قال: أخبر أن أعمالهم وأرواحهم في السماء الرابعة. ثم قال: ﴿وما أدراك ما عليون﴾ أي ما الذي أعلمك يا محمد أي شيء عليون؟ على جهة التفخيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة. ثم فسره له فقال: ﴿كتاب مرقوم يشهده المقربون﴾. وقيل: إن «كتاب مرقوم» ليس تفسيراً لعلّيين، بل تم الكلام عند قوله: «عليون» ثم ابتدأ وقال: «كتاب مرقوم» أي كتاب الأبرار كتاب مرقوم ولهذا عكس الرقم في كتاب الفجار؛ قاله القشيريّ. وروي: أن الملائكة تصعد بعمل العبد، فيستقبلونه[1] فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم: إنكم الحفَظَة على عبدي، وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه أخلص لي عمله، فاجعلوه في عليين، فقد غفرت له، وإنها لتصعد بعمل العبد، فيتركونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنه لم يخلص لي عمله، فاجعلوه في سِجِّين.

(١) فيستقبلونه: كذا في أ، ب، ح، ط، ل.

قوله تعالى: ﴿يشهدُهُ المقرَّبُون﴾ أي يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة. وقال وهب وابن إسحاق: المقربون هنا إسرافيل عليه السلام، فإذا عمل المؤمن عمل البر، صَعِدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض، حتى ينتهي بها إلى إسرافيل، فيختم عليها ويكتب فهو قوله: ﴿يشهده المقربون﴾ أي يشهد كتابتهم.

[٢٢] ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾. [٢٣] ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

[٢٤] ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

[٢٥] ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾.

[٢٦] ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[٢٧] ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إن الأبرار﴾ أي أهل الصدق والطاعة. ﴿لفي نعيم﴾ أي نَعْمَة، والنَّعمة بالفتح: التنعيم؛ يقال: نَعَّمه الله وناعمه فتنعم، وامرأة منعَّمة ومناعَمة بمعنى. أي إن الأبرار في الجنات يتنعمون. ﴿على الأرائِكِ﴾ وهي الأسرة في الحِجال ﴿ينظُرون﴾ أي إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات؛ قاله عكرمة وابن عباس ومجاهد. وقال مقاتل: ينظُرون إلى أهل النار. وعن النبي ﷺ: «ينظرون إلى أعدائهم في النار» ذكره المَهْدَوِيّ. وقيل: على أرائك أفضاله ينظرون إلى وجهه وجلاله.

قوله تعالى: ﴿تعرِفُ فِي وجوهِهِم نَضْرَة النعِيم﴾ أي بهجته وغضارته ونوره؛ يقال: نضر النبات: إذا أزهر ونوّر. وقراءة العامة «تعرِفُ» بفتح التاء وكسر الراء «نَضْرَةَ» نصباً؛ أي تعرف يا محمد. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وابن أبي إسحاق: «تُعْرَف» بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول «نضرة» رفعاً. ﴿يُسْقَون مِن رحِيقٍ﴾ أي من شراب لا غِش فيه. قاله الأخفش والزجّاج. وقيل، الرحيق الخمر الصافية. وفي الصحاح: الرحيق صفوة الخمر. والمعنى واحد. الخليل: أقصى[1] الخمر وأجودها. وقال مقاتل وغيره: هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة، قال حسان:

---

(١) كذا في الأصول كلها ولعل الصواب: أصفى الخمر.

يَسْقون مَنْ وَرَدَ البريصَ عَلَيْهِمُ بَرَدَى يُصَفَّق بالرحِيقِ السلسلِ[١]

وقال آخر[٢]:

أمْ لا سبِيلَ إلى الشباب وذكره أَشْهى إليّ مِن الرحيقِ السَّلْسَلِ

﴿مختوم خِتامه مسك﴾ قال مجاهد؛ يختم به آخر جُرْعة. وقيل: المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففني ما في الكأس، أنختم ذلك بخاتم المسْك. وكان ابن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعم المسك. ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي قالا: ختامه آخر طعمه. وهو حسن؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكَدَر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك. وعن مسروق عن عبد الله: قال المختوم الممزوج. وقيل: مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يَفُكَّ ختامها الأبرار. وقرأ عليّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائي «خاتَمه» بفتح الخاء والتاء وألف بينهما. قاله علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل خاتمَه مسكاً، تريد آخره. والخاتمَ والخِتام متقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والخِتَام المصدر؛ قاله الفراء: وفي الصحاح: والخِتام: الطين الذي يُخْتم به. وكذا قال مجاهد وابن زيد: خُتم إناؤه بالمسك بدلاً من الطين. حكاه المهدويّ. وقال الفرزدق:

وبِت أَفُضّ أَغلاق الخِتامِ[٣]

وقال الأعشى:

وأبرزها وعليها خَتَمْ[٤]

أي عليها طينة مختومة؛ مثل نَفْضٍ بمعنى منفوضٍ، وقَبْضٍ بمعنى مقبوضٍ. وذكر ابن المبارك وابن وهب، واللفظ لابن وهب، عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿خِتامه مِسْك﴾: خَلْطه، ليس بخاتم يختم، ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكم: إن خِلْطه من الطِّيب كذا وكذا.

---

(١) تقدم شرح البيت بهامش ص ١٤١ من هذا الجزء. (٢) هو أبو كبير الهذلي.
(٣) صدر البيت: فبتن جنابتي مصرعات
(٤) صدره: وصهباء طاف يهوديها

إنما خِلْطه مسك؛ قال: شراب أبيض مثل الفضة يختِمون به آخر أشربتهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها. وروى أُبَيٌّ بن كعب قال: قيل يا رسول الله ما الرحيق المختوم؟ قال: «غُدْران الخمر». وقيل: مختوم في الآنية، وهو غير الذي يجري في الأنهار. فالله أعلم.

﴿وفِي ذلِك﴾ أي وفي الذي وصفناه من أمر الجنة ﴿فليتنافسِ المتنافِسون﴾ أي فليرغب الراغبون؛ يقال: نَفَسْت عليه الشيء أَنْفِسه نفاسة: أي ضننت به، ولم أحبَّ أن يصير إليه. وقيل؛ الفاء بمعنى إلى، أي وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل؛ نظيره: لِمِثْلِ هذا فليعملِ العامِلون». ﴿ومِزاجُه﴾ أي ومزاج ذلك الرحيق ﴿مِن تسنِيم﴾ وهو شراب ينصبّ عليهم من علوّ، وهو أشرف شراب في الجنة. وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل؛ ومنه سنام البعير لعلوّه من بدنه، وكذلك تسنيم القبور. وروي عن عبد الله قال: تسنيم عين في الجنة يشرب بها المقرّبون صِرْفاً، ويمزح منها كأس أصحاب اليمين فتطيب. وقال ابن عباس في قوله عزّ وجلّ: ﴿ومِزاجه مِن تسنِيم﴾ قال: هذا مما قال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أُخْفِي لهم مِن قُرَّةِ أعينٍ﴾. وقيل: التسنيم عين تجري في الهواء بقدرة الله تعالى، فتنصبُّ في أواني أهل الجنة على قدر مائها، فإذا امتلأت أمسك الماء، فلا تقع منه قطرة على الأرض، ولا يحتاجون إلى الاستقاء؛ قاله قتادة. ابن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش. وكذا في مراسيل الحسن. وقد ذكرناه في سورة «الإنسان»[1]. ﴿عيناً يشرب بِها المقربون﴾ أي يشرب منها أهل جنة عدنٍ، وهم أفاضل أهل الجنة، صِرْفاً، وهي لغيرهم مِزاج. و «عيناً» نصب على المدح. وقال الزجاج: نصب على الحال من تسنيم، وتسنِيم معرفة، ليس يعرف له اشتقاق، وإن جعلته مصدراً مشتقاً من السنام فـ «عيناً» نصب؛ لأنه مفعول به؛ كقوله تعالى: ﴿أو إطعام فِي يومٍ ذي مسغبةٍ * يتِيماً﴾ وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم. وعند الأخفش بـ «يُسْقَون» أي يسقون عيناً أو من عين. وعند المبرد بإضمار أعني على المدح.

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء.

[٢٩] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

[٣١] ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾.

[٣٢] ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾.

[٣٣] ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

[٣٤] ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

[٣٥] ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

[٣٦] ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ أَجرموا﴾ وصف أرواح الكفار في الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم، والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك. روى ناس عن ٱبن عباس قال: هو الوليد بن المغيرة، وعُقْبة بن أبي مُعَيْط، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والنضر بن الحارث؛ وأولئك ﴿كانوا مِن الذِين آمنوا﴾ من أصحاب محمد ﷺ مثل عَمار، وخَبَّاب وصُهَيب وبِلال ﴿يضحكون﴾ على وجه السخرية. ﴿وإِذا مروا بِهم﴾ عند إتيانهم رسول الله ﷺ ﴿يتغامزون﴾: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم. وقيل: أي يعيِّرونهم بالإسلام ويعيبونهم به؛ يقال: غمزت الشيء بيدي؛ قال:

وكنـت إذا غمـزتُ قنـاةَ قـومٍ كَسَـرْت كُعـوبَهـا أو تستقِيمـا

وقالت عائشة: كان النبي ﷺ إذا سجد غمزني، فقبضت رجلي. الحديث؛ وقد مضى في «النساء»(١). وغمزته بعيني. وقيل: الغمز: بمعنى العيب، يقال غمزه: أي عابه، وما في فلان غَمْزة أي عيب. وقال مقاتل: نزلت في عليّ بن أبي طالب جاء في نفر من المسلمين إلى النبي ﷺ فلَمَزَهُمُ المنافقون، وضحكوا عليهم وتغامزوا. ﴿وإذا ٱنقلبوا﴾ أي ٱنصرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذَويهم ﴿ٱنقلبوا فكِهِين﴾ أي مُعَجَّبين منهم. وقيل: مُعْجَبون بما هم عليه من الكفـر، متفكهون بذكر المؤمنين. وقرأ ٱبن القعقاع وحفص والأعرج والسلميّ: «فكِهين» بغير ألف. الباقون بألف. قال الفـراء: هما لغتان مثل

(١) راجع ٥/٢٢٦.

طمِع وطامِع وحَذِرَ وحاذِر وقد تقدم في سورة «الدخان»[1] والحمد لله. وقيل: الفكِه: الأشِر البطر والفاكه: الناعم المتنعم. ﴿وإذا رأوْهُمْ﴾ أي إذا رأى هؤلاء الكفار أصحاب محمد ﷺ ﴿قالوا إن هؤلاءِ لضالُّون﴾ في اتباعهم محمداً ﷺ ﴿وما أُرسِلوا عليهِم حافِظِين﴾ لأعمالهم، موكلين بأحوالهم، رقباء عليهم ﴿فاليومَ﴾ يعني هذا اليوم الذي هو يوم القيامة ﴿الذين آمنوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿مِن الكفارِ يضحكون﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا. نظيره في آخر سورة «المؤمنين»[2] وقد تقدم. وذكر ابن المبارك: أخبرنا محمد بن بشار عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فاليوم الذِين آمنوا مِن الكفارِ يضحكون﴾ قال: ذُكِر لنا أن كعبا كان يقول إن بين الجنة والنار كُوًى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له في الدنيا اطلع من بعض الكُوَى؛ قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فاطلع فرآه فِي سواءِ الجحِيم﴾ قال: ذُكِر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تَغْلِي. وذكر ابن المبارك أيضاً: أخبرنا الكلبيّ عن أبي صالح في قوله تعالى: ﴿الله يستهزِىء بِهِم﴾ قال: يقال لأهل النار وهم في النار: اخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غُلِّقت دونهم؛ فذلك قوله؛ ﴿الله يستهزِىء بِهِم﴾ ويضحك منهم المؤمنون حين غُلِّقتْ دونهم فذلك قوله تعالى: ﴿فاليوم الذِين آمنوا مِن الكفارِ يضحكون﴾. ﴿على الأرائِكِ ينظُرون * هل ثُوِّبَ الكفارُ ما كانوا يفعلون﴾ وقد مضى هذا في أول سورة «البقرة»[3]. ومعنى «هل ثُوِّب» أي هل جُوزي بسخريتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فُعِل بهم ذلك. وقيل: إنه متعلق بـ «ـينظرون» أي ينظرون: هل جُوزي الكفار؟ فيكون معنى هل [التقرير] وموضعها نصباً بـ «ـينظرون». وقيل: استئناف لا موضع له من الإعراب. وقيل: هو إضمار على القول، والمعنى؛ يقول بعض المؤمنين لبعض ﴿هل ثُوِّب الكفار﴾ أي أُثيب وجُوزي. وهو من ثاب يثوب أي رجع؛ فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله، ويستعمل في الخير والشَّر.

ختمت السورة والله أعلم.

---

(١) راجع ١٦/١٣٩.

(٢) راجع ١٢/١٥٥.

(٣) راجع ١/٢٠٨.

سورة الانشقاق

مكية في قول الجميع، وهي خمس وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾.

[٥] ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إذا السماء ٱنشقت﴾ أي ٱنصدعت، وتفطرتْ بالغمَام، والغمَام مثل السحاب الأبيض. وكذا رَوَى أبو صالح عن ٱبن عباس. وروي عن عليّ عليه السلام قال: تُشَقّ من المجرة. وقال: المُجَرَّة باب السماء. وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها. ﴿وأَذِنت لِربِّها وحُقَّتْ﴾ أي سمِعت، وحق لها أن تسمع، رُوِي معناه عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما؛ ومنه قوله ﷺ: «ما أَذِن الله لشيء كَأَذَنَه لنبيّ يتغنى بالقرآن» أي ما ٱستمع الله لشيء؛ قال الشاعر:

صُمٌّ إذا سمِعوا خيراً ذُكرتُ بِهِ ... وإن ذُكِرتُ بِسُوءِ عِندهم أَذِنُوا

أي سمعوا. وقال قعنب بن أمّ صاحب:

إِنْ يأذَنُوا رِيبةً طاروا بها فرحا ... وما هُمُ أَذِنوا من صالحٍ دَفَنُوا

وقيل: المعنى وحقّق الله عليها الاستماعَ لأمره بالانشقاق. وقال الضحاك: حُقَّتْ: أطاعت، وحُقّ لها أن تطيع ربها، لأنه خلقها؛ يقال: فلان محقوق بكذا. وطاعة السماء: بمعنى أنها لا تمتنع مما أراد الله بها، ولا يبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجيب. وقال قتادة: حق لها أن تفعل ذلك؛ ومنه قول كثير:

فإن تكنِ العُتْبَى فأَهلاً ومَرْحَباً ... وحُقَّتْ لها العُتْبَى لدينا وقَلَّتِ

قوله تعالى: ﴿وإذا الأرضُ مُدَّتْ﴾ أي بُسِطَت ودُكّت جِبالها. قال النبي ﷺ: «تُمَدّ مَدَّ الأديم» لأن الأديم إذا مدّ زال كل انثناء فيه وأمتدّ وأستوى. قال أبن عباس وأبن مسعود: ويزاد، وسعتها كذا وكذا؛ لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه، لكثرة الخلائق فيها. وقد مضى في سورة «إبراهيم»[1] أن الأرض تبدل بأرض أخرى وهي الساهِرة في قول أبن عباس على ما تقدم عنه[2]. ﴿وألَقت ما فِيها وتخلت﴾ أي أخرجت أمواتها، وتخلت عنهم. وقال ابن جُبَير: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء. وقيل: ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها، وتخلت منها. أي خلا جوفها، فليس في بطنها شيء، وذلك يؤذن بعظم الأمر، كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة. وقيل: تَخَلَّت مما على ظهرها من جبالها وبحارها. وقيل: أَلْقَتْ ما أستُودِعتْ وتخلت مما أستحفظت؛ لأن الله تعالى أستودعها عباده أحياءً وأمواتاً، وأستحفظها بلاده مزارعة وأقواتاً. ﴿وأَذِنت لِربها﴾ أي في إلقاء موتاها ﴿وحُقَّتْ﴾ أي وحق لها أن تسمع أمره. وأختلف في جواب «إذا» فقال الفراء: «أذِنت». والواو زائدة، وكذلك «وألْقَتْ». أبن الأنباري: قال بعض المفسرين: جواب ﴿إذا السماء أنشقت﴾ أَذِنت، وزعم أن الواو مقحمة وهذا غلط؛ لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع «حتى ـ إذا» كقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها وفُتِحت أَبوابها﴾ ومع «لما» كقوله تعالى: ﴿فلما أَسْلَمَا وتَلَّه لِلجبِينِ * وناديناه﴾ معناه «ناديناهُ» والواو لا تقحم مع غير هذين. وقيل: الجواب فاء مضمرة كأنه قال: «إذا السماء أنشقت» فيا أيها الإنسان إنك كادح. وقيل: جوابها ما دل عليه ﴿فمُلاقِيه﴾ أي إذا السماء أنشقت لاقى الإنسان كدحه. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إِلى ربك كدحاً فملاقِيه﴾ ﴿إذا السماء أنشقت﴾. قاله المبرد. وعنه أيضاً: الجواب ﴿فأما من أوتِي كِتابه بِيمِينِهِ﴾ وهو قول الكسائي؛ أي إذا السماء أنشقت فمن أوتي كتابه بيمينه فحكمه كذا. قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح

---

(١) راجع ٩/٣٨٣.

(٢) راجع ص١٩٦ من هذا الجزء.

ما قيل فيه وأحسنه. قيل: هو بمعنى أذكر ﴿إذا السماء انشقت﴾. وقيل: الجواب محذوف لعلم المخاطبين به؛ أي إذا كانت هذه الأشياء علم المكذبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم. وقيل: تقدّم منهم سؤال عن وقت القيامة، فقيل لهم: إذا ظهرت أشراطها كانت القيامة، فرأيتم عاقبة تكذيبكم بها. والقرآن كالآية الواحدة في دلالة البعض على البعض. وعن الحسن: إن قوله: ﴿إذا السماء انشقت﴾ قسم. والجمهور على خلاف قوله من أنه خبر وليس بقسم.

[٦] ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾.

[٧] ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾﴾.

[٨] ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

[٩] ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادِح إلى ربك كدحاً﴾ المراد بالإنسان الجنس أي يأبن آدم. وكذا روى سعيد عن قتادة: يابن آدم، إن كَدْحَك لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ولا قوّة إلا بالله. وقيل: هو مُعَيَّن؛ قال مقاتل: يعني الأسود بن عبد الأسد. ويقال: يعني أُبَيَّ بن خَلَف. ويقال: يعني جميع الكفار؛ أيها الكافر إنك كادح. والكدح في كلام العرب: العمل والكسب؛ قال ابن مقبل:

وما الدهرُ إلا تارتانِ فمِنهما أَموت وأُخرى أبتغِي العيش أكدح

قال آخر:

ومَضَتْ بشاشةُ كل عيشٍ صالِحٍ وبَقِيتُ أَكدح لِلحياةِ وأَنصب

أي أعمل. وروى الضحاك عن ابن عباس: ﴿إنك كادِح﴾ أي راجع ﴿إلى ربك كدحاً﴾ أي رجوعاً لا محالة ﴿فملاقِيه﴾ أي مُلاقٍ ربك. وقيل: مُلاقٍ عملك. القتبيّ ﴿إنك كادح﴾ أي عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك. والملاقاة بمعنى اللقاء أي تلقى ربك بعملك. وقيل أي تلاقي كتاب عملك؛ لأن العمل قد انقضى ولهذا قال: ﴿فأما مَنْ أوتِي كِتابه بيمينه﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَما من أوتِيَ كِتابه بِيمينِهِ﴾ وهو المؤمن ﴿فسوف يحاسب حِساباً يسِيراً﴾ لا مناقشة فيه. كذا روي عن رسول الله ﷺ من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حوسب يوم القيامة عُذِّب» قالت: فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله: ﴿فأما من أُوتِيَ كِتابه بِيمينِهِ فسوف يُحاسب حِساباً يَسِيراً﴾ فقال: «ليس ذاكِ الحساب، إنما ذلكِ العَرْضُ، مَنْ نُوقِش الحساب يوم القيامة عذب» أخرجه البخاري ومسلم والترمذيّ. وقال حديث حسن صحيح. ﴿وينقلِب إلى أهلِهِ مسروراً﴾ أزواجه في الجنة من الحور العين «مسروراً» أي مغتبطاً قرير العين. ويقال إنها نزلت في أبي سلمة أبن عبد الأسد، هو أوّل من هاجر من مكة إلى المدينة. وقيل: إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا، ليخبرهم بخلاصه وسلامته. والأوّل قول قتادة. أي إلى أهله الذين قد أعدّهم الله له في الجنة.

[١٠] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١﴾.

[١٢] ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾.

[١٤] ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾.

[١٥] ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وأما من أُوتِيَ كِتابه وراء ظهرِهِ﴾ نزلت في الأسود بن عبد الأسد أخي أبي سلمة؛ قاله أبن عباس. ثم هي عامة في كل مؤمن وكافر. قال أبن عباس: يمدّ يده اليمنى ليأخذ كتابه فيجذبه مَلَك، فيخلع يمينه، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره. وقال قتادة ومقاتل: يفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره، فيأخذ كتابه كذلك. ﴿فسوفَ يدعُو ثُبوراً﴾ أي بالهلاك فيقول: يا ويلاه، يا ثبوراه. ﴿ويَصْلَى سعيراً﴾ أي ويدخل النار حتى يصلى بحرّها. وقرأ الحِرْميان وأبن عامر والكسائي «ويُصَلَّى» بضم الياء وفتح الصاد، وتشديد اللام؛ كقوله تعالى: ﴿ثم الجحيم صَلُّوه﴾ وقوله: ﴿وتَصْلِيةُ جحِيم﴾. الباقون «ويَصْلَى» بفتح الياء مخففاً، فعل لازم غير متعدٍ؛ لقوله: ﴿إلا من هو صالِ الجحِيم﴾ وقوله: «يصلى النار الكبرى» وقوله: ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾. وقراءة ثالثة رواها أبان

عن عاصم وخارجة عن نافع وإسمعيل المكي عن ٱبن كثير «ويُصْلَى» بضم الياء وإسكان الصاد وفتح اللام مخففاً؛ كما قرىء «وسَيُصْلَون» بضم الياء، وكذلك في «الغاشية» قد قرىء أيضاً: «تُصْلَى ناراً» وهما لغتان صلى وأصلى؛ كقوله: «نزل. وأنزل». ﴿إنه كان في أهلِهِ﴾ أي في الدنيا ﴿مسروراً﴾ قال ٱبن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، وقرأ قول الله تعالى: ﴿إنا كنا قبلُ فِي أهلِنا مشفِقِين فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السمومِ﴾. قال: ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحِك فيها والتفكه. فقال: «إنه كان فِي أهلِهِ مسروراً». ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ أي لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب، ثم يثاب أو يعاقب. يقال: حار يحور إذا رجع؛ قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ يحورُ رَمادا بعد إذا هو ساطِعُ

وقال عِكرمة وداود بن أبي هند، يحور كلمة بالحبشية، ومعناها يرجع. ويجوز أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة ٱشتقاق؛ ومنه الخبز الحُوارَى؛ لأنه يرجع إلى البياض. وقال ٱبن عباس: ما كنت أدري: ما يحور؟ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها: حُوري، أي ٱرجَعي إليّ، فالحَوْر في كلام العرب الرجوع؛ ومنه قوله عليه السلام: «اللهم إني أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر» يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة، وكذلك الحُور بالضم. وفي المثل «حُورٌ في محارة»[(١)] أي نقصان في نقصان. يضرب للرجل إذا كان أمره يُدْبِر؛ قال الشاعر[(٢)]:

وٱستعجلوا عن خفِيف المضغِ فٱزدردُوا والـذم يبقَـى وزادُ القـومِ فـي حُـوْرِ

والحُوْر أيضاً: الاسم من قولك: طحَنَتِ الطاحنة فما أحارت شيئاً؛ أي ما ردت شيئاً من الدقيق. والحُوْر أيضاً: الهلكة؛ قال الراجز[(٣)]:

في بِئرِ لا حُورِ سَرَى ولا شَعَر

(١) أي حور في حور، فمحاورة: مصدر ميمي بمعنى الحور.
(٢) قائله سبيع بن الخطيم؛ يريد الأكل يذهب والذم يبقى.
(٣) هو العجاج.

قال أبو عبيدة: أي بئر حُورٍ، و «لا» زائدة. وروي «بعد الكون»[١] ومعناه من أنتشار الأمر بعد تمامه. وسئِل معمر عن الحَوْر بعد الكون، فقال: هو الكُنْتِيّ. فقال له عبد الرزاق: وما الكُنْتِيّ؟ فقال: الرجل يكون صالحاً ثم يتحول رجل سَوْء. قال أبو عمرو: يقال للرجل إذا شاخ: كنتِيّ، كأنه نسب إلى قوله: كنت في شبابي كذا. قال:

فأصبحت كُنتياً وأصبحت عاجِنا وشر خِصالِ المرءِ كُنْتُ وعاجِنُ

عجن الرجل: إذا نهض معتمداً على الأرض من الكبر. وقال أبن الأعرابي: الكنتِيّ: هو الذي يقول: كنت شاباً، وكنت شجاعاً، والكانِيّ هو الذي يقول: كان لي مال وكنت أهب، وكان لي خيل وكنت أركب.

قوله تعالى: ﴿بلَى﴾ أي ليس الأمر كما ظنّ بل يحور إلينا ويرجع. ﴿إن ربه كان بِهِ بصِيراً﴾ قبل أن يخلقه، عالماً بأن مرجعه إليه. وقيل: بلَى ليَحُورَنّ وليرجعَنّ. ثم أستأنف فقال: ﴿إن ربه كان بِهِ بصِيراً﴾ من يوم خلقه إلى أن بعثه. وقيل: عالماً بما سبق له من الشقاء والسعادة.

[١٦] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾.

[١٧] ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾.

[١٨] ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾.

[١٩] ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾.

[٢٠] ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾.

[٢١] ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿فلا أُقسم﴾ أي فأقسم و «لا» صلة. ﴿بِالشَّفَق﴾ أي بالحمرة التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة. قال أشهب وعبد الله بن الحكم ويحيى بن يحيى وغيرهم، كثير عددهم، عن مالك: الشَّفَق الحمرة التي في المغرب، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجتْ من وقت المغرب ووجبتْ صلاة العشاء. وروى أبن وهب قال: أخبرني غير واحد عن عليّ بن أبي طالب ومُعاذ بن جبل وعُبادة بن الصامت وشدّاد بن أوس

(١) الكون هنا: مصدر كان التامة يقال: كان يكون كوناً: أي وجد وأستقر. (النهاية).

وأبي هريرة: أن الشفَق الحمرة، وبه قال مالك بن أنس. وذكر غير ابن وهب من الصحابة: عمر وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنَساً وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وابن الزبير، ومن التابعين: سعيد بن جبير، وابن المسيب وطاوس، وعبد الله بن دينار، والزهريّ، وقال به من الفقهاء الأوزاعيّ ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيد وأحمد وإسحاق. وقيل: هو البياض؛ رُوي ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وعمر بن عبد العزيز والأوزاعيّ وأبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه. وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه. ورُوِي عن ابن عمر أيضاً أنه البياض والاختيار الأوّل؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه؛ ولأن شواهد كلام العرب والاشتقاق والسنة تشهد له. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ: كأنه الشفق وكان أحمر، فهذا شاهد للحمرة؛ وقال الشاعر:

وأحمر اللون كمحمرّ الشفق

وقال آخر:

قم يا غلام أعنِي غير مرتبكٍ ... على الزمانِ بِكأسٍ حَشْوُها شَفَقُ

ويقال للمِغْرة الشفق. وفي الصحاح: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أوّل الليل إلى قريب من العَتَمة. قال الخليل: الشفق: الحمرة، من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، إذا ذهب قيل: غاب الشفق. ثم قيل: أصل الكلمة من رقة الشيء؛ يقال: شيء شَفِق أي لا تماسك له لرقته. وأشفق عليه: أي رق قلبه عليه، والشفقة: الاسم من الإشفاق، وهو رِقة القلب، وكذلك الشَّفَق؛ قال الشاعر(١):

تهوَى حَياتِي وأهوى موتها شَفَقاً ... والموتُ أكرم نَزَّالٍ على الحُرَمِ

فالشفَق: بقية ضوء الشمس وحمرتها فكأن تلك الرّقة عن ضوء الشمس. وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلاً. وقال الخليل: صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض، فرأيته يتردّد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب. وقال ابن أبي أويس: رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر

---

(١) هو لإسحاق بن خلف. وقيل هو لابن المعلى. «اللسان».

قال علماؤنا: فلما لم يتحدد وقته سقط ٱعتباره. وفي سُنَن أبي داود عن النعمان بن بَشير قال: أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة؛ كان النبي ﷺ يصليها لسقوط القمر لثالثة. وهذا تحديد، ثم الحكم معلق بأوّل الاسم. لا يقال: فينقض عليكم بالفجر الأوّل، فإنا نقول الفجر الأوّل لا يتعلق به حكم من صلاة ولا إمساك؛ لأن النبي ﷺ بيَّن الفجر بقوله وفعله فقال: «وليس الفجر أن تقول هكذا ـ فرفع يده إلى فوق ـ ولكن الفجر أن تقول هكذا وبسطها» وقد مضى بيانه في آية الصيام من سورة «البقرة»[1]، فلا معنى للإعادة. وقال مجاهد: الشفق: النهار كله ألا تراه قال: ﴿والليلِ وما وَسَق﴾. وقال عِكرمة: ما بقي من النهار. والشفق أيضاً: الرديء من الأشياء؛ يقال: عطاء مُشفَّق أي مقلل قال الكُميت:

ملكَ أغَر مِن الملوك تحلَّبتْ   للسائلين يداه غيرَ مُشفَّقِ

قوله تعالى: ﴿والليلِ وما وَسَق﴾ أي جمع وضم ولف، وأصله من سَوْرة السلطان وغضبه؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه، ولكن خرج من باب الرحمة فمزج بها، فسكن الخلق إليه ثم ٱبذَعَرُّوا وٱلتفُّوا وٱنقبضوا، ورجع كل إلى مأواه فسكن فيه من هَوْلِه وحشا، وهو قوله تعالى: ﴿ومِن رحمتِهِ جعل لكم الليل والنهار لِتسكنوا فِيه﴾ أي بالليل ﴿ولِتبتغوا مِن فضلِهِ﴾ أي بالنهار على ما تقدم. فالليل يجمع ويضم ما كان منتشراً بالنهار في تَصَرّفه. هذا معنى قول ٱبن عباس ومجاهد ومقاتل وغيرهم؛ قال ضابىء ابن الحارث البرجُمِيّ:

فإني وإياكُمْ وشوقاً إليكُمْ   كقابِضِ ماءٍ لم تَسِقْه أناملُهْ

يقول: ليس في يدهِ من ذلك شيء كما أنه ليس في يد القابض على الماء شيء؛ فإذا جلل الليل الجبال والأشجار والبحار والأرض فاجتمعت له، فقد وَسَقَها. والوسْق: ضمك الشيء

(١) راجع ٢/٣١٨ فما بعدها.

بعضه إلى بعض، تقول: وَسَقْتُه أَسِقُه وَسْقاً. ومنه قيل للطعام الكثير المجتمع: وَسْقٌ، وهو ستون صاعاً. وطعام مُوسَق: أي مجموع، وإبل مُسْتَوْسِقة أي مجتمعة؛ قال الراجز[1]:

إنَّ لَنَا قَلائِصا حقائِقا مُسْتَوْسقاتٍ لو يَجِدْنَ سائِقا

وقال عِكرمة: «وما وَسَق» أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوي، فالوَسْق بمعنى الطرْد، ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر: وسِيقة، قال الشاعر[2]:

كما قافَ آثارَ الوسِيقةِ قائِفُ

وعن ابن عباس: ﴿وما وَسَق﴾ أي وما جنّ وستر. وعنه أيضاً: وما حَمَل، وكل شيء حملته فقد وَسَقْته، والعرب تقول: لا أفعله ما وَسَقَتْ عيني الماء، أي حملته. ووسَقَت الناقةُ تَسِق وَسْقاً: أي حملت وأغلقت رحمها على الماء، فهي ناقة واسق، ونوق وِسَاق مثلَ نائِم ونيام، وصاحِب وصِحاب قال بشر بن أبي خازم:

أَلَظَّ بِهِن يحدوهُنّ حتى تبينتِ الحِيالُ مِن الوِساقِ

ومَواسيق أيضاً. وأوسقت البعير: حَمَّلته حملَه، وأوسَقَتِ النخلة: كثر حملها. وقال يمان الضحاك ومقاتل بن سليمان: حمل من الظلمة. قال مقاتل: أو حمل من الكواكب. القشيريّ: ومعنى حَمَل: ضم وجمع، والليل يجلل بظلمته كل شيء فإذا جللها فقد وسقها. ويكون هذا القَسَم قسماً بجميع المخلوقات، لاشتمال الليل عليها، كقوله تعالى: ﴿فلا أقسِم بِما تُبْصِرون وما لا تبصرون﴾. وقال ابن جُبير: ﴿وما وَسَق﴾ أي وما عمل فيه، يعني التهجد والاستغفار بالأسحار، قال الشاعر:

ويوماً ترانا صالحين وتارةً تقومُ بِنا كالواسِق المتلَبِّب

أي كالعامل.

---

(١) هو العجاج كما في «اللسان» مادة «وسق».

(٢) قائله الأسود بن يعفر، وصدره:

كذبت عليك لا تزال تقوفني.

قوله تعالى: ﴿والقمرِ إِذا اتَّسق﴾ أي واجتمع وٱستوى. قال الحسن: ٱتسق: أي ٱمتلأ واجتمع. ابن عباس: استوى. قتادة: استدار. الفراء: اتساقه: امتلاؤه واستواؤه ليالِيَ البدر، وهو افتعال من الوَسْق الذي هو الجمع، يقال: وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، ويقال: أمر فلان مُتَّسِق: أي مجتمع على الصلاح منتظم. ويقال: اتسق الشيء: إذا تتابع: ﴿لتركَبُنَّ طَبَقا عن طَبَقٍ﴾ قرأ أبو عمر وابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومسروق وأبو وائل ومجاهد والنخَعيّ والشعبيّ وابن كثير وحمزة والكسائي «لتَركَبَنَّ» بفتح الباء خطاباً للنبي ﷺ، أي لتركَبَنَّ يا محمد حالاً بعد حال، قاله ابن عباس. الشعبي: لتركَبَنَّ يا محمد سماء بعد سماء، ودرجة بعد درجة، ورُتبة بعد رتبة، في القربة من الله تعالى. ٱبن مسعود: لتركَبَن السماء حالاً بعد حال، يعني حالاتها التي وصفها الله تعالى بها من الانشِقاق والطيّ وكونها مرة كالمُهل ومرة كالدِّهانِ. وعن إبراهيم عن عبد الأعلى: ﴿طبقا عن طبقٍ﴾ قال: السماء تَقَلَّبُ حالاً بعد حال. قال: تكون وردة كالدهان، وتكون كالمهل: وقيل: أي لتركَبَن أيها الإنسان حالاً بعد حال، من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حياً وميتاً وغنياً وفقيراً. فالخطاب للإنسان المذكور في قوله: «يا أيُّها الإنسان إنك كادِح» هو اسم للجنس، ومعناه الناس. وقرأ الباقون «لتركَبُنّ» بضم الباء، خطاباً للناس، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، قال؛ لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ، لما ذكر قبل هذه الآية فمن أوتي كتابه بيمينه ومن أوتي كتابه بشماله. أي لتركبن حالاً بعد حال من شدائد القيامة، أو لتركَبُن سُنَّة من كان قبلكم في التكذيب وٱختلاق على الأنبياء.

قلت: وكله مراد، وقد جاءت بذلك أحاديث[1]، فروى أبو نعيم الحافظ عن جعفر بن محمد بن علي عن جابر رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ٱبن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عزّ وجلّ؛ إن الله لا إله غيره إذا أراد خَلْقه قال للملك ٱكتب رزقه وأثره وأجله، وٱكتب شقياً أو سعيداً، ثم يرتفع ذلك الملك، ويبعث الله ملكاً

(١) راجع ١٧/ ١٤.

آخر فيحفظه حتى يدرك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا جاءه الموت ارتفع ذانك الملكان، ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه، فإذا أدخِل حفرته رُدّ الروح في جسده، ثم يرتفع ملك الموت، ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات، فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه، واحد سائق والآخر شهيد» ثم قال الله عزّ وجلّ ﴿لقد كنت فِي غفلة مِن هذا فكشفنا عنك غِطاءك، فبصرك اليوم حَدِيد﴾ قال رسول الله ﷺ: «لتركَبُنَّ طبقاً عن طبقٍ» قال: «حالاً بعد حال» ثم قال النبي ﷺ: «إن قُدأَمَكُمْ أمراً عظيماً فاستعينوا بالله العظيم» فقد اشتمل هذا الحديث على أحوال تعتري الإنسان، من حين يُخْلق إلى حين يُبعث، وكله شدّة بعد شدة، حياة ثم موت، ثم بعث ثم جزاء، وفي كل حال من هذه شدائد. وقال ﷺ: «لتركبُن[1] سَنَن من قبلكم شبراً بشبراً، وذراعاً بذارع، حتى لو دخلوا جُحر ضَبّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ»؟ خرجه البخاريّ: وأما أقوال المفسرين، فقال عكرمة: حالاً بعد حال، فطيماً بعد رضيع، وشيخاً بعد شَباب، قال الشاعر:

كذلِك المرءُ إن يُنْسَأْ لَهُ أجلٌ ... يَرْكَب على طَبقٍ مِن بعدِهِ طَبَقُ

وعن مكحول: كلَّ عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه. وقال الحسن: أمراً بعد أمر، رَخاء بعد شدّة، وشدّة بعد رَخاء، وغنًى بعد فقر، وفقراً بعد غنًى، وصحة بعد سُقْم، وسقماً بعد صحة. سعيد بن جبير: منزلة بعد منزلة، قوم كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة: وقيل: منزلة عن منزلة، وطبَقاً عن طبق[2]، وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه، لأن كل شيء يجري إلى شكله: ابن زيد: ولتصيرُن من طَبَق الدنيا إلى طَبَق الآخرة: وقال ابن عباس: الشدائد والأهوال: الموت، ثم البعث، ثم العَرْض،

---

(١) رواية البخاري «لتتبعن» بدل «لتركبن».

(٢) في أ، ح، ط، ل: طبقة.

والعرب تقول لمن وقع في أمر شديد: وقَع في بَناتِ طَبَق، وإحدى بنات طَبَق، ومنه قيل للداهية الشديدة: أم طَبَق، وإحدى بناتِ طَبَق: وأصلها من الحَيّات، إذ يُقال للحية أم طَبَق لتحوِّيها: والطبق في اللغة: الحال كما وصفنا، قال الأقرع بن حابس التميميّ:

إني امرؤ قد حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ وساقني طَبَقٌ منه إلى طَبَقِ

وهذا أدل دليل على حدوث العالم، وإثبات الصانع، قالت الحكماء: من كان اليوم على حالة، وغدا على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه: وقيل لأبي بكر الورَّاق: ما الدليل على أن لهذا العالم صانعاً؟ فقال: تحويل الحالات، وعجز القوة، وضعف الأركان، وقهر النية، ونسخ العزيمة، ويقال: أتانا طَبَقٌ من الناس وطبق من الجراد: أي جماعة. وقول العباس في مدح النبي ﷺ:

تَنَقَّل مِن صالبٍ إلى رَحِمٍ إذا مضَى عالَمٌ بدا طَبَقُ

أي قرن من الناس. يكون طباقَ الأرض أي ملأها. والطَّبَق أيضاً: عظم رقيق يفصل بين الفَقارين. ويقال: مضى طبق من الليل، وطَبَق من النهار: أي معظم منه. والطبق: واحد الأطباق، فهو مشترك. وقرىء «لتركبِن» بكسر الباء، على خطاب النفس و «لَيَرْكَبَن» بالياء على ليركبن الإنسان. و «عن طبقٍ» في محل نصب على أنه صفة لـ «طبقاً» أي طبقاً مجاوزاً لطبق. أو حال من الضمير في «لتركبن» أي لتركبن طبقاً مجاوِزين لطبق، أو مجاوِزاً أو مجاوزة على حسب القراءة.

قوله تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمِنون﴾ يعني أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات. وهذا ٱستفهام إنكار. وقيل: تعجب أي أعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿وإذا قُرِىء عليهِم القرآن لا يسجدون﴾ أي لا يُصَلُّون. وفي الصحيح: إن أبا هريرة قرأ ﴿إذا السماء ٱنشقت﴾ فسجد فيها، فلما ٱنصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. وقد قال مالك: إنها ليست من عزائم السجود؛ لأن [المعنى] (١)

(١) [المعنى]: ساقطة من أ، ح، و.

لا يُذعِنون ولا يطيعون في العمل بواجباته. ٱبن العربي: والصحيح أنها منه، وهي رواية المَدَنيين عنه، وقد ٱعتضد فيها القرآن والسنّة. قال ٱبن العربيّ: لما أَمَمْت بالناس تركت قراءتها؛ لأني إن سجدت أنكروه، وإن تركتها كان تقصيراً مني، فٱجتنبتها إلا إذا صليت وحدي. وهذا تحقيق وعدِ الصادق بأن يكون المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؛ وقد قال ﷺ لعائشة: «لولا حِدْثان قومِك بالكفر لهدمتُ البيت، ولرددته على قواعد إبراهيم». ولقد كان شيخنا أبو بكر الفِهْريّ يرفع يديه عند الركوع، وعند الرفع منه، وهو مذهب مالك والشافعي ويفعله الشِّيعة، فحضر عندي يوماً في مَحْرَس ٱبن الشَّواء بالثغر ـ موضع تدريسي ـ عند صلاة الظهر، ودخل المسجد من المَحْرس المذكور، فتقدم إلى الصف وأنا في مؤخره قاعداً على طاقات البحر، أتنسم الريح من شدة الحر، ومعي في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده، مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة، ويتطلع على مراكب تَخْت المِيناء، فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه: ألا ترون إلى هذا المشرقيّ كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلوه وٱرموا به إلى البحر، فلا يراكم أحد. فطار قلبي من بين جوانحي وقلت: سبحان الله هذا الطُرطُوشيّ فقيه الوقت. فقالوا لي: ولم يرفع يديه؟ فقلت: كذلك كان النبي ﷺ يفعل، وهذا مذهب مالك، في رواية أهل المدينة عنه. وجعلت أسكنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته، وقمت معه إلى المسكَن من المحرس، ورأى تغير وجهي، فأنكره، وسألني فأعلمته، فضحك وقال: ومن أين لي أن أُقتل على سنةٍ؟ فقلت له: ولا يحل لك هذا، فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك. فقال: دع هذا الكلام، وخذ في غيره.

[٢٢] ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[٢٣] ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

[٢٤] ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢٥] ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿بلِ الذِينَ كَفَرُوا يُكذِّبون﴾ محمداً ﷺ وما جاء به. وقال مقاتل: نزلتْ في بني عمرو بن عُمَير وكانوا أربعة، فأسلم أثنان منهم. وقيل: هي في جميع الكفار. ﴿والله أَعلم بِما يُوعُون﴾ أي بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب. كذا رَوى الضحاك عن ٱبن عباس. وقال مجاهد: يكتمُون من أفعالهم. ٱبن زيد: يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة؛ مأخوذ من الوِعاء الذي يَجْمع ما فيه؛ يقال: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوِعاء؛ قال الشاعر:

الخير أبقى وإِن طال الزمانُ بِهِ والشرُّ أَخبث ما أوعيت مِن زادِ

ووعاه أي حفظه؛ تقول: وَعَيْتُ الحديث أعِيه وَعياً، وأذُنٌ واعِية. وقد تقدّم[١]. ﴿فبشرهم بِعذابٍ أَلِيم﴾ أي مُوجع في جهنم على تكذيبهم. أي ٱجعل ذلك بمنزلة البشارة. ﴿إِلا الذِين آمنوا وعملوا الصالِحاتِ﴾ ٱستثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذين صَدَّقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وعملوا الصالحات، أي أدّوا الفرائض المفروضة عليهم ﴿لهم أَجْر﴾ أي ثواب ﴿غير ممنونٍ﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع؛ يقال: مَنَنْتُ الحبل: إذا قطعته. وقد تقدم[٢]. وسأل نافع بن الأزرق ٱبن عباس عن قوله ﴿لهم أجر غير ممنونٍ﴾ فقال: غير مقطوع. فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قال: نعم قد عرفه أخو يُشْكُرَ حيث يقول[٣]:

فترى خَلْفَهُنَّ مِن سُرْعةِ الرجـ ـعِ مَنِيناً كـأنَّـهُ أَهبـاءُ

قال المبرد: المنين: الغبار؛ لأنها تقطعه وراءها. وكل ضعيف منين وممنون. وقيل: ﴿غير ممنونٍ﴾ لا يُمنّ عليهم به. وذكر ناس من أهل العلم أن قوله: ﴿إِلا الذِين آمنوا وعمِلوا الصالِحاتِ﴾ ليس ٱستثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا. وقد مِضى في «البقرة»[٤] القول فيه والحمد لله. تمت سورة الإنشقاق.

(١) راجع ١٨/٢٦٣.
(٢) راجع ١٥/٣٤١.
(٣) تقدم هذا البيت بلفظ: فترى حتفها من الرجع: والـ ـع منينا.....الخ
(٤) راجع ٢/١٦٩.

سورة البروج

مكية باتفاق. وهي ثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾.

قسم أقسم الله به جلّ وعزّ. وفي «البروج» أقوال أربعة: **أحدها** ـ ذات النجوم؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك. **الثاني** ـ القُصُور، قاله ٱبن عباس وعِكرمة ومجاهد أيضاً. قال عِكرمة: هي قُصور في السماء. مجاهد: البُروج فيها الحرس. **الثالث** ـ ذات الخَلْق الحسن؛ قاله المِنهال بن عمرو. **الرابع** ـ ذات المنازل؛ قاله أبو عبيدة ويحيى بن سلام. وهي ٱثنا عشر بُرْجاً، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر. يسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم؛ فذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثم يستسِرّ[١] ليلتين؛ وتسير الشمس في كل برج منها شهراً. وهي: الحَمَل، والثَّورُ، والجَوزاء، والسَّرَطان، والأسد، والسُّنْبلة، والمِيزان، والعَقْرب، والقَوسُ والجَدْي، والدلو، والحُوت. والبروج في كلام العرب: القصور؛ قال الله تعالى: ﴿ولو كنتم فِي بُروجٍ مُشَيَّدةٍ﴾. وقد تقدّم[٢].

[٢] ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿اليومِ الموعودِ﴾ أي الموعود به. وهو قَسَم آخر، وهو يوم القيامة؛ من غير ٱختلاف بين أهل التأويل. قال ٱبن عباس: وُعِد أهلُ السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه. ﴿وشاهِدٍ ومشهودٍ﴾ ٱختلف فيهما؛ فقال عليّ وٱبن عباس وٱبن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهم: الشاهد يوم الجمعة، والمشهودُ يوم عرفة. وهو قول الحسن.

---

(١) سرر الشهر (بفتحتين): آخر ليلة منه؛ وهو مشتق من قولهم: ٱستسر القمر؛ أي خفي ليلة السرار؛ فربما كان ليلة وربما كان ليلتين.

(٢) راجع ٥/ ٨٢.

ورواه أبو هُريرة مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة...» خرّجه أبو عيسى الترمذيّ في جامعه، وقال: هذا حديث [حسن][1] غريب، لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عُبيدة، وموسى بن عبيدة يُضعَّف في الحديث، ضَعَّفه يحيى بن سعيد وغيره. وقد رَوَى شُعبة وسفيان الثوريّ وغير واحد من الأئمة عنه. قال القُشَيريّ فيومُ الجمعة يشهد على كل عامل بما عمل فيه.

قلت: وكذلك سائر الأيام والليالي؛ فكل يوم شاهد، وكذا كل ليلة؛ ودليله ما رواه أبو نعِيم الحافظ عن معاوية بن قُرّة عن مَعْقِل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «ليس من يوم يأتي على العبد إلا يُنادَى فيه: يابن آدم، أنا خَلَق جديد، وأنا فيما تعمل عليك شهيد، فاعمل فيّ خيراً أشهد لك به غد، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبداً، ويقول الليل مثلَ ذلك». حديث غريب من حديث معاوية، تفرّد به عنه زيد العَمّي[2]، ولا أعلمه مرفوعاً عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. وحكى القُشَيريّ عن ٱبن عمر وٱبن الزُّبير أن الشاهد يوم الأضحى. وقال سعيد بن المسيب: الشاهد: التَّروِية، والمشهود: يوم عرفة. وروى إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن عليّ رضي الله عنه: الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم النحر. وقاله النخعيّ. وعن عليّ أيضاً: المشهود يوم عرفة. وقال ٱبن عباس والحسين بن عليّ رضي الله عنهما: المشهود يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ذلِك يوم مجموع له الناس وذلِك يومٌ مشهود﴾[3].

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذي.

(٢) في كتاب الأنساب للسمعاني: «العمّي» بفتح العين المهملة وتشديد الميم، هذه النسبة إلى العم، وهو بطن من تميم. وفي التهذيب: «قال علي بن مصعب: سمي زيد العمّي لأنه كان كلما سئل عن شيء قال حتى أسأل عمي».

(٣) راجع ٩/٩٦.

قلت: وعلى هذا ٱختلفت أقوال العلماء في الشاهد، فقيل: الله تعالى؛ عن ٱبن عباس والحسن وسعيد بن جُبير؛ بيانه: ﴿وكفى بِاللّهِ شهيداً﴾[1]، ﴿قل أي شيء أكبر شهادة؟ قلِ الله شهيد[2] بيني وبينكم﴾. وقيل: محمد ﷺ؛ عن ٱبن عباس أيضاً والحسين بن عليّ؛ وقرأ ٱبن عباس ﴿فكيف إِذا جِئنا مِن كل أمةٍ بِشهيدٍ وجِئنا بِك على هؤلاءِ شَهيداً﴾[1]، وقرأ الحسين ﴿يا أيها النبِي إِنا أرسلناك شاهِداً[3] ومبشراً ونذِيراً﴾.

قلت: وأقرأ أنا ﴿ويكون الرسول عليكُمْ شهيداً﴾. وقيل: الأنبياء يَشْهَدون على أممهم؛ لقوله تعالى: ﴿فكيف إِذا جِئنا مِن كل أُمةٍ بشهيدٍ﴾[1]. وقيل: آدم. وقيل: عيسى ابن مريم؛ لقوله: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دُمْتُ فِيهم﴾[4]. والمشهود: أمته. وعن ٱبن عباس أيضاً ومحمد بن كعب: الشاهد الإنسان؛ دليله: ﴿كفى بِنفسِك اليوم عليك حسِيباً﴾. مقاتل: أعضاؤه؛ بيانه: ﴿يوم تَشْهَد عليهم ألسِنتهم وأيدِيهم وأرجلهم بِما كانوا يعملون﴾[5]. الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمّة، والمشهود سائر الأمم؛ بيانه: ﴿وكذلِك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناسِ﴾. وقيل: الشاهد: الحفَظَة، والمشهود: بنو آدم. وقيل: الليالي والأيام. وقد بيناه.

قلت: وقد يشهد المالُ على صاحبه، والأرضُ بما عُمل عليها؛ ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «إن هذا المال خَضِر حُلْو، ونِعم صاحبُ المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وٱبن السبيل ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يَشْبَع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة». وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآيـة: ﴿يومئذٍ تحدّث أخبارها﴾ قال: «أتدرون ما أخبارُها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن أخبارها أن تشهد على

---

(١) راجع ٥/٢٨٧، ١٩٧.
(٢) راجع ٦/٣٩٩.
(٣) راجع ١٤/١٩٩.
(٤) راجع ٢/١٥٣.
(٥) راجع ٦/٣٧٦.

كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل كذا كذا وكذا. قال: فهذه أخبارها». قال حديث حسن غريب صحيح. وقيل: الشاهد الخلْق، شهدوا لله عزّ وجلّ بالوحدانية. والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى. وقيل: المشهود يومُ الجمعة؛ كما رَوَى أبو الدّرداء قال قال رسول الله ﷺ: «أكثِروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة. . . .» وذكر الحديث. خرّجه ٱبن ماجه وغيره.

قلت: فعلى هذا يوم عرفة مشهود، لأن الملائكة تشهده، وتنزل فيه بالرحمة[1]. وكذا يوم النحر إن شاء الله. وقال أبو بكر العطار: الشاهد الحجر الأسود؛ يشهد لمن لمسه بصدق وإخلاص ويقين. والمشهود الحاجّ. وقيل: الشاهد الأنبياء، والمشهود محمد ﷺ؛ بيانه: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبِيين لما آتيتكم مِن كِتابٍ وحِكمةٍ﴾ ـ إلى قوله تعالى: ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾.

[٤] ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾.

[٥] ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾.

[٦] ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦﴾.

[٧] ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿قتل أصحابُ الأخدود﴾ أي لعن. قال ٱبن عباس: كل شيء في القرآن «قُتل» فهو «لُعِن». وهذا جواب القسم ـ في قول الفرّاء ـ واللام فيه مضمرة؛ كقوله: ﴿والشمس وضحاها ـ ثم قال: قد أفلح من زكاها﴾: أي لقد أفلح. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي قتل أصحاب الأخدود والسماءِ ذات البُروج؛ قاله أبو حاتم السجستانيّ. ابن الأنباريّ: وهذا غَلَط؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول: والله قام زيد؛ على معنى قام زيد والله. وقال قوم: جواب القسم ﴿إنَّ بطْشَ ربك لشديد﴾ وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال بينهما. وقيل: ﴿إنّ الذين فَتَنُوا﴾. وقيل: جواب القسم محذوف، أي والسماء ذات البروج لَتُبْعَثُنَّ. وهذا ٱختيار ٱبن الأنباريّ. والأخدود: الشق العظيم

(١) راجع ٤/ ١٢٤.

المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد. ومنه الخدّ لمجاري الدموع، والمخدّة؛ لأن الخدّ يوضع عليها. ويقال: تخدّد وجه الرجل: إذا صارت فيه أخاديد من جراح. قال طَرَفة:

ووجهٌ كأنّ الشمسَ حلتّ رداءها عليـه نَقـيُّ اللـونِ لـم يَتَخـدّدِ

﴿النارِ ذات الوقود﴾ «النار» بدل من «الأخدود» بدل الاشتمال. و «الوقود» بفح الواو قراءة العامة، وهو الحَطَب. وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم (بضم الواو) على المصدر؛ أي ذات الاتقاد والالتهاب. وقيل: ذات الوُقود بأبدان الناس. وقرأ أشهب العُقَيلي وأبو السَّمال العدويّ وأبن السميقع «النار ذات» بالرفع فيهما؛ أي أحرقتهم النار ذات الوقود. ﴿إذ هُمْ عليها قُعودٌ﴾ أي الذين خدّدوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين، وكانوا بنجرانَ في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم. وقد أختلفت الرواة في حديثهم. والمعنى متقارب. ففي صحيح مسلم عن صُهَيب: أن رسول الله ﷺ قال: كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر؛ فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فأبعث إليّ غلاماً أعلمه السحر؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه؛ فكان في طريقه إذا سَلَك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه: فإذا أتى الساحر ضربه؛ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحرَ فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس؛ فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني ؛ أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى؛ فإن أبتليت فلا تدل عليّ . وكان الغلام يبرىء الأكمة والأبرص ، ويداوي الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني . فقال : إني لا أشفي أحداً ، إنما

يشفِي الله؛ فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك؛ فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس؛ فقال له الملك: مَنْ ردّ عليك بصرك؟ قال ربِّي. قال: ولك رب غيري؟! قال: ربي وربُّك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الغلام؛ فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بنى! أقد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟! قال: أنا لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب؛ فجيء بالراهب، فقيل له: ٱرجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مَفْرِق رأسِه فشقه حتى وقع شِقاه. ثم جيء بِجلِيس الملِكِ فقيل له: ٱرجع عن دينك؛ فأبى فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه، فشقه به حتى وقع شِقاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ٱرجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: ٱذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فأصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذِروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه؛ فذهبوا به فصعِدوا به الجبل فقال: اللهم ٱكفِنِيهم بما شِئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملِكِ، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانِيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: ٱذهبوا به فأحملوه في قُرْقُور[1]، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فٱقذفوه؛ فذهبوا به فقال: اللهم ٱكفنيهم بما شئت؛ فٱنكفأت بهم السفينة، فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرُك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وتصلبني على جِذع، ثم خذ سهماً من كنانتي[2]، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بٱسم الله رب الغلام، ثم ٱرمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناسَ في صعيد واحد، وصلبه على جِذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله رب الغلام؛ ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات؛ فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب

---

(١) (القرقور) بضم القافين: السفينة الصغيرة.

(٢) الكنانة (بالكسر): جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها، أو من خشب لا جلود فيها.

الغلام! فأتى الملِك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد واللّهِ نزل بك حَذَرك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدودِ في أفواه السِّكك، فخدّت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها ـ أو قيل له اقتحم ـ ففعلوا؛ حتى جاءت أمرأة ومعها صبيّ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: «يا أمَّهْ أصبِرِي فإنِك على الحق». خرجه الترمذي بمعناه. وفيه: «وكان على طريق الغلام راهب في صومعة» قال معمر: أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذٍ مسلمين. وفيه: «أن الدابة التي حَبَستِ الناس كانت أَسداً، وأن الغلام دُفن ـ قال ـ فيذكر أنه أُخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتِل». وقال: حديث حسن غريب. ورواه الضحاك عن آبن عباس قال: كان مَلِك بنَجْران، وفي رعِيته رجل له فتى، فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل؛ فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب، فدخل في دين الراهب؛ فأقبل يوماً فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم، فأخذ حجراً فقال باسم الله رب السموات والأرض وما بينهما؛ فقتلها. وذكر نحو ما تقدم. وأن الملك لما رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك: لا إله إلا إله[1] عبد الله بن ثامر؛ وكان اسم الغلام، فغضب الملك، وأمر فخُدّت أخاديد، وجُمع فيها حطب ونار، وعَرَض أهل مملكته عليها، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على دينه قذفه في النار. وجيء بامرأة مُرْضع فقيل لها أرجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدك ـ قال ـ فأشفقت وهمَّت بالرجوع، فقال لها الصبيّ المُرْضَع: يا أمي، آثبتي على ما أنت عليه، فإنما هي غميضة؛ فألقَوها وآبنها. وروى أبو صالح عن آبن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذِراعاً فأحرقتهم. وقال الضحاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مَبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، فأخذهم يوسف بن شراحيل بن تُبَع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه. حكاه الماورديّ، وحكى الثعلبيّ عنه أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل، أخذُوا رجالاً

---

(١) في الأصول: «... إلا الله عبد الله...» وهو تحريف.

ونساء، فخدّوا لهم الأخاديد ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها. وقيل لهم: تكفرون أو تُقْذَفون في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه؛ وقاله عَطِية العوفِيّ. ورُوي نحو هذا عن ٱبن عباس. وقال عليّ رضي الله عنه: إن مِلكاً سُكِر فوقع على أخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعاً في رعِيته فلم يقبلوا، فأشارت إليه أن يخطُب بأن الله ـ عزّ وجلّ ـ أحل نكاح الأخوات، فلم يُسمع منه. فأشارت إليه أن يخدّ لهم الأخدود، ويلقي فيه كل من عصاه. ففعل. قال: وبقاياهم ينكِحون الأخوات وهم المَجُوس، وكانوا أهل كتاب. ورُوي عن عليّ أيضاً أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبياً بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فٱتبعه ناس، فخدّ لهم قومهم أخدوداً، فمن ٱتبع النبيّ رمي فيها، فجيء بامرأة لها بُنَيّ رضيع فجزِعت، فقال لها: يا أمّاه، ٱمضي ولا تجزعي. وقال أيوب عن عِكرمة قال: ﴿قتِل أصحاب الأُخدودِ﴾ قال: كانوا من قومك من السجستان. وقال الكلبيّ: هم نصارى نجران، أخَذوا بها قوماً مؤمنين، فخدّوا لهم سبعة أخاديد، طول كل أخدود أربعون ذراعاً، وعرضه ٱثنا عشر ذراعاً. ثم طرح فيه النفط[1] والحطب، ثم عرضوهم عليها؛ فمن أبى قذفوه فيها. وقيل: قوم من النصارى كانوا بالقُسطنطينية زمان قُسْطَنطين. وقال مقاتل: أصحاب الأخدود ثلاثة؛ واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس. أمّا الذي بالشام فأنطنيانوس الرومي، وأما الذي بفارس فبختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نُواس. فلم ينزل الله في الذي بفارس والشام قرآناً، وأنزل قرآناً في الذي كان بنجران. وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة، والآخر بنجران، آجر أحدهما نفسه، فجعل يعمل ويقرأ الإنجيل، فرأت ٱبنة المستأجِر النورَ في قراءة الإنجيل، فأخبرت أباها فأسلم. وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وامرأة، بعد ما رفع عيسى، فخدّ لهم يوسف بن ذي نُواس بن تُبَّعٍ الحِميرِيّ أخدوداً، وأوقد فيه النار؛ وعرضهم على الكفر، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار، وقال: من رجع عن دين عيسى لم يقذف. وإن امرأة معها ولدها صغير لم يتكلم، فرجعت، فقال لها ٱبنها: يا أمّاه، إني أرى أمامك

---

(١) النفط (بالكسر وقد يفتح): زيت معدني سريع الاحتراق، توقد به النار ويتداوى به.

ناراً لا تُطفأ، فقَذَفا جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها الله وأبنها في الجنة. فقُذِف في يوم واحد سبعة وسبعون إنساناً. وقال أبن إسحاق عن وهب بن منبه: كان رجل من بقايا أهل دين عيسى ابن مريم عليه السلام، يقال له قيميون[١]، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً في الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحاً في القرى، لا يُعْرَف بقرية إلا مضى عنها، وكان بَنَّاء يعمل الطين. قال محمد بن كعب القُرَظيّ: وكان أهل نَجْرانَ أهل شرك يعبدون الأصنام، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر؛ فلما نزل بها قيميون، بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامرُ عبدَ الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادتُه، فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم، فوحَّد الله وعبده، وجعل يسأله عن اسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه، فكتمه إياه وقال: يابن أخي، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبو الثامر لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخِل عليه بتعليم اسم الله الأعظم، عمد إلى قِداح[٢] فجمعها، ثم لم يُبق لله تعالى اسماً يعلمه إلا كتبه في قِدْح، لكل اسم قِدْح؛ حتى إذا أحصاها أوقد لها ناراً، ثم جعل يقذفها فيها قِدْحاً قِدْحاً، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بِقدحه، فوثب القِدْح حتى خرج منها لم يضرَّه شيء؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم اسم الله الأعظم الذي كتمه إياه؛ فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يابن أخي، قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل. فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضُرٌّ إلا قال: يا عبد الله أتوحِّد الله وتدخل في ديني، فأدعوَ الله لك فيعافِيَك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم؛ فيوحِّد الله ويسلم، فيدعو الله له فيُشْفَى، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فاتبعه على دينه ودعا له فعوفي؛ حتى رُفع شأنه إلى ملكهم، فدعاه فقال له:

---

(١) في أ، ح، و، تاريخ الطبري: «فيمون»، بالفاء.

(٢) القدح (بالكسر): السهم قبل أن ينصل ويراش، جمعه قداح.

أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، فلأمثلنّ بك. قال: لا تقدر على ذلك؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح عن رأسه، فيقع على الأرض ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه نجرانَ، بحار لا يلقَى فيها شيء إلا هلك، فيلقَى فيها فيخرج ليس به بأس؛ فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر؛ والله لا تقدر على قتلي حتى توحِّد الله وتؤمن بما آمنت به؛ فإنك إن فعلت ذلك سُلِّطت عليّ وقتلتني. فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادته، ثم ضربه بعصا فشجه شجة صغيرة ليست بكبيرة، فقتله، وهلك الملك مكانَه، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحُكْمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران. فسار إليهم ذو نُواس اليهوديّ بجنوده من حِمْير، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل، فخدّ لهم الأخدود؛ فحرَّق بالنار وقتل بالسيف، ومَثَّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفاً. وقال وهب بن منبه: اثني عشر ألفاً. وقال الكلبيّ: كان أصحاب الأخدود سبعين[1] ألفاً. قال وهب: ثم لما غَلَب أرياط على اليمن خرج ذو نُواس هارباً، فاقتحم البحر بفرسه فغرِق. قال ابن إسحاق: وذو نُواس هذا اسمه زُرْعة بن تُبّان[2] أسعد الحميريّ، وكان أيضاً يسمى يوسف، وكان له غدائر من شعرٍ تَنُوسُ، أي تضطرب، فسمى ذا نُواس؛ وكان فعل هذا بأهل نجران، فأفلت منهم رجل اسمه دَوْسٌ ذو ثَعْلَبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس في البحر؛ ألقى نفسه فيه؛ وفيه يقول عمرو بن معدي كرب:

أَتُوعِدني كأنك ذو رُعَيْنٍ ... بأنعمِ عِيشةٍ أو ذو نُواسِ
وكائِنْ كان قبلَك من نَعِيم ... ومُلْكٍ ثابتٍ في الناس راسِ
قديمٍ عهدُه من عهد عادٍ ... عظيم قاهِر الجبروت قاسِ
أزال الدهرُ مُلْكَهم فأضحى ... يُنَقَّل من أناس في أناس

(١) في ز، ل: «تسعين ألفاً».
(٢) هو كغراب أو كرمان، ويكسر. وهو أول من كسا البيت الحرام.

وذو رُعين: ملك من ملوك حمير. ورُعَين حصن له وهو من ولد الحرث بن عمرو بن حمير بن سَبَأ.

مسألة ـ قال علماؤنا: أعلم الله عزّ وجلّ المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية، ما كان يلقاه مَن وَحَّد قبلهم من الشدائد، يُؤَنِّسهم بذلك. وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسَّوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صِغر سِنه وعظم صبره. وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشِر بالمنشار. وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم. ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا، حَسْب ما تقدم بيانه في سورة «النحل»[١].

قلت: ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قوِيت نفسه وصلب دينه أولى، قال الله تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿يا بني أَقِمِ الصلاة وأمر بِالمعروفِ وانه عنِ المنكرِ واصبِر على ما أصابك إن ذلِك مِن عزمِ الأمورِ﴾[٢]: وروى أبو سعيد الخُدرِيّ أن النبي ﷺ قال: «إن من أعظم الجهاد كلمةَ عدلٍ عند سلطان جائر»: خرجه الترمذيّ وقال: حديث حسن غريب، ورَوَى ابن سنجر (محمد بن سِنجر) عن أميمة مولاةِ النبي ﷺ قالت: كنت أوضىء النبي ﷺ، فأتاه رجل، قال: أوصني: فقال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعت أو حُرِّقْت بالنار. . .» الحديث: قال علماؤنا: ولقد امتُحِن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصَّلْب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك: ويكفيك قصة عاصم وخُبيب وأصحابهما وما لَقُوا من الحروب والمِحَن والقتل والأسر والحرق، وغير ذلك، وقد مضى في «النحل» أن هذا إجماع ممن قوِي في ذلك، فتأمله هناك[٣].

---

(١) راجع ١٠/ ١٨٠، و ٢٠٢.

(٢) راجع ١٤/ ٦٨.

(٣) راجع ١٠/ ١٨٠.

قوله تعالى: ﴿قُتِل أَصحاب الأخدودِ﴾ دعاءٌ على هؤلاء الكفارِ بالإبعاد من رحمة الله تعالى. وقيل: معناه الإخبار عن قتل أولئك المؤمنين، أي إنهم قُتلوا بالنار فصبَروا: وقيل: هو إخبار عن أولئك الظالمين، فإنه رُوِي أن الله قبض أرواح الذين ألقوا في الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار، وخرجت نار من الأخدود فأحرقت الذين هم عليها قعود. وقيل: إن المؤمنين نَجَوا، وأحرقت النار الذين قعدوا، ذكره النحاس، ومعنى «عليها» أي عندها وعلى بمعنى عند: وقيل: «عليها» على ما يدنو منها من حافات الأخدود، كما قال:

وباتَ على النارِ النَّدَى والمحلَّقُ[١]

العامل في «إِذ»: «قُتِل»، أي لعنوا في ذلك الوقت: ﴿وهم على ما يفعلون بِالمؤمِنِين شهود﴾ أي حضور: يعني الكفار، كانوا يعرِضون الكفر على المؤمنين، فمن أبى ألقوه في النار وفي ذلك وصفهم بالقسوة ثم[٢] بالجد في ذلك: وقيل: «على» بمعنى مع، أي وهم: مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

[٨] ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾.

[٩] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وما نَقَموا مِنهم﴾ وقرأ أبو حَيْوة «نقِموا» بالكسر، والفصيح هو الفتح، وقد مضى في «براءة» القول فيه[٣]: أي ما نَقَم الملِك وأصحابه من الذين حرَّقهم: ﴿إلا أنْ يؤمنوا﴾ أي إلا أن يصدّقوا: ﴿بِاللّهِ العزيزِ﴾ أي الغالب المنيع: ﴿الحمِيد﴾

---

(١) البيت لأعشى قيس، وصدره:

تشب لمقرورين يصطليانها

(٢) في بعض النسخ: «أي بالخلد» بدل «ثم بالجد».

(٣) راجع ٨/٢٠٧.

أي المحمود في كل حال. ﴿الذي له ملك السمواتِ والأرضِ﴾ لا شريك له فيهما ولا نديد ﴿والله على كل شيءِ شهيد﴾ أي عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية.

[١٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن الذِين فَتَنوا المؤمِنِين والمؤمِناتِ﴾ أي حَرَّقوهم بالنار. والعرب تقول: فَتن فلانٌ الدرهمَ والدينارَ، إذا أدخله الكور، لينظر جودته. ودينار مفتون. ويسمى الصائغ الفتان، وكذلك الشيطان، وورِق فتِين، أي فضة محترقة. ويقال للحَرّة[١] فتين، أي كأنها أحرقت حجارتها بالنار، وذلك لسوادها. ﴿ثم لم يتوبوا﴾ أي من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملِك الجبار الظالم وقومه من الآيات والبينات على يد الغلام. ﴿فلهم عذاب جهنم﴾ لكفرهم. ﴿ولهم عذاب الحرِيقِ﴾ في الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار. وقد تقدم عن ابن عباس. وقيل: ﴿ولهم عذاب الحرِيقِ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أَحْرقوا المؤمنين. وقيل: لهم عذاب، وعذاب جهنم الحريق. والحريق: اسم من أسماء جهنم؛ كالسَّعير. والنار دركات وأنواع ولها أسماء. وكأنهم[٢] يعذبون بالزمهرير في جهنم، ثم يعذَّبون بعذاب الحريق. فالأول عذاب ببردها، والثاني عذاب بحرها. ﴿إِن الذين آمنوا﴾ أي هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله؛ أي صدقوا به وبرسله. ﴿وعمِلوا الصالِحاتِ لهم جناتٌ﴾ أي بساتين. ﴿تجرِي مِن تحتِها الأنهار﴾ من ماءِ غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفًّى. ﴿ذلِك الفوز الكبِير﴾ أي العظيم، الذي لا فوز يشبهه[٣].

---

(١) الحرة (بفتح الحاء المهملة): أرض ذات حجارة سود نخرة.

(٢) في أ، ح، ز، ط، ل: وكانوا. (٣) أ، ح، ولا يشابهه شيء.

[١٢] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

[١٣] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إن بطش ربك لشدِيد﴾ أي أخذه الجبابرة والظلمة، كقوله جلّ ثناؤه: ﴿وكذلِك أخذ ربك إِذا أخذ القرى وهِي ظالِمة، إِن أخذَه ألِيم شدِيد﴾. وقد تقدم[1]. قال المبرد «إِن بطش ربك» جواب القسم. المعنى: والسماء ذات البروج إن بطش ربك، وما بينهما معتَرِض مؤكِّد للقسم. وكذلك قال التِّرمذي الحكيم في نوادر الأصول: إن القسم واقع عما ذكر صفته بالشدة: ﴿إنه هو يبدىء ويُعِيد﴾ يعني الخَلْق ـ عن أكثر العلماء ـ يخلُقهم ابتداء، ثم يعيدهم عند البعث. وروى عكرمة قال: عَجِب الكفار من إحياء الله جلّ ثناؤه الأموات، وقال ابن عباس: يبدىء لهم عذاب الحريق في الدنيا، ثم يعيده عليهم في الآخرة. وهذا اختيار الطبريّ: ﴿وهو الغفور﴾ أي الستُور لذنوب عباده المؤمنين، لا يفضحهم بها ﴿الودود﴾ أي المحب لأوليائه. وروى الضحاك عن ابن عباس قال؛ كما يودّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة. وعنه أيضاً «الودود» أي المتودد إلى أوليائه بالمغفرة، وقال مجاهد الوادّ لأوليائه، فعول بمعنى فاعل. وقال ابن زيد: الرحيم، وحكى المبرد عن إسماعيل بن إسحاق القاضي أن الودود هو الذي لا ولد له، وأنشد قول الشاعر:

وأركبُ في الروع عُرْيانةً ذلولَ الجَناح لَقاحا ودُودَا

أي لا ولد لها تحِن إليه، ويكون معنى الآية؛ إنه يغفر لعباده وليس له ولد يغفر لهم من أجله، ليكون بالمغفرة متفضلاً من غير جزاء. وقيل: الودُود بمعنى المودود، كَرَكوب وحَلُوب، أي يوده عباده الصالحون ويحبونه ﴿ذو العرشِ المجِيدُ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصماً «المجيدِ» بالخفض، نعتاً للعرش. وقيل: لـ «ربك»؛ أي إن بطش ربك المجيدِ لشديد،

---

(١) راجع ٩/ ٩٥.

ولم يمتنع الفصل، لأنه جارٍ مجرى الصفة في التشديد. الباقون بالرفع نعتاً لـ «ذو» وهو الله تعالى. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل، والله سبحانه المنعوت بذلك، وإن كان قد وُصف عرشه بالكريم في آخر «المؤمنون»[١]. تقول العرب: في كل شجر نار، وآستمجد المرخُ والعَفار[٢]؛ أي تناهيا فيه، حتى يُقْتَبَس منهما. ومعنى ذو العرش: أي ذو المُلك والسلطان؛ كما يقال: فلان على سرير ملكه؛ وإن لم يكن على سرير. ويقال: ثل عرشه: أي ذهب سلطانه. وقد مضى بيان هذا في «الأعراف»[٣] وخاصة في «كتاب الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى». ﴿فعال لِما يرِيد﴾ أي لا يمتنع عليه شيء يريده. الزمخشريّ: «فَعَّال» خبر ابتداء محذوف. وإنما قيل: «فَعَّال» لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة. وقال الفراء: هو رفع على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرة محضة. وقال الطبريّ: رفع «فعال» وهي نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب «الغفور الودود». وعن أبي السَّفَر[٤] قال: دخل ناس من أصحاب النبي ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه يعودونه فقالوا: ألا نأتيك بطبيب؟ قال: قد رآني! قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد.

[١٧] ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنودِ﴾ أي قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائِهم؛ يؤنّسه بذلك ويسليه. ثم بينهم فقال. ﴿فِرعونَ وثمودَ﴾ وهما في موضع جر على البدل من «الجنود». المعنى: إنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسله. ﴿بل الذِين كفروا﴾ أي من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك. ﴿فِي تكذِيب﴾

---

(١) راجع ١٢/١٥٧.

(٢) المرخ والعفار: شجرتان من أكثر الشجر ناراً، يتخذ منها الزناد، والعرب تضرب بهما المثل في الشرف العالي. و «آستمجد». آستكثر.

(٣) راجع ٧/٢٢٠. (٤) هو سعيد بن يحمد الهمداني.

لك؛ كدأب من قبلَهم. وإنما خص فرعون وثمود؛ لأن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدّمين. وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك؛ فدلّ بهما على أمثالهما في الهلاك. والله أعلم.

[٢٠] ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾.

[٢١] ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

[٢٢] ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿والله مِن ورائهم محِيط﴾ أي يقدر على أن يُنْزل بهم ما أنزل بفرعون. والمحاط به كالمحصور. وقيل: أي والله عالم بهم فهو يجازيهم. ﴿بل هو قرآن مجِيد﴾ أي متناهٍ في الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا، لا كما زعم المشركون. وقيل «مَجيد»: أي غير مخلوق. ﴿في لوحٍ محفوظٍ﴾ أي مكتوب في لوح. وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه. وقيل: هو أمّ الكتاب؛ ومنه انتُسخ القرآن والكتب. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: اللوح من ياقوتة حمراء، أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر مَلَك يقال له ماطِرْيون[١]، كتابه نور، وقلمه نور، ينظر الله عزّ وجلّ فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة؛ ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء؛ يرفع وضيعاً، ويضع رفيعاً، ويغني فقيراً، ويفقر غنياً؛ يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء؛ لا إله إلا هو. وقال أنس بن مالك ومجاهد: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل. وقال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. وقيل: اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخليقة، وبيان أمورهم، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم؛ وهو أم الكتاب. وقال ابن عباس: أوّل شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ «إني أنا الله لا إله إلا أنا، محمد رسولِي، منِ استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي، كتبته صدِّيقاً وبعثته مع الصدّيقين، ومن لم يستسلم لقضائي

(١) في «روح المعاني»: «ساطربون».

ولم يصبِر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليتخذ إلهاً سواي». وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية رضي الله عنه يتوعده؛ فكتب إليه ابن الحنفِية: «بلغني أن الله تعالى في كل يوم ثلثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ؛ يُعِز ويذِلّ، ويبتلي ويُفْرح، ويفعل ما يريد؛ فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك، فتشتغل بها ولا تتفرغ». وقال بعض المفسرين: اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرءونه. وقرأ ابن السَّمَيْقع وأبو حَيْوة ﴿قرآن مجيد﴾ على الإضافة؛ أي قرآن ربٍّ مجيد. وقرأ نافع ﴿في لوحٍ محفوظ﴾ بالرفع نعتاً للقرآن؛ أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح. الباقون (بالجر) نعتاً للوح. والقرّاء متفقون على فتح اللام من «لوح» إلا ما روي عن يحيى بن يعمَر؛ فإنه قرآن «لُوحٍ» بضم اللام؛ أي إنه يلوح، وهو ذو نور وعلو وشرف. قال الزمخشريّ: واللُّوح الهواء؛ يعني اللُّوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح. وفي الصحاح: لاح الشيء يلوح لَوحاً أي لَمَحَ. ولاحهُ السفر: غيره. ولاح لوحاً ولواحاً: عطِش، والتاح مثله. واللَّوح: الكتِف، وكل عظم عريض. واللوح: الذي يكتب فيه. واللُّوح (بالضم): الهواء بين السماء والأرض. والحمد لله.

تم بعون الله تعالى الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبيّ،

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون، وأوّله:

«سورة (الطارق)»

فهرس الجزء التاسع عشر

تفسير سورة الجن

تفسير سورة المزمل

تفسير سورة المدَّثر

تفسير سورة القيامة

تفسير سورة الإنسان

تفسير سورة المرسلات

تفسير سورة عم

تفسير سورة النازعات

تفسير سورة عبس

تفسير سورة التكوير

تفسير سورة الانفطار

تفسير سورة المطففين

تفسير سورة الانشقاق

تفسير سورة البروج

□□□